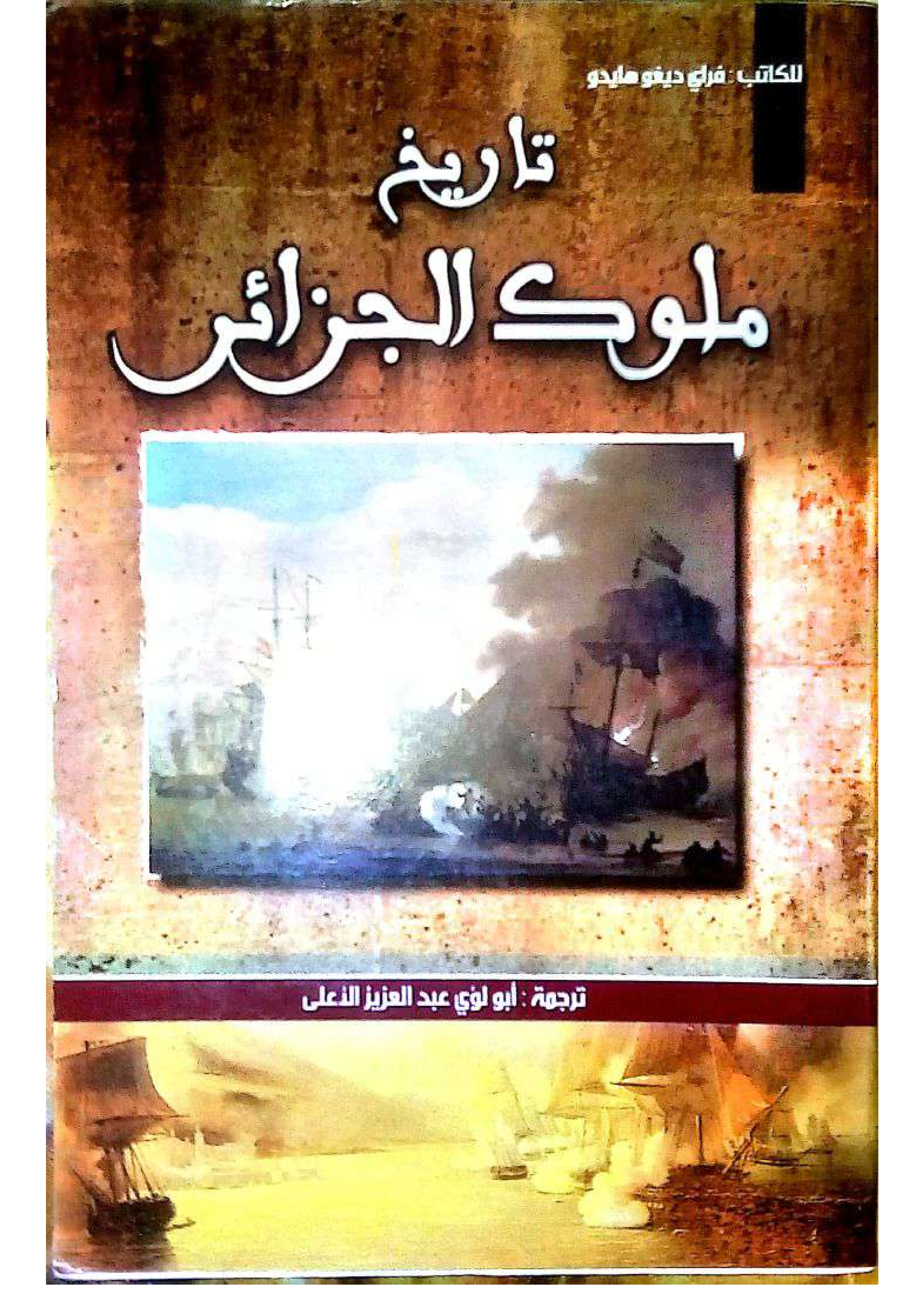

للكاتب : فراي ديغو هايدو
تاريخ
ملوك الجزائر
ترجمة : أبو لؤي عبد العزيز الأعلى





تاريخ ملوك الجزائر

للكاتب

فراي ديغو هايدو

ترجمة

أبو لؤي عبد العزيز الأعلى

رقم الإيداع القانوني 5551 - 2013 المكتبة الوطنية

ردمك 7- 3856 - 0 - 9947 - 978

تم الطبع بمطابع:



للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الصناعية ص ب 193 عين مليلة - الجزائر

الهاتف:032.44.92.00 // 032.44.95.47

الفاكس: 032.44.94.18

web: www.elhouda.com e-mail: darelhouda@yahoo.fr

facebook.com/darelhoudaed

الإهداء والتقديم

إنه ليسرني كثيرا أن أرفع ترجمة هذا الكتاب الفريد في إعطاء صورة متكاملة من صاحبه الذي راح يقدم للقارئ أشياء كبيرة بنوعيتها وخصوصيتها، وهو الرهينة عند قراصنة تفننوا في السطو والنهب والاستعباد، وهو يقدم لنا صورا حية عن ذلك العصر وما واكب معاصريه من ويلات واعتداءات من صعاليك بحر تفننوا في إدارة تجارة صنعت لهم مآثر هي للطيش أقرب، منه للفتح وما شابهه، وكان حقا أن الخلافة لم تكن إلا خرقة لبسها طواغيت وفرضها ربان ورياس على شواطئ وسواحل لبلدان مسيحية، غزت في يوم ما أرضا، فكان الرد أقبح من الغزو ذاته.

وقد قدم لنا الكاتب صور وأنماط عن الشعب الأعرابي البربري وكيف سيق كما سيق أجداده لسابق عهد إلى الخضوع والاستعباد من أعوان خير، عرفوا كيف يجعلون من صاحب البيت عبدا ومن كرامته موطئا.

وإني لأقدم في هذه السطور إهدائي الغالي إلى روح أبوي الكريمين وإلى روح أخويا وإلى أبنائي وبناتي فلذة كبدي، راجيا من الله التوفيق لهم في تحصيل علوم والسمو بأنفسهم إلى قمة شماء لا يعرفها إلا صقر البيداء.

وإلى كل طالب علم ومحصلة فهم، لأن بالعلم تعرف من تكون أنت وبالعلم تصنع لنفسك فخرا وعزا. آخذين المثل المعروف قياسا (كل إناء يرشح بما فيه إلا إناء العلم).

وإلى كل قارئ لتاريخ بلادي، وأنا بترجمة هذا التاريخ لأناس عمروا هذه البلاد وقدموا لنا الكثير من معين لا ينضب، أتأسف شديد الأسف على تحريك لم نجده من حاملين لشهادات عليا، ومتربعين على مناصب علم هي ليست لهم بحكم الواقع الذي يراه كلنا، وأنا أسال أين هؤلاء من هذا الرهينة الذي بحث وسرد وأعطى وهو مملوكا مستعبدا من غيره لتاريخ أمة قيدوه ملوكها بحبال الهوان والأعمال الشاقة ولكنه لسمو همته، أعطى شيئا لم يعطيه غيره من الأحرار الطلقاء ويكفيني بهذا دليل وحجة.

وفي ختام إهدائي أسوق لكل قارئ فانا تعلمته وأجدته، وأنا أكتب هذه الترجمة في خلوة كالقبر. وقد صدق من قال إن الأزمة تلد الهمة فلولاها ما خططت سطرا ... وللحديث بقية في ترجمات استشرفها بحسي ....

أبو لؤي عبد العزيز الأعلى

المقدمة

«في هذا الموضوع المعرفي البيوغرافي الذي خصصه الكاتب «فرديناند دنيس» حول «هايدو» (بيوغرافيا عامة (فيرمان ديدوت).

يعلم فيه القارئ عن طبوغرافيا وتاريخ الجزائر العاصمة العام (فادوليد 1612 كتيب من فقرتين) الذي أصبح نوعا ما غير معروف رغم أهميته الكبرى. وهذا لم يكن من الغرابة في شيء عندما نعلم ندرة هذا الكتاب نفسه من جهة ومن جهة أخرى القليل من الأشخاص الذين لا يحسنون إلا لغة واحدة.

ومنذ تاريخ ذلك اليوم الذي ترجم فيه كتاب «الطبوغرافيا» والذي أصبح في متناول الجميع (المجلة الإفريقية الجزء 14 و15 - ترجمة السيدين مونيرو وبربريجار). وهذا المشروع الذي جئت أكمله والذي هو تاريخ ملوك الجزائر (العاصمة) التي ترجع في أساسها الكامل لـ «هايدو» ومعرفته نعتقد أنها جد ضرورية لكل مهتم بتاريخ الجزائر. فهو الكتاب الذي يروي لنا الأحداث التي حصلت بالقرن السادس عشر وبدونه تكون ليلة مظلمة مسيطرة على كل تلك الفترة، وهذه الفترة في حد ذاتها لم تكن إلا قليلا ما موضحة بمقتطفات للأهالي والتي غالبا ما تكون كاذبة وبسرد بعض الأحداث الأكثر لمعانا كنا مجبرين على الذهاب إلى أكثر من عشرين مؤلف ايطاليا أو اسبانيا[1].. للبحث فيها وأنا على هذه الحالة أصبحت أكثر من مجبر في أبحاثي هذه إلى الترجمة لغرض بي، لم أكن ارغب في أن يكون هذا العمل

(1) لا ننسى دي تيو ولا الرئيس (هيرولت) كل هؤلاء اخذوا من الكتاب الأسبان والايطاليين عن كل ما قالوه عن الجزائر، وفي بعض الأحيان تكون الترجمة أدبية وهذا ما لاحظته. (السيد فرديناند بشاعريته المعتادة، كان يشك في حقيقتها استنتج من قراءة بعض المقتطفات لهايدو أن الكاتب استطاع أن ينقل أحداثا مرئية، ولكن والحدث لم يعد محل شك باكتشافات الأب دان (المشاهير المقبوض عليهم نشرية المكتبة مازارين رقم 1919 في الكتاب الذي يتناول قصة المسيحيين الذين اختطفوا من المسلمين الغير مؤمنين في عرض البحر. والفصل 12 المخصص لرواية القبض بالجزائر العاصمة على هايدو أب فروميستا (1578- 1581).

خاص بي فقط وكان هذا سببا من الأسباب التي جعلتني أنشر اليوم ما أنجزته.

ونشريه «هايدو» كانت جد واضحة ومضبوطة ونحن نشعر أن العالم «البنيتكداني» قد أعطاها كل اهتمامه، إذ انه يسرد لنا حدثا ذا أهمية من دون أن يستند إلى شهود عيان إذ نراه أحيانا هو الشاهد نفسه رغم التأكيدات التي تصادفه أحيانا والتي زادته إيمانا أكثر ف «هايدو» الذي استقر بالجزائر لعدة سنوات. وأنا هنا رحت اعلق كل اهتمامي على هذا النص لجعله ذا مصداقية، حتى لا أجهد القارئ بهذا الأسلوب الاسباني الأكثر حشوا لهذا الكاتب.. (أسلوب هايدو له ميزتين كبيرتين غير لائقتين، واللتين لا تتحملان من قبل الأسلوب الفرنسي. فهو يغالي في الوصف إذ لا يقول أن ذاك شجاع بل يقول انه شجاع وقوي وهكذا. ثم انه يظهر حذر دائما من ذاكرة القارئ له فمثلا: بعد أن يقول إلى البعيد من عشرة اسطر أن شارل الخامس جاء ليغادر «الفلاندر» إلى اسبانيا وإذا كان له جديد يضيفه إلى هذا الملك، إذ يروح فاتحا قوسين ويجدد معلومته كهذه الحالة: شارل الخامس كما سبق أن قلنا كان قد غادر «الفلاندر» الخ ..الخ .. ونحن نلاحظ أنه يجب حذف هذا مباشرة مع إعطائي الأسباب التي جعلتني أفعل هذا).

دي غرامــــون

الفصل الأول

عروج بـربـروس أول ملك للجزائر

أولا

الأول الـذي أخـذ اسـم بربـروس هـو أول الأتـراك الـذين حكمـوا الـبلاد والجزائر العاصمة أين أستطاع الاستحواذ بالقوة والخيانة عليها وكذا سائر المملكات وإمارات البربر وأسمه الحقيقي عروج وليس «انوكس» أو «اوميشو» كما يسميه البعض. وهو إغريقي ومولده كان بجزيرة «ميلتان» المسماة قديما «ليسبوس» وبقرية صغيرة تدعى «مولا» الواقعة إلى الشمال من هذه الجزيرة.

أبوه كان مسيحيًا يدعى «جاكوب»[1] اسم متردد على الألسنة اليوم لدى الإغريق، إذ كان يمارس مهنة صناعة الخزف الطيني. وأنا هنا لا أعلم لماذا كان هذا الاسم اللاتيني بـ «عروج». ولكن روايات الأتراك والموالي.

(الغزوات هل كانت من أعمال خير الدين؟ انظر فيلناف سير لو 1873 الفقرة 8). القدامى الذين ترعرعوا بقصر بربروس الثاني أخاه أعلموني أن الأصح هو بلا شك التالي. وهو طفل راح يساعد أباه في صناعة الخزف الطيني، وهذا الأخير كان فقيرا ورب عائلة كبيرة. والإتاوة التي يقدّمها هو وزملائه للسلطان كانت مثقلة للكاهل. وهو يرى نفسه وزملائه على الدوام مضطهدين من الأتراك. الرجل المسكين وهو المقيّد بالعمل راح يشكو كالعادة من ثقل الهموم والأتعاب كيفما أستطاع والرجل الشاب وهو يرى أباه أكثر فقرا وبؤسا والعديد من الأفراد بالمنزل لا يستطيعون المساعدة لصغرهم (ثلاث أبناء وأربعة بنات وكلهم أصغر منه).

---

(1) حسب الغزوات يعقوب مسلم وقبطان (سفينة للتجارة)؛ ولكن عليه أن يحتاط من الفخر الشرقي ونحن نذكر بأن الكاتب سنان شاوش وهو يكتب خارج موضوع وفاة خير الدين وكتابه لم يكن بيوغرافيا لهذا الأخير، إذ للتفاصيل عليكم بالذهاب إلى مقتطفنا.

وهو يفكر في مغادرة المنزل لأن ذلك يخفف من وطئتهم، كما أن غيابه لا يضيق في شيء، ولأن الأطفال الآخرين باتوا على أبواب سن البلوغ راح يحاول الكسب بنفسه والبحث عن المغامرة لأول وهلة. وهو على هذا الاستعداد جاءت سفينة قرصان من الأتراك ترسو بمرفأ صغير للجزيرة وإلى القريب بفرسخ من «مولا» وهو يعلم هذا الخبر[1] و يرى أن الفرصة قد حانت من دون إن يحدّث أبويه، راح يبحث عن الرايس وهو يترجاه إن يجعله ضمن طاقمه ويضيف له أنه يريد أن يكون محمديا (أي بمعنى على دين محمد ...المترجم). والرايس يرى فيه وجه الصبيّ ذل فأل طيب عليه وذكيّ وصاحب إرادة قوية، يقبله بكل رضى ضمن طاقمه، وبعد أيام من توظيفه لديه كخادم منزلي يأخذ له اسم «عروج»، إذ يومها كان يبلغ من العمر عشرين سنة. ولعدة سنوات راح يمتهن القرصنة مع رياسه والآخرين وبما أنه كان مرتاح لمهنته ،شجاع ومقدام. راح يكشف على ملامح قدرته في العديد من المناسبات الحربية، ولم يتوانى في أخذ مكانة له وسط القراصنة هذه السمعة التي جعلت منه سببا للتجار الأتراك والذين كانوا يشتركون في تجهيز سفينة بالسلاح موجهة إلى «كورسيكا» (وهذا ما كانت عليه سابقا وهي إلى اليوم) بأن قدموا له قيادة السفينة ووعدهم له بكمية من النقود والغنائم. عروج راح يقبل بفرحة وغبطة اقتراحهم. ولكن كانت له مشاريع أخرى إضافة إلى حراسته كما سيؤكده الواقع لنا بعده. إذ بعد أيام قلائل من انطلاقه من القسطنطينية، راح يتفاوض مع بعض المشارقة وجند الطاقم، والذين راح يستخدمهم بعد أن تعرف عليهم في حملات قرصنة مشتركة، وهو يعرض عليهم اقتراحه ورغبته بأن يكونوا معه في توجهه إلى البربر بالسفينة وأنهم سوف ينالون استيلاءات كبيرة على الأراضي المسيحية المجاورة وهو يحبّب إليهم الأمل الكبير في فائدة عظيمة ويتجه من دون معارضة إلى تونس العاصمة. وهو يمرّ ب»ميلتان « يجد أن أباه قد توفى، فيأخذ معه أخويه الصغيرين وهما على بؤسهما لم يجدا بدا في سلوك نفس الطريق الذي سلكه أخاهم الأكبر، ثم يدخلون الإسلام بعد أيام قلائل،

---

(1) رواها بكيفية أخرى سنان شاوش بكتابه (الغزوات)، وهو يصل الى سن الرجولة ،قام بتسليح سفينة ومقاومة المسيحيين ولكنّه وقع أسيرا بين أيدي فرسان رودس وبعد معركتين ناجحتين أعطي لخير الدين عشرة آلاف درهم كمكافأة له. ونحن بعيدون عن دكان الخزفي ولكن نشرية هايدو تعطي لنا إلهاما أكبر.

واحد منهم أخذ اسم خير الدين وأصبح بعدها المشهور بـ «بربروس». الأخر راح يسمى إسحاق بن يعقوب.

وبعد بعض الوقت من مغادرة «ميلتان» بعد أن أخذ معه إخوته يلتقي بسفينة تحمل قراصنة كانوا أصدقاء له، أين راح يحدثهم عن نيته في المرور إلى بلاد البربر لغرض الثراء بسرعة ويسر ويحثهم على إتباعه واتخاذه رئيسا لهم.

وهذا ما حدث. وهكذا راح عروج يرسو بـ «حلق الوادي» بتونس، ولم يكن هذا إلا قلعة صغيرة للجمارك والتجار المفاوضين بالبحر مع البلدان التي تفرغ حمولاتها هنا.

وهو يصل في ربيع سنة (1504)، راح يبحث عن أمير تونس والذي سمح له بالرسو بموانئ المملكة مقابل إتاوة يدفعها ومنها يشتري منه ما هو ضروري من خلال سباقاته البحرية.

ثانيا

وبعد أيام قلائل، راح يركب البحر بسفينة واحدة من سفنه، وهو يحمل معه مجموعة من العساكر وسفينة حربية، وقد ترك الباخرة الأخرى التي لم تكن على أحسن حال بـ «حلق الوادي»، أين ترك بعض زملائه يعمدون إلى إصلاحها.

ولأول خروج له، كان الحظ من نصيبه إذ استولى على سفن شراعية لـ «البابا حول الثاني» بالطريقة التالية، وهما تمخران من «جنوه» ولا تخشيان شيئا وغير مسلحتين كسابق عهدهما، وتحملان مؤنا لـ «سيفيتا . فيشيا». وبربروس الذي يتمركز بمياه جزيرة «إلبا» المواجهة لـ «بيوبنيو» يلاحظ أن واحدة من هاتين السفينتين كانت منعزلة عن أختها لمسافة تبعد أكثر من ثلاثين ميل، فيعطي الأمر بالتهيؤ للهجوم.

وهنا كان الأتراك يقدّرون جيّدا قوة العدوّ وضعف تسليح سفينتهم الشراعية والتي لا تحتوي إلا على ثمانية عشر مقعدا، وهم يخشون أن تأتي السفينة الأخرى لنجدتها أثناء المعركة، كانوا على خلاف في الرأي وهم يرون أن عليهم بالإسراع في الفرار، ولكن «عروج» راح يوبّخهم على جبنهم، وهو يكاد يحترق غيضا. يأمر السفينة الحربية أن ترمي بكل مجاذفها بالماء، ويحرمهم بالتالي من الفرار، ويدفع بهم إلى الهجوم والقتال، والجذافون كانوا جلّهم تقريبا من الأتراك الشجعان والطائعين لأمره.

وفي هذه الأثناء السفينة الشراعية لـ «البابا» كانت تتقدم بهدوء وهي لا تشك إطلاقا أنها كانت مراقبة من طرف القرصان، والبحار في تلك الفترة كانت آمنة، وعلى غير ما هي عليه اليوم، وطاقم السفينة لم يكن يفكر بأن هذه السفينة الصغيرة، سفينة معادية سوف تغير عليهم، وحال اقترابهم منها، لاحظوا من خلال النوافذ بأن ثيابهم تدلّ على أنّهم أتراك.

فراحوا يسرعون إلى حمل السلاح وهم على فوضى كبيرة، مما شجع أعدائهم وفي نفس اللحظة تهاطلت عليهم شحنات من النبال والسهام التي أصابت العديد من المسيحيين بين قتيل ومصاب وأرغمت الآخرين على

التوقف، وهكذا راحت السفينة تجتاح من الأتراك بعد مقاومة قصيرة، إذ أن حجم خسائر هؤلاء كانت خفيفة.

ومنها راح «عروج» يحبس بسداد المقبوض عليهم ويقرّر مهاجمة السفينة الأخرى ويقوم بإلقاء خطاب قصير على عساكره يوضّح لهم كيف أن الغارات لا تكلّف إلا القليل من الرجال بحضور الشجاعة والإقدام. ومنها راح يظهر لهم أن هذه السفينة تأتي من دون عطب وأن ما عليهم إلا التسلح بالشجاعة للاستيلاء عليها بسهولة. البعض منهم راح يخشى هذه المغامرة، لكن الأغلبية راحت تعد رئيسها بإتباعه أينما سار وأتجه. وهذا الأخير يأمرهم بلبس ثياب المختطفين، وفي نفس الوقت، راح يرفع علم «البابا» على السفينة، لمغالطة مسيحيي السفينة الثانية وإيهامهم بأن حراسهم قد انتصروا، وكانت حيلته ناجحة.

إذ أنه عند رؤيته للسفينة تقترب إليه، راح يتجه إليها ويعمد إلى الالتحام بها بضربات بالسهام والنبال من دون شفقة ويحدث بركابها العديد من القتلى، وما هي إلا لحظات وقد تمّ الاستيلاء عليها. ومن دون ضياع للوقت راح يعتقل ركابها المسيحيين، ويحمّل القسم الأكبر على التجديف، معوّضين بذلك عدد لا بأس به من الموريين والأتراك الذين يشكّلون السفينة الحربية للاستيلائين. ومنها راح يأخذ وجهته إلى تونس، أين وصلها بعد أيام قليلة. وكم كانت الدهشة والاستغراب الذين لا يوصفا لهذا النجاح بتونس ولدى المسيحيين ومنها راحت الشهرة تتعلق بشخص «عروج»، أين الجميع راح يتحدث عنه على أنه زعيم شجاع وسديد في المغامرات.

ولأن لحيته كانت جدّ شقراء[1]. ومنها راح يلقب بـ «بربروس». هذا اللقب راح ينتقل إلى أخيه من بعده.

---

(1) هنا نلاحظ أن هايدو لم يكن من الذين يستندون إلى علم التشخيص الظاهري (والأكثر حداثة مما بقي) من بابا عروج. ونحن نعتقد أنه من الصحيح ونحن نأخذ بهذا التقارب الكلامي لهذا الاسم الاسباني المستعار (بارباروخا) وفي نفس الوقت نجد أن الإيطاليين يقولون (باباروسا) والفرنسيين (باربروس) والذي لا يتطابق إطلاقا مع (بابا عروج). إذ أنه علينا بملاحظة أن عروج لم يكن له من العمر إلا ثلاثين سنة. وأن تسمية بابا لا تعطى إلا للشيوخ على وجه الاحترام ...المترجم).

وبغنيمة هذه الإرسالية راح يكتسب رضى ومساعدة الملك، وأشخاص آخرين يرغبون في المشاركة في هذه الاستيلاءات، ومنها أستطاع في الخريف المقبل تسليح سفينتين حربيتين وسفينة شراعية. وراح يجوب شواطئ «صقيلية» و«كلابرا»، أين استولى على عدد من الزوارق والمراكب، والكثير من المختطفين وعاد إلى «حلق الوادي» محمّلا بالسجناء والغنائم.

ثالثا

ومع بداية ربيع السنة المقبلة (1505)، راح «بربروس» يخرج من «حلق الوادي» بسفينته الشراعية وسفينتان حربيتان ويلتقي بالقرب من «ليباري» وهي جزيرة مجاورة لـ «صقيلية» و«كلابري» زورق كبير يحمل جند مشاة أسبان، والذين أرسلهم الملك الكاثوليكي من إسبانيا إلى القبطان الكبير «غونزلاس فرديناند» المتواجد بـ «نابولي». وكم كانت فرحته وغبطته كبيرة وهو يستولي على هذا الزورق الكبير من دون استعمال سلاح ولا إراقة دماء، وبه خمس مائة جندي إسباني، ومن بينهم العديد من أفراد طبقة النبلاء وكان من شروطه أن تقدم له كمية كبيرة من الأموال.

وهناك من يقول أن صاحب المركب والذي كان «ايسكالفون» خرق الزورق وتركه يمتلئ ماء ليسلمه خيانة إلى القراصنة. لكن الأتراك الكبار والموالي يرون عكس ذلك، ويقولون أن المركب عانى كثيرا من العاصفة، وأنه ثقب من العديد من الجهات، وأن السفن الحربية والجند كانوا قد غرقوا، ولم يكن له بدًا في المغادرة خوفا من الهلاك، ويضيفون أن كان البحر في تلك اللحظة على غير هدوئه، ومنها لم تكن له أي وسيلة للمحاربة، مما أجبر الطاقم وهم على هذه الوضعية السيئة للاستسلام أفضل من الغرق في الأعماق.

و«عروج» ينال هنا الكثير من الغنائم من البضائع والثياب والنقود والتي بعث بها الملك الكاثوليكي إلى القبطان الأكبر كمصاريف ومستلزمات للحرب وكذا لمملكة «نابولي». كما أن المسافرين والعساكر كانوا أيضا محل فائدة كبيرة. ولدى عودته إلى تونس، راح يستعمل هذه النقود لإعادة تشكيل السفينتين الشراعيتين للبابا وبعض الاستيلاءات إلى مراكب خفيفة، لأنه بات يظهر له أن هاته سهلة التنقل والقيادة من السفن الشراعية الكبيرة ومنها جعلها سفنا حربية وكذا السفينتين اللتان كانتا بحوزته مع الرهائن.

ولمدة خمس سنوات وهو على رأس هذه الزوارق يجول بحار إيطاليا، أين راح ينهب ويسلب الشواطئ، ومنها أستحوذ على ثمانية سفن مسلحة كلها ملكا له وعمد إلى وضع اثنتين تحت أوامر أخويه «خير الدين» و«إسحاق».

وفي سنة (1510) بعد الكارثة الكبرى لـ «دون غارسيا دي توليدا»، ابن «دوق إلبا» والذي هزم وقتل بجزر «غالفاس» مع العديد من الأشخاص والعساكر الأسبان وملك تونس الذي تعود إليه ملكية هذه الجزر أعطى إدارتها لـ «بربروس» خوفا من أن يثأر المسيحيون لهذه الهزيمة والخسائر.

وهذا الملك كان يرى أن «عروج» تنامت قوّته وأصبح من السهل له الدفاع ضدّ القوات التي سوف ترسل من قبل العدو. وهذا الأخير راح يقبل عن طواعية هذه المهمة نظرا لكون «حلق الوادي» لا يلبي مطلب الملجئ نظرا للعدد الكبير من أفراد قوته وسجنائه وسفنه التي يمتلكها، ومنها راح يسرع في الإيواء بمركزه الجديد، وهو يصبح «قايد» أو حاكم لـ «غالفاس» راح يواصل القرصنة ونهب كل السواحل، وينشر ويغزو بحار إيطاليا، إذ لا سبيل لأيّ زورق أن يبحر دون أخذ كل الحذر.

ومع بداية (1512) راح يقوم بعملية باثني عشر سفينة أين كان يمتلك ثمانية منها والأربع الآخرين تعود ملكيتهم لأصدقائه ورفاقه القراصنة، وكلّها قد تمّ إنشاؤها من السفن التي يستولي عليها كل يوم ،خاصة وأن «غالفاس» لا تنتج أخشاب صالحة للملاحة البحرية إذ لا نرى بها إلا أشجار النخيل والزيتون.

في سنة (1510) «الكونت بيدرو نفارو» كان قد أخذ من المور مدينة بجاية، أين فرّ الملك إلى الجبال المجاورة. وهو يرى نفسه محروما من أملاكه وقوّته وتصله انتصارات «عروج». راح يرسل إليه ببعثات سنة (1512)، يرجوه فيها وبسرعة أن يساعده على استرداد بجاية عاصمته واعدا إياه ليس فقط بدفع مستحقات لخدماته، ولكن أيضا بجعله سيّدا على ميناء بجاية الواسع والمحبّب الرّسو به بما يعطيه من أمن من العواصف طوال أيام السنة[1] ويسمح له بقضاء فصل الشتاء بالقرب من إسبانيا وجزر البليار والخروج حسب إرادته للاستيلاء على العديد من السفن وما تحمله من ثروات.

---

(1) هنا كما تؤكده الجملة الآتية امن السفن الشراعية من عواصف الفصل الرديء بظروفه، زيادة على الالتجاء بالميناء هل هو مبالغ فيه؟. إذ أن أسطول شارل الخامس استطاع ان يحتله إلى غاية سنة (1541) والاستيلاء على المدينة كان قد تم نهاية سنة (1509).

رابعا

ومنها راح «بربروس» يقرّر البقاء طويلا ويعمد إلى ما طلبه منه الملك. وهو يملك تحت تصرّفه أكثر من ألف تركي والذين وهم يسمعون دويّ الثروات الكبيرة والشرف الذي أحرز عليه «عروج» ببلاد البربر، راحوا يسارعون بنفس الحماس الذي ترك الأسبان يذهبون إلى مناجم الهند.

وهو يأمل في أن يحصل هذا قليلا ما، ولكن ما أن أصبح منجذبا بالأسلاب لـ «بانتون» التي راحت تزيده ثراء يوما بعد يوم. يرى أن قواته أصبحت كافية ليس فقط لغزو بجاية ولكن لجعل بلاد البربر كلها مملكة له، وهو يغذّي طموحاته الكبيرة التي لا تجعل منه قرصان بسيط فقط. راح يردّ على الملك على أنه سوف ينطلق اللحظة نفسها.

ويصل في شهر أوت مع سفنه الاثني عشر، محمّلة بالمدافع والذخائر وألف من الأتراك وبعض المور. إذ راح يطلق نيرانه على الحصن الدفاعي للمدينة والذي كان حصنا منيعا والذي أعاد ترميمه وإصلاحه من جديد «الكونت نفارو» والذي كان يرتفع إلى القريب من البحر على رأس الحوض الذي تصلّح به السفن والذي كان مكان الدفاع الرئيسي للمدينة.

وفي نفس اللحظة ملك بجاية ينزل من الجبال التي كان يلتجئ بها ليساعده بثلاثة آلاف موري. ولمدة ثمانية أيام من فتح النيران، تصبح القلعة تقريبا محطّمة ومنها يأمر بالهجوم. لكن في تلك اللحظة تأتي قذيفة من قذائف المسيحيين لتضرب ساعد «عروج» اليسرى والتي قطعته كليّة تقريبا.

وجيشه يفقد شجاعته وتخور عزيمته وهذا الأسوأ يصيب قائده الذي بدا مرغما على الانسحاب للعلاج، وبالتالي التخلي عن مشروعه مؤقتا. وملك بجاية يعود إلى الجبال التي كان بها. و«بربروس» وهو يتألم لإصابته كثيرا يعود إلى تونس بأسطوله مرورا بـ»طبرق» أين كان الجنويون معتادون على صيد المرجان منذ زمن بعيد (كما يقومون به اليوم)، إذ يلتقي بإحدى سفنهم التي تستسلم من دون مقاومة. ومن هنا راح يرسو بـ «حلق الوادي»

ويذهب إلى تونس لعلاج إصابته، وهو لا يرغب في الابتعاد عن أسطوله وهذا الجمع من العساكر الذين أصبحوا ملك له، يأمر أخاه «خير الدين» بأن يخلفه في القيادة، وفكّ التسليح للسفن، واقتيادهم إلى القناة ولم يترك إلا سفينة مسلّحة مربوطة بالسلاسل، ويأوي قسط من الأتراك بالقلعة بعد إذن من ملك تونس والباقي راح يقطن المدينة معه.

وبعد أيام من علم «جنوه» بالاستيلاء على سفينتها، يقرّر «أندري دوريا» الانطلاق مع اثني عشر سفينة جدّ مجهّزة بالمدافع، وهو يمرّ إلى «طبرقة» يعلم بأن «بربروس» يعالج بتونس وأن أخاه بـ «حلق الوادي» مكلف بحراسة السفن، أين راح مسرعا بجيشه يفرق جند خير الدين بالمدافع ويسير إلى السفن الرابضة بالقناة، بينما سفنه الشراعية تحذو حذوه على الشاطئ.

خير الدين وهو يرى المسيرة المظفّرة لـ «أندري دوريا» يأمر بتحطيم وإغراق السفن لكي لا تكن غنيمة للمسحيين وبالتالي لا يستطيعون حرقها ولا أخذها. ثم يتقدم مع أربع مائة من الأتراك لمواجهة وتوقيف العدو، ولكن صفوفه لم تكن قادرة على مقاومة قوّة المسيحيين، ولا قذف سفنهم، راحت من فرط تشتتها لا تستطيع الولوج إلى القلعة وتروح تسارع في الفرار إلى تونس. ومنها أستطاع «دوريا» دخول الحصن ونهبه وحرقه، ويستولي على السفينة الجنوبية المسلوبة وست سفن لـ «بربروس» لم يوفّق الأتراك في تحطيمهم وحرقهم والوقت يداهمهم، ويعود منتصرا إلى «جنوه»[1].

---

(1) إذ نرى أنه من الفائدة الإشارة إلى هذه الهزيمة في كتاب الغزوات، أين راح الكاتب يحذف تلقائيا كل الهزائم التي تلقاها بربروس.

خامسا

ومنها لم يكن لـ «خير الدين» الوقت الكافي لأخذ سفينته الحربية والتي افتقدت منه ولم يحصل إلا على بقايا هياكل سفنه والقليل من الغنائم ولم تكن له القدرة للذهاب إلى تونس. ولا الظهور أمام وجه أخيه. خاصة وأنه أنبئ بأنه ساخط عليه بسبب هزيمته هذه والتي أرجعها إلى جبنه وفقدانه للحيوية. لكن خير الدين لم يكن ليلام لأنه فعل ما يمكن فعله أيّ رجل. وهو المهان من نفسه والخائف من أخيه. يغادر «حلق الوادي» إلى جزر «غالفاس» مع سفينة شراعية أين كان هو رايسها، وهنا راح يعمد إلى التخفيف من غضب أخيه الأكبر بإنشائه لثلاثة سفن كبيرة بمواد حديدية وأشياء أخرى متنوّعة والتي سلمها له «عروج» سابقا. وغضب هذا الأخير يسكن. ويعلمه أنه لا يحمل له أي شعور غير مضاد.

بينما كان «عروج» بتونس يعالج إصابته. راح يسمح لبعض الرياس بالالتحاق بـ«خير الدين» بـ «غالفاس». وحال وصولهم راحوا في بناء سفن. وفي سنة (1513) السفن المنشأة حديثا والست القديمة التي نجت من التحطيم عند هجوم «أندري دوريا» راحت تتسابق تحت قيادة «خير الدين». أما بالنسبة لـ «إسحاق بن يعقوب» فقد بقي بـ «غالفاس» كقايد للإشراف سريعا على إنجاز بعض السفن الحربية تبعا للأوامر المرسلة من عروج الذي كان في فترة نقاهة بتونس وهو يقول وهو محروم من أحد أعضائه أنه يريد بعض الانتصارات لأن فكره لن يرتاح أبدا وعدم قدرته المفروضة عليه تؤلمه على القيام بعمليات ملحوظة.

وما أن بدأ يتعافى. حتى راح إلى «غالفاس» أين وصلها في شهر ماي (1513) وبها مكث لغاية نهاية تلك السنة ونصف السنة المقبلة للانتهاء من بناء سفنه. وتجميع البارود والذخائر.

وأخيرا في شهر أوت (1514) راح ينطلق بإثنتى عشر من السفن الحربية للسباق قصد القرصنة والتي كانت تحمل على ظهرها ألف ومائتي رجل تركي. وراح يحاصر من جديد بجاية من دون انتظار دعوة الملك الذي فرّ إلى الجبال المجاورة. كما سبق أن قلنا. وعندما علم هذا الأخير بقدوم «بربروس» راح يلتحق به ومعه الكثير من حلفائه المور ويموّنه بالمؤن من كل نوع. وبهذا الاستنجاد بدأ «عروج» بدكّ الحصن الذي فقد أمامه ذراعه.

إذ أرداه ركاما وأنقاضا، ومنها أرغم الموقع على دخول المدينة ،ثم راح يفتح نيرانه على حصن آخر والذي بناه حديثا الكونت «بدرو نفارو» بالقرب من البحر على شاطئ جميل[1].

وبعد أيام من فتح النيران، راح الأتراك يقومون بعدة هجومات وقد لقوا مقاومات لم يكن يتوقّعونها. إذ في هجومهم الأول لوحده فقدوا مائة تركي ومائة موري من الأساسيين والشجعان.

وزمن النصفية الأولى من شهر سبتمبر يروح يمرّ، وتبدأ الأمطار الثقيلة في السقوط، إضافة إلى أن خمس سفن حربية تصل من «بينون دي فيلاس»تحت قيادة «مارتان دي رونتيريا» وهو قبطان اسباني شجاع والذي استدعاه الملك الكاثوليكي بأن يحمل على نجدة بجاية.

ويصل بعد أن كانت هناك رياح سريعة ساعدته على الوصول بسرعة، ومنها راح يرغم «بربروس» بالانسحاب من دون أن يحقق حلمه ويرفع حصاره.

وعلى هذا فإن هناك من شيوخ الأتراك من قصّ علي السبب الحقيقي لترك هذه العملية هو مغادرة ملك بجاية وحلفائه المور. وحسب ما يروى أن «عروج» طلب من الذين يريدون البقاء إلى نهاية الحرب والآخرين الذين راحوا يفكرون في زرع أراضيهم (إذ الجوّ صار ممطرا والبذر في بلاد البربر يحصل مع بداية التساقطات الأولى) وهم يجيبوهم بأنهم لا يستطيعون البقاء طويلا في المعركة ومنها راحوا يعودون الواحد تلو الآخر. وما كان من بربروس إلا ركوب البحر برجاله الأتراك، وهو أكثر تغيضا لهزيمته لثاني مرة أمام نفس المدينة بعد أن تلقى خسائر كبيرة.

وغضبه جعله يقرر ألا يعود لا إلى تونس ولا إلى «غالفاس»، إذ راح يتّجه إلى مدينة صغيرة تسمى جيجل والتي تتواجد بالشاطئ على مسافة سبعين ميلا إلى الشرق من بجاية.

---

(1) انظر في الوثائق الإسبانية ،الأمر الذي أولاه إياه الملك (فرديناند دي رفانيد) الجزء 29،ص. 75.

وبما أنها كانت موقعا جيدا يتواجد به مرفأ كاف رغم أنه صغير، إذ راح يقرّر الراحة به لبعض الوقت، والسكان الذين كانوا قرابة الألف يعرفون مقدار شهرته يستقبلونه أحسن استقبال.

سادسا

بربروس راح ماكثا طيلة فصل الخريف والشتاء. وفي هذا الوقت كان سكان تلك المنطقة يعيشون مجاعة كبيرة وهم لم يبذروا إلا القليل من القمح والشعير، والأتراك أنفسهم لم يكونوا متزودين جيّدا. وفي صيف القديس «مارتان» وبالأيام الأولى من نوفمبر جاءت على صفاء أجوائها لتدفع بـ «عروج» إلى اغتنام الفرصة للخروج لسباقاته بسفنه الاثني عشر ويتوجه إلى «صقيلية» و«سردينيا» على أمل الالتقاء ببعض السفن المحملة بالحبوب. وكان النجاح حليفه في عمليته، إذ يستولي على ثلاثة سفن محمّلة بالقمح ذاهبة من «صقيلية» إلى اسبانيا ومنها يعود سريعا إلى جيجل ويقوم بتوزيع ما تحصل عليه على السكان والجبليين الذين راحوا يتألمون لقساوة الجوع.

هذه الالتفاتة أعطت له شعبية كبيرة وعامة وزادت من شهرته وسلطته، التي بها راح يأمل من دون انقطاع في أمور كبيرة، وهو يعرف كيف يوظّف أول مناسبة، إذ في تلك الفترة، كل المور وهم أحرار لا يملكون ملكا وكلهم كانوا يحتمون بتحصيناتهم الطبيعة من الجبال لحماية استقلالهم (كما كتبها خوان ليون) ضد ملوك تونس حتى في لحظة قوتهم الكبرى وضد الملوك المجاورين الأقوياء. ولكنّهم يستسلمون لـ «عروج» طواعية ويختارونه ملكا وسيّدا عليهم. هذا الحدث كان قد جعل كالماضي الذي جعل منهم مور أعداء للملك «كوكو» المجاور لهم وقد راحوا يقومون بحرب ضروس ضده سنة (1515) مانعيه من التعاظم وبالتالي جاعلينه ينهك نفسه في تطوير سلطته التي راح يجدها صغيرة لطموحاته. ويروح للقائه مع مشاة وفرسان موريين وبعض الرماة بالنبال، وكان أن حصل التطاحن بمكان بجبل كبير يقع إلى القريب من اثنى عشر فرسخا من جيجل، والذي يطلق عليه اسم «بني شيار» ويسمى أيضا «جبل الخس». والمعركة كانت حامية الوطيس إلى اللحظة التي قتل فيها ملك «كوكو» بإصابته بنبال ببطنه، وجنده كلهم راحوا يفرّون وهم متبعون ولفراسخ من الأتراك وموريّي جيجل والذين قتّلوهم تقتيلا. بربروس راح يفصل

رأس الملك برأس حربة ويسيرون جميعهم منتصرين ومنها راح يخضع في أيام قلائل القسم الأكبر من مملكة «كوكو»[1].

(1) حسب الغزوات عروج راح يغزو جيجل ومسيحييها بمساعدة من سكان البلد ولم يشير إلى الحرب مع ملك كوكو.

سابعا

وفي السنة المقبلة (1516)، الملك الكاثوليكي (دون فرديناند) البالغ من العمر اثنى وستون عاما يسقط ميتا، هذا الخبر راح يحيي شجاعة سكان الجزائر والذين كانوا مضطهدين من حصن أقامه الملك منذ عدة سنوات سابقة على الجزيرة والموجودة إلى الأمام ولقريب مسافة من الجزائر. (بعد الاستيلاء على بجاية، سكان الجزائر المرعبين راحوا يؤدون بالولاء إلى اسبانيا، وتبعا لذلك بني الحصن «بينون» وتم تسليحه.

هذه المؤسسة بقيت تحت سيطرة الأسبان، حرمتهم من القرصنة التي كانوا يمارسونها عادة والتي تطرقنا إليها إلى البعيد من هنا. (في طبوغرافيا الجزائر العامة (الفصل الرابع).

قبل زمن قصير كانوا تحت الولاء الطوعي لأحد الشيوخ، أمير عربي يسمى «سليم العثمي» الذي راح يحميهم. وبعد قبوله وموافقته راحوا يراسلون «بربروس» الذي يعرفون انتصاراته بالمجيء لتحريرهم من اضطهاد المسيحيين بأن يحطم هذا الحصن.

هذا الأخير راح يستمع إلى اقتراحاتهم برغبة جامحة، وليس للمكافآت الكبيرة المقدّمة من سكان المدينة والأمير، لأنه كان يظهر له لا شيء يحرمه من أن يكون سيّدا على بلاد البربر (كانت هذه موضوع مشاريعه القديمة التي راح ينتظرها منذ زمن بعيد) وللاستيلاء على الجزائر (العاصمة) المدينة الهامة والغنية والمكان اللائق للقرصنة.

وهو هكذا يخفي نواياه ، راح يرسل ببعثات معها الكثير من الخدمات التي سوف يقدمها. ويطمئنهم بأنه سوف يلتحق قريبا لنجدتهم برجاله الأتراك والآخرين قدر الاستطاعة. وكان ما قاله راح ينفذه، ذلك أن نوعية هذا الرجل كانت ثمرة طبيعية لنفسيته الكبيرة ،إذ كانت السرعة والسداد في الرأي الذين يستعملهما في كل حركاته. إذ يرسل أولا عن طريق البحر ستة عشر زورقا، يمتلكها هو وأصدقاؤه القراصنة الذين جاءوا يلتحقون به في جيجل أين وجدوا مساعدته. وعطاياه الجليلة ونقوده التي كانت تنفق على الجميع وعلى هذه السفن راح ينقل خمسة مائة تركي مع المدفعية والبارود.

بينما جاء هو عن طريق البرّ معه ثمانية مائة من الأتراك مسلحين ببنادق. ثلاثة آلاف من موريي جبال جيجل أتباعه، وألفان آخران جاءوا يلتحقون به ساعة الانطلاقة للسير إلى الجزائر، على أمل أن تكون الغنائم مضمونة.

وعند علم الأمير والنبلاء والأغنياء بقروب وصوله راحوا يتقدمون إلى الأمام منه وكان يوما كبيرا للمدينة وهم يقدمون له تشكراتهم الحارة على مساعدته التي سوف يقدمها لهم لتخليصهم من المسيحيين. وكانوا يعتقدون أن «عروج» سوف يدخل بسرعة إلى الجزائر. ولكن هذا الأخير يقول لهم أنه يرى من الضروري أن يذهب إلى شرشال وهو مرفأ يقع على بعد مسافة عشرين فرسخا إلى الغرب من الجزائر، والذي كان في ذلك الوقت يسكنه حوالي خمس مائة ساكن، ويعدهم بالعودة سريعا وسوف يعمل أكثر مما يأملون هم أنفسهم. وسبب هذا التأكيد كان كالتالي: خلال استيلائه على جيجل والبلاد المجاورة بسهولة كبيرة، واحد من رفقائه القراصنة القدامى يدعى «قارة حسن» كان قبل سنوات قد اختطف سفينة جميلة والتي أصبح هو مالكها، أصبح يرغب في أملاكه وانتصاراته، وهو يريد أن تكون له ثروة مشابهة لثروته وقد غادره وسفينته وعدد كبير من أصدقائه الأتراك إلى شرشال.

وقد أستقبل من سكانها والذين (كانوا كما هم عليه الآن).

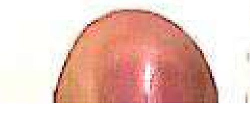
مورسيكيون فروا من غرناطة وفالنسيا والآرغون وهم قراصنة كبار كانوا يحدثون الكثير من المخاطر على السواحل الاسبانية ويعرفون جيدا لما خلقوا.

هؤلاء القراصنة قبلوا طواعية «قارة حسن» كقائد لهم ومنها أصبح سيدا لكل البلاد، وكان على يقين من تأسيس مقاطعة، لأنه لا يوجد ملكا موريا أو شيخا قد يتصارع معه. إضافة إلى أن مرفأ شرشال الذي يستطيع توسيعه بسهولة بقليل من العمل والبادية كانت خصبة والجبال غنية بمواد بناء الملاحة البحرية، وأخيرا للذهاب إلى «البليار» واسبانيا تكون المسافة قصيرة ولا تتطلب إلا عشرين ساعة هذه إمكانات الانتصار راحت تداعب فكر «قارة حسن» وتجعل منه ذا شهرة كـ «عروج» بانتصاراته البرية والبحرية. ومن جانب هذا الأخير كانت كل الأمور معروفة وهو يرى مع كامل الغيض أن يرى أحدا غيره

يساويه (هذه طبيعة المستبدين الطموحين!). وهو يبدئ له أن البحث عن غزو الأرض أو سلطة قريبة من حدود شواطئه، وكأن هناك من يسرق منه ملكه الخاص به. وهو جدّ متحمّس بصلابة للسيطرة على كل تلك المنطقة. مبررا بأنه يستطيع الذهاب إلى الجزائر وقتما يريد، ويقرر أن يهاجم فجائيا خصمه قبل أن يصبح قويًا، وهو على هذه النية المبيتة يسير مسرعا إلى شرشال من دون أن يضيع لحظة، ويأمر سفنه الحربية التي كانت بالجزائر بأن تأخذ نفس الطريق. وهو يصل كان سهلا عليه أن يستولي على المدينة من دون مقاومة والتي لم تكن محصنة (اليوم هي قليلا ما محصنة) والتي لم يكن لها من يدافع عنها إضافة إلى ذلك أنه لم يأتي للحرب ولكن لتصحيح هذه القضية بين أصدقاء وفقط ومنها راح يعلم «قارة حسن» الذي كان مندهشا لمجيئه وغير مرتاح لرؤيته يستولي على المدينة، وأنه هو نفسه يريد استقرار لأسطوله والقرصان المرعب يأخذ بجانب الخضوع كليّة، متحديًا الصداقة التي تربطهما ومنها راح يرحب بمجيء «بربروس» والاعتذار بقدر الإمكان ويسلمه المدينة وسفينته ورجاله الأتراك ونفسه. وعروج راح يبدو أكثر قسوة بأن عمد إلى قطع رأسه والاستيلاء على أملاكه، وأدخل الأتراك بجيشه وأعلن نفسه ملكا على السكان[1].

---

(1) سنان شاوش يروي الاستيلاء على شرشال بطريقة مغايرة، فحسب ما يرى هو أن المسيحيين استولوا على المدينة وأقاموا موقعا وعروج أتى صدفة وأفتكها منهم عنوة. بعض تفاصيل هذه القصة تجعلنا نفكر بأن سنان يقوم بخلط بين هجوم اندريا على شرشال والتي كانت سنة (1531) فقط.



ثامنا

ومنها راح يترك بالمدينة موقعا متكوّن من مائة تركي ومن دون تخلف راح يتوجه إلى الجزائر وبها يستقبل أحسن استقبال وهم لا يشكّون مطلقا في أنهم أدخلوا النار إلى المنزل. و«سليم العثمي» يسكن بقصره بربروس ويعمد إلى فعل المستحيل من أجل أن يحسن معاملته قدر الإمكان والوجهاء يعمدون إلى فعل الكثير للأتراك، وكل الجند استقبلوا أحسن استقبال.

وبعد غد من وصوله راح «عروج» يظهر لهم أن مجيئه كان لغرض تحريرهم من المسيحيين. ويقوم بفتح الخندق بدويّ مرعب وينصّب بطارية ضد تحصينات الجزيرة الصغيرة مهددا مسيحيي الموقع بأن يعمد إلى جزّ رؤوسهم جميعا، ويريهم شجاعة الأتراك المعهودة.

وعليه كان قبل أن يفتح النيران ليريهم استعداده للحرب حسب ما هو معمول به، راح يرسل مفاوضين إلى قائد الحصن، ويطلب منه الاستسلام وأنه سوف يتركه يغادر الجزائر إلى اسبانيا، وسوف يتركه يغادر بحرية الموقع مع كل جنده وأثاثه ويتعهّد له بأن يوّفر له السفن الضرورية للعودة إلى الوطن الأم. والقائد يرد عليه بأن يضع حدا لزهوه وعطاءاته التي لا تخيف أو ترشي إلا الجبناء. ويحذره من أنه سوف يحدث له ما هو أقسى مما حدث له ببجاية. إلى هنا ودون أن ينتظر الرد، راح بربروس يفتح النيران باتجاه الحصن والذي لم يكن يبعد عن المدينة إلا بحوالي ثلاثة مائة خطوة (كما نراه اليوم).

لكن ضعف مدفعيته تمنعه من إحداث نتائج مؤكدة. ولمدة عشرين يوما راح سكان الجزائر يرون أن بربروس لم يكن له أدنى تفوق وأن مجيئه لم يخدمهم في شيء. والأتراك أصبحوا غير محتملين من جراء أعنافهم وأسلابهم وفظاعتهم وأستبدادهم المعتاد وهم يتوقعون أن الأمر بدأ يسير من سيء إلى أسوء.

ومنها راحوا يظهرون عدم رضاهم ويظهرون أسفهم على إستدعائهم لهم ودخولهم الجزائر. و«سليم العثمي» لم يكن ليتحمل تجاهل «عروج» ولا الاستبداد الذي راح يظهره أمام الجميع وسط قصره. ومنها راح يحترس مما

سوف يحدث له في الأيام المقبلة. خاصة وأن بربروس الذي راح يفكر ليلا ونهارا كيف يستولي على المدينة. وأخيرا قرّر على خلاف قوانين الضيافة أن يغتال الشيخ غدرا بيديه وأن ينصب نفسه ملكا بالقوة وبالسلاح بيده وحتى يكتمل وينهي حتفه بلا دويّ ومن غير تنبه أحد. راح يختار ساعة الضحوة، أين «سليم العثمي» كان قد دخل إلى حمامه لوضوء الصلاة، صلاة تلك الساعة، وهي عادة الموريين وقانون قرآنهم، يدخل الحمام من دون أن يراه أحد، خاصة وهو يقطن بنفس القصر كما قلنا، اين وجد الأمير متجرّد من ثيابه وبواسطة أحد الأتراك الذين أتى بهم، يخنقه ويتركه ممدودا على أرضية الحمام. وبعد حوالي ربع الساعة راح يدخل مجددا إلى الحمام ومنها راح ينادي موريي القصر بصرخات مزعجة وهو يقول أن الشيخ مات مختنقا من حرارة الحمام[1]. وعندما سمع من في المدينة بما حصل الكل راح يحتاط تخوفا بغلق بابه على نفسه، وهو يعتقد في خيانة ومؤامرة القتل التي راح يسقطها على «عروج».

وهذا الأخير كان قد حذ ّر مسبّقا أتراكه وكذا موريي جيجل بأن يكونوا على أهبة الاستعداد بأسلحتهم والذين راحوا في موكب صاخبا بالفرحة والغبطة وهم يحملونه عبر طرقات المدينة وينادون به ملكا، من دون أن يستطيع أحد من سكان الجزائر فتح فاه. الشيخ كان قد خلف أبنا مازال بعد شابا صغيرا وهو يرى مقتل أبيه ويخشى أن يقتله بربروس يهرب إلى وهران بمساعدة من أحد خدم عائلته القدامى.

و«ماركيز كوماريس» القبطان العام لمقاطعة وهران يستقبل الأمير الشاب، وبعدها يروح يرسله إلى اسبانيا إلى الكاردينال «دون فرانسيسكو اكسيمانس».

أسقف «توليدا» الحاكم للمملكة بعد وفاة الملك الكاثوليكي وغياب «شارل كانت» والمتواجد ساعتها بـ «فلوندرا».

هنا «عروج» يصبح بهذه الطريقة ملك الجزائر، إذ يستدعي السكان الوجهاء ومنها يؤدون له بالولاء بناء على وعوده وعطاياه، ومنها راحوا

(1) قد يكون غير ذا فائدة أن نقول أنه لم يذكر مقتل سليم. فإذا صدقنا سنان، عروج كان قد اعترف به من اليوم الأول كملك سيد وبتراضي عام. لكن كل النشريات الحديثة تكذب هذه المقولة وتؤكد ما قاله هايدو).

يخضعون لنواياه التي لم يكن لهم بدًا في رفضها. وسرعان ما راح يصكّ النقود ويحصن القصبة والتي كانت الحصن الوحيد للجزائر، أين راح يسلّحها ببعض التسليح المدفعي وبموقع من الأتراك. وبعدها بزمن قليل من هذه الأحداث، راح هؤلاء الأتراك يرون أنفسهم على أنهم هم الأسياد على الجزائر، وهم على هذه الصورة يتعاملون مع السكان وكأنهم عبيد لهم، إذ يسلبونهم ويشتمونهم كعادتهم الفظيعة ،مما جعل هؤلاء يرون أنهم كانوا أفضل حال وهم تحت سيطرة المسيحيين، إضافة إلى علمهم بأن ابن «سليم العثمي» هو الآن بإسبانيا وهم يخشون أن يرونه يوما يأتي لطلب ملك أبيه، عندها يرون أنهم سوف يعاملون على أساس أنهم كانوا شركاء في مهمة القتل وسوف يكون ثقل الحرب عليهم وعلى الأتراك، وأن عليهم أن ينتظروا الاندثار والزوال العام، وهذا عقاب يهدّدهم، ويرونه آت في يوم ما من طرف الموقع الإسباني بحصن الجزيرة.

وبالنتيجة سيكون الجزائريون والأساسيون من الموريين على دراية من أنفسهم بأن يسمعوا من بعضهم ويفتحوا مفاوضات مع قائد الحصن والذي سوف يطلبون منه المساعدة يوم تحلّ لحظة طرد الأتراك.

بربروس لم يكن قد حافظ إلاّ على أتراكه وأرسل موريي جيجل إلى موطنهم.

إضافة إلى هذا راح السكان يرون في إطاعة المسيحيين أفضل لأنهم كانوا عادلين وواقعيين من جنس بذيء وغير مروّد مثل الأتراك.

وفي نفس الوقت كانوا على تفاهم سريّ مع أعراب متيجة، والتي هي سهل كبير مجاور للجزائر، وهؤلاء يحملون غيضا كبيرا لمقتل «سليم العثمي» والذي كان من جنسهم ودمهم وسيّدهم الشرعي، وكان لهم الأمل الكبير في الثأر له ريثما تحل الفرصة.إضافة إلى هذا بربروس لم يكن على راحة من ولاء الجزائر له وسكانها راح يحثهم على الخضوع له بأداء الإتاوات، إضافة إلى أن الأتراك كانوا يخرجون إلى البادية بفرق متشكلة من ثلاث مائة أو أربع مائة كلهم ببنادق ويضطرونهم إلى دفع الإتاوات، ويأخذون منهم معاشهم وأملاكهم وحتىّ بناتهم وأبنائهم.

تاسعا

لكل هذه الأسباب، كان الاتفاق بين سكان الجزائر والعرب ومسيحيي الحصن، إذ يكفي ما حصل يوما أن عددا من الأعراب يدخلون المدينة مخفين أسلحتهم تحت طائلة بيع بعض المؤن كما كانوا يفعلون في السابق، ومنها راحوا يضرمون النار بسفن بربروس التي يصل عددها إلى الأربع والعشرين. وبعض السفن التابعة للقراصنة الذين راحوا ينظمون إلى الأتراك يوما بعد آخر، وقد كانت كلها بالشاطئ على مكانين مختلفين، البعض منها إلى الخارج من التحصينات إلى القريب من المكان الذي يلتقي فيه البحر باليابسة بالقرب من «باب الوادي» (أين يوجد الآن حصن رمضان باشا) والآخرون إلى البعيد منه على شاطئ «الرويسو» الذي ينزل من الجبال (واد المغاسل).

وبينما كان بربروس وأتراكه يخرجون من باب الوادي لإطفاء النيران. سكان الجزائر راحوا يغلقون الأبواب ويمنعونهم من الدخول وفي نفس اللحظة حاكم الحصن والمسيحيين راحوا يمرون عبر زوارق إلى المدينة ويجتمعون بالموريين، ويبدؤون في تقتيل الأتراك الذين وجدوهم أمامهم ومهاجمة المنشغلين بإطفاء الحرائق مع بربروس.

هذا المخطط كانوا جدّ متوافقين عليه بينهم، حتى أن لا أحد راح يتصوره، ولكن جاء ما لم يكن في الحسبان. و«عروج» يعلم بما يجري، راح يتظاهر بأنه لا يعلم شيئا، وكان عليه أن يحرس جيدا سفنه من الأعراب الذين لا يملكون القدرة على الاقتراب منه.

وفي يوم جمعة (هو الأحد لدى المسلمين) راح عروج يذهب عند منتصف النهار إلى المسجد الكبير للصلاة بمرافقة عدد كبير من الأتراك والذين أطلعوا سرّية على ما سوف يقومون به. ومنها راح يجد الوجهاء من بين الجزائريين الذين هم على عادتهم للمجيء في نفس الساعة إلى المسجد وهم لا يشكّون في أن الملك على علم بدسائسهم. وعندما أكتمل الجمع بدخولهم إلى المسجد.

الأتراك راحوا مسرعين لغلق الأبواب وأخذ أسلحتهم بأيديهم ويتأكدون من الأشخاص المخططين.

عروج راح بسرعة يقطع رؤوس عشرين من المتّهمين الأساسيين. ورؤوسهم وأجسادهم تعرض على النهج، و بعدها للتنكيل بهم أكثر، راح يرمي بهم عبر طرقات المدينة في المكان الذي توجد به الإسطبلات الملكية.

وسكان الجزائر كانوا على هلع كبير لسرعة وجديّة الاضطهاد والتي منها راحوا يلاقون معاملة سيئة من الأتراك، وهم لا يملكون الشجاعة في الشكوى ولا مغادرة المدينة.

وهذا ما كان بربروس يريده وبالرضى أو استعمال القوة أصبحوا أكثر خضوعا وأكثر طاعة (بكتاب الغزوات الثورة وإخمادها لها استعمال واحد، ولكن حسب المؤرخ التركي، هاته الأحداث كانت قد حدثت من بعد تحت قيادة خير الدين).

هذه الأحداث وقعت ربيع عام (1517)، في نفس الوقت ابن «سليم العثمي» الذي عرف كيف ينال رضى «ماركيز كوماريس» وبتدخله لدى الكاردينال «فرانسيسكو كسيمانس» والمجلس الملكي لاسبانيا لطلب النجدة، لاسترجاع مملكة أبيه وطرد الأتراك، خاصة وأن الحكومة الإسبانية ترى أنّه من غير اللائق أن يكون هناك بربروس سيدا يمتلك أسطولا كبيرا يضاعف من سلطته وثرواته والذي أصبح على مقربة من اسبانيا (نشكو إلى الله أن يقدم لنا علاج لهذا الزمن!). ومنها أنطلق الأسطول على متنه عشرة آلاف رجل يقودهم ضابط شجاع تابع للكنيسة يدعى «فراسيسكو دي فيرا»[1].

إذ عليه أن يعيد على كرسي العرش ابن «سليم العثمي» الذي يرافقه في الحملة[2].

---

(1) الاسم الحقيقي هو دياغود دي فيرا والذي تؤكد الوثائق الرسمية المنشورة في إضافية (مقتطفات بربروس لغوميرا).

(2) في الوثائق المنشورة بالمذكرة السابقة، أن هذا لم يكن مؤكدا والعكس قد يكون صحيح، إضافة الى أن الحملة حصلت نهاية (1516) وليس سنة (1517).

وعند وصول الجيش إلى الجزائر كان أن عصفت به نفس الأقدار التي سوف تعصف بـ»شارل كانت» ونحن نذكر تلك الذكرى الخالدة ،أين جاءت عاصفة ترمي بجلّ الأسطول إلى السواحل وتحطم أغلبية سفنه وقيادتها، بينما الباقي راح يصل السواحل سباحة وهؤلاء الناجون ألقي عليهم القبض من قبل «عروج» الذي راح يخرج من المدينة على رأس رجاله الأتراك[1].

وهنا سلطته وشهرته راحت تجذب إليه الكثير، إضافة إلى أنه كان يعتبر رجل أسطوري وسعيد في انتصاراته.

ومنها الأعراب المجاورين للجزائر راحوا يرون من يوم إلى آخر أنفسهم مضطهدين من الأتراك الذين يحملون لهم ثأرا على محاولتهم في الردة. إذ لم يستطيعوا تحمل هذا الاستبداد الجديد لهم، وهم يرون أنهم كانوا أحرار تحت قيادة شيوخهم. وفي هذا الظرف يتجهون إلى ملك «تنس» مدينة تقع على بعد ثلاثين فرسخا إلى الغرب من الجزائر وإلى مسافة خمسة عشر شرق مستغانم، وثلاثين من وهران واثنان وخمسين من تلمسان[2].

وفي هذه اللحظة الملك كان جدّ قويّ ويحمل ثقة كبيرة لدى الأعراب، إذ يترجونه في كل لحظة على مساعدتهم في التخلص من الأتراك ومن مساوئهم الغير قابلة التحمل والتي طالت. هذا الأمير يدعى «حميد العبدي»[3]. وهذا يعني أن»حميد» هو الزنجي، لأنه كان أكثر سوادا وهو أبن أحد البيض وزنجية. كما أن له عاطفة الشفقة على الأعراب والذين يعتبرونهم من نفس دمهم، إضافة إلى أنه يخشى المجاورة الغير محمودة لـ»بربروس» وهو يقيّم فيه أنه سوف تكون نهايته مماثلة لـ «سليم العثمي» وأسبابه تحتّم عليه اللجوء إلى الحرب ضده وطرد الأتراك من الجزائر

---

(1) هنا هايدو لم يكن دقيقا في العادات المتوارثة، إذ لم يكن على توافق والوثائق الرسمية. الأصح أن الأرمادة تتشكل من ثلاثين سفينة يركبها ثلاثة آلاف رجل والهزيمة قد حصلت ،ليس من سوء الأحوال الجوية ولكن لإجراءات الجنرال. سنان شاوش بمبلغاته المعتادة، يتحدث عن ثلاث مائة وعشرين من السفن وخمسة عشر مائة من الرجال).

(2) لاحظوا أن الفرسخ بالنسبة إلى هايدو يتراوح غالبا بين 8 إلى 11 كلم.

(3) حسب هذه الوثائق التي ذكرناها آنفا، يدعى مولاي أبو عبد الله والذي وجد نفسه مضطرا للتحالف منذ زمن مع الأسبان).

(العاصمة). إذ راح يجمع عشرة آلاف من الفرسان من أتباعه والمتحالفين معه وينطلق معهم من «تنس» في شهر جوان (1517) بعد زمن قصير من هزيمة الجيش المسيحي. ولكون كل أعراب هذه المناطق يمقتون الأتراك، ويخشون السقوط تحت جوقهم، الجيش راح يمدّ بإمداد من الفرسان والمشاة في كل مرحلة من المراحل جاءوا مسارعين للدفاع عن قضيتهم الواحدة.

هنا عروج يقرّر عدم انتظار العدوّ. ويسير إلى مواجهته بالهجوم عليه، وهو يعتمد على شجاعة الأتراك والذين جميعا يملكون بنادق (هو سلاح لا يمتلكه الموريون بعد). ويترك خير الدين مع بعض الجند للحراسة بالجزائر ولضمان الأمن يأخذ معه عشرين رجل رهائن من السكان الوجهاء، ويبدأ السير بألف من الأتراك مجهزين ببنادق وخمس مائة موريسكي أندلسي[1].

من غرناطة والأرغون وفالنسيا، والذين جاءوا من كل نقاط إلى بلاد البربر بالجزائر (العاصمة) أين استقبلوا استقبالا حارا من قبل الأتراك وبالتالي أدخلوا صفوفهم. هؤلاء الموريسك كانوا كلهم تقريبا مجهزون بنبال وفي ظرف مسيرة يومين، عروج يلتقي بعدوّه على مسافة 12 فرسخا إلى الغرب من الجزائر بالقرب من واد الشلف. والمعركة تبدأ والأتراك والموريسك يقتلون الكثير من الجمع المعادي بنبالهم، مما جعل ملك «تنس» يضطر إلى الفرار بسرعة وهو متابع بالسيف في أحشائه إلى غاية عاصمته.

وهو يرى نفسه غير قادر على أن يحاصر راح يلتجئ بجبال الأطلس، ولكنه وهو لا يجد الأمان يقطع بجنده الجبال ويصل إلى سهول الصحراء (هو الاسم الحالي لنوميديا القديمة) وهو بلد قريب من بلد الزنوج ومنها يعود بربروس من دون صعوبة إلى «تنس».

إذ ينهب القصر عن آخره ويستولي على كل شيء لم يستطيع الملك أخذه عند فراره.

ومنها راح الأتراك يراقبون سكان البلد، والذين اضطروا إلى الاعتراف بغازيهم ملكا وسيدا عليهم. وهذا الأخير يعطي بعض الأيام راحة لجيشه المنهك من الأتعاب وحرارة الفصل لهذا البلد.

---

(1) الموريون الذين جاءوا من اسبانيا ينقسمون إلى أندلسيين وتاغران حسب المقاطعات التي كانوا ينتمون إليها).

وفي هذه اللحظة بعض السكان الأساسيين لتلمسان يعلموه إن كان يريد أن يمر بجيشه أين سوف يقدمون إليه المدينة والمملكة.ذلك لأنهم كانوا جدّ مغتاظين من ملكهم الذي استولى على كرسي العرش باصطناعه لثورة ضد ابن أخيه الذي كان الملك الشرعي والذي فرّ إلى وهران. وهذا الملك كان يدعى «أبو زيان» وابن أخيه يدعى «عبيش مان» (أبو زيان أبي حمو).

عاشــرا

بربروس لم يكن يفكر في ترك فرصة جميلة لمضاعفة قوّته، إذ يراسل أخاه خير الدين بأن يرسل إليه بحرا وبشاطئ "تنس" (المدينة لم تكن تبعد عن الشاطئ إلا بحوالي فرسخ) عشرة مدافع صغيرة خفيفة ومنصاتها، لكي يستطيع جرّها عبر الطريق البريّ، وكانت تلزمه هذه المدفعية طالما أنه يخشى هجومات من «الماركيز دي كوميراس» وهو يمّر بحدود وهران والتي سوف يستعملها بتلمسان إن كان في حاجة إليها.

أخوه يؤتمر بأوامره ويرسل إليه المدافع والكثير من البارود والقذائف والذخائر بخمسة سفن والتي تفرغ حمولتها ب»رأس تنس»

وبعد أن تلقى هذا العتاد راح يجمع المؤن من كل نوع وصنف ويحملها على الجياد التي كانت تهيم على تلك الأرض. ومنها ينطلق دون توقف أثناء النهار ويصل إلى "قلعة بينارياكس" (قلعة بني رشيد). وهي مكان يقع إلى مسافة عشرة فراسخ من وهران وأربع من مستغانم، وقد راح يستقبل من جميع السكان والذين راحوا يدينون له بالولاء بإرادتهم الحرة.

وشهرة انتصاراته كسبت له العديد من الموريين الذين كانوا يترقّبون المغامرات لكسب الغنائم. أتوا طواعية لينظموا إليه في عمليته هذه. وبالمقابل أستقبلهم استقبالا حارا ومنها ازدادت قواته بألف وخمس مائة فارس إذ لم يكن خسر إلا ستين رجلا من القافلة التي انطلق بها من الجزائر.

وهو يرى لو أن ملك "تنس" يرجع بالموريين وهم مساعدون من القبطان العام لوهران والذي كان إلى القريب من هنا يسقطون عليه كالثلج ويقطعون عليه الانسحاب (وإلا ما جدوى استعمال قلعة بينارياكس).إذ يأمر أخاه الثالث «إسحاق بن يعقوب» بأن يبقى يحرس هذا الموضع بمائتي تركي مسلحين بالبنادق وبعض الموريين والذين يثق بهم كثيرا والذين اختارهم من الذين أتوا معه من الجزائر.

ومنها راح يسرع الخطى مع بقية الجيش، ويلتقي بالملك «أبو زيان» على مسافة أربع فراسخ إلى القريب من وهران وثمانية عشر من تلمسان. وهذا

الأمير وهو يعرف أن «عروج» له الرغبة في طرده من عاصمته، راح يسير لاستقباله. وهو يجهل خيانة أتباعه والذين كانوا سببا في مجيء الأتراك. ويقرر جادا أن يهاجم العدو بالسهل أفضل من البقاء بتلمسان ومحاربته على أبواب قصره إذ لم يكن يشك مطلقا بالسكان ويعرف أن العديد منهم ليسوا على شعور بما سيحصل. إذ أنهم خرجوا بجموع من الجيش تتشكل من ستة آلاف فارس وثلاثة آلاف من المشاة وهو يرفق معه ملك «تنس» القديم «عميد العبدي» والذي قطع الأطلس آتيا من الصحراء إلى تلمسان، وعندما اجتمعا الجيشان بدأت المعركة سريعا بسهل واسع وكبير يسمى «اغوابيل».

والمعركة كانت طويلة وشرسة وأخيرا الأتراك وموريسكي اسبانيا كانوا قد قتلوا الكثير من الرجال والجياد بقوة بنادقهم ومدافعهم وملك تلمسان وهو المهزوم كثيرا يفرّ إلى عاصمته مع ما تبقى له من الجمع ومن دون انتظار «عروج» ليقطع رؤوسهم[1].

الملك القديم لـ«تنس» فرّ عن طريق آخر وهو يجتاز الجبال ويصل إلى الصحراء هاته الحوادث حدثت مع بداية سبتمبر (1517). بعد نصر لا مثيل له وتحطيم كبير لقوات الأعداء، ومنها عرف «بربروس» أن لا أحد يستطيع مواجهة آماله ورغباته، إذ راح يواصل بسرعة مسيرته إلى الأمام وهو يصل إلى منتصف المسافة من المدينة.

السكان الذين أتوه وتحدث إليهم كانوا ينتظرونه، وكدليل على ما يقولون بعثوا إليه برأس الملك «بوزيان». ومنها راح «عروج» الذي لم يكن يصدق ما رأت عيناه يبدي فرحته، ويطلق طلقات بنادق ومدافع تعبيرا عن غبطته وهو المنشرح لطموحاته التي بقت.

---

(1) ليس من الصحيح لـ«مارمول» أن معركة «اغوابيل» ولا مقتل الملك وعلى أية حال فإننا متأكدون من الوثائق الاسبانية والمترجمة من السيد «دي لابريموداي بانهليس» أبو حمو الذي كان محور السؤال، إذ أننا نراه في السنة المقبلة يحاصر «إسحاق» بالقلعة (المجلة الإفريقية. 1875 ص. 149).

ويصل بعد يومين إلى أبواب تلمسان. الوجهاء وكل السكان تقريبا وهم على غرابة ينظرون إلى الأتراك الذين لم يرونهم ولم يعرفونهم من قبل وخاصة «بربروس» الشهير، خرجوا من المدينة للقيام بأفراح واستقباله.

وما أن دخل منتصرا حتى راح يعد السكان بوعود راح يستولي على الأملاك الواسعة للملك السابق، ويجرد الذين نهبوا القصر بعد موت «بوزيان».

ثم يعمد إلى أخذ ما أمكن من نقود وأراضي موريي تلمسان.

وقسم من هذه الأتاوات راح يصرفها على الجيش وإعطاء هدايا إلى أتباعه والقسم الآخر راح يحصن به المدينة وخاصة القصبة.

ذلك أنه يعرف جيدا أن المسيحيين لن يكونوا مرتاحين وهم يرونه يستقر بالقرب من وهران. وأن «الماركيز» لن يدخر جهدا في مساعدة «بوش مان» الذي كان بوهران لاستعادة مملكته.

ولغرض توسيع سلطته راح يرسل بعثات إلى ملك فاس «مولاي حامد المريني» طالبا منه التحالف وواعدا إياه بمساعدته ضد ملك المغرب والموريين الآخرين والذين كانوا على الدوام في حروب، وكذا الوصول إلى معاهدة هجومية ودفاعية ضد المسيحيين أعداؤهم المشتركين ويضيف بأنه لا يحمل أدنى شك ضد الموريين.

وملك فاس يقبل برضى. و«بربروس» يبقى طيلة سنة (1517) بتلمسان يتمتع بانتصاره. أمّا خير الدين فراح يحكم الجزائر وإسحاق بن يعقوب مملكة التنس مع إقامته بقلعة بني راشد وبعدها بأشهر يروح ضحية حادث أحزن كثيرا أخاه وسكان القلعة يتعاطون كل أصناف العنف. وينهبون سكان المدينة وضواحيها الذين راحوا يقتحمون الحصن وجمع كبير منهم راح يطعن بضربات مجانيق وسهام إسحاق وكل الأتراك.

وأربعون من المنهزمين كانوا قد أحدثوا ثغرة وراحوا يتوجهون إلى تلمسان ولكنهم توبعوا من طرف الموريين وتمكنوا منهم وقتلوهم عن آخرهم[1].

وعندما علم «بربروس» بهذا الخبر وهو بتلمسان، راح يشعر بألم كبير، لأنه يحب كثيرا أخوته وهذا الأخير بالخصوص. وبما أنه لم تكن له وسيلة للانتقام في هذه اللحظة راح يخفي غيضه وحفظ العقاب إلى حين. إذ نرى قبر إسحاق الآن بنفس هذه القرية لـ«قلعة بانياراس» أين يدلك عليه السكان.

---

(1) هذه الفقرة ليست دقيقة كلها ،إذ أن إسحاق كان محاصر منذ شهر جانفي (1518) من أبو حمو ودون مارتان للأرغون.

ولكن بوصول إمداد من (300) اسباني وبعد مقاومة طويلة وقوية، إسحاق يقتل لحظة خروجه من الحصن من طرف الأقوام المنتفضين بحضور الأسبان الذين لم يستطيعوا أو لم يريدوا أن يعارضوا هذا الانتهاك لحقوق الأشخاص.

الحادي عشـر

في نفس شهر سبتمبر أين «بربروس» استولى على مملكة تلمسان، «شارل كانت» كان قد وصل إلى «فلاندرا» بإسبانيا لاستلام التاج بعد وفاة جده الملك الكاثوليكي «دون فرناند» الذي توفي العام الماضي إذ راح يرسو بـ«بيسكاي» بجيش كثير العدد.

والماركيز «كوماريس» الحاكم العام لوهران وهو يسمع هذه الأخبار راح يغادر وهران إلى اسبانيا. وذلك لسببين، أولهما تقديم خدماته إلى الملك الجديد، وخاصة إعلامه بانتصارات «عروج» وإطلاعه بأن لا يترك المجال لمضاعفة قوّة هذا المتمرد المحتال.

وهذا الحكم كان من شخص منذر، يرى بأنه إذا لم يسرعوا إلى إخماد هذه النار فسوف تستهلك قسطا من البلاد المسيحية ونحن هنا نقوم اليوم بالتجربة القاسية. ولانتصار أفضل «الماركيز» و«ابوشن مان» الذين كان عليهم أن يرتموا تحت أقدام «شارل كانت» لتحسيسه ولغرض مدّهم بنجدة ليضعوه على الكرسي.

هذه الكلمات راحت ترفع من رضى جلالة الملك ومنها أعطى الأمر بتلبية رغباتهم بجيش من عشرة آلاف موّجه إلى محاربة «بربروس» وإعادة الملك إلى تلمسان.

ومنها عاد «الماركيز» إلى وهران مع هذا الجيش بداية (1518) في شهر ماي زمن نضج الكرز حسب قول أحد الشيوخ موالي «قرطبة» (المتواجد هنا). ومنها يتجه إلى تلمسان لغرض طرد الأتراك ومعه «ابوشن مان»، وعروج الذي لا يعرف نوما. كان قد علم بكل هذا ويشك فيما سيحصل، أجرى استعداده وأعلم ملك فاس.

وقد زاد من نشاطه وهو يعلم أن «الماركيز» بوهران مع جيش كبير العدد راح يحث حليفه على الوصول.

وهو يرى أنه لم يأتي في اللحظة التي بدأ فيها الأسبان بالسير إليه، إذ راح يفكر في الخروج لقائهم بألف وخمس مائة من رجاله الأتراك والأندلسيين

مسلحين بالبنادق إضافة إلى خمسة آلاف من الفرسان من المورين يتشكلون من قسمين من الذين أتى بهم التلمسانيون والذين اقسموا بالوفاء له وهو غير مطمئن لهؤلاء الأواخر وبالنتيجة فهو أضعف قوّة أمام الأسبان.

فراح يقرر البقاء بالمدينة ،آملا أن يبقي على الأسبان حتى يصل ملك فاس والذي وعده بالقدوم قريبا.

ثم أنّه راح يغيّر من رأيه، لحظة وصول «الماركيز» إلى أبواب تلمسان وهو لا يثق في السكان الذين يرونه غير مرتاح من الحرب التي تقع أثقالها عليهم[1].

إذ راح يغتنم فرصة ليلة مظلمة للهروب بمساعدة السكان مع الأتراك والأندلسيين على الجياد مع حمل الغنائم الممكنة وراح يأخذ طريق الجزائر مسرعا، آملا في وضع حذر ويقظة العدو على خطأ، ولكن ما أن ذهب والماركيز مخيّم بالقرب من المدينة يخبر بهروبه ويعلم بالطريق الذي سلكه الأتراك، يروح يأخذه هو نفسه مع مجموعة من الجند الحاملين للبنادق المجهزة جيدا وهو يحذر نفسه بسبب ظلام الليل. ومنها يلتحق بسرعة بـ«عروج» على مسافة ثمانية فراسخ وفي اللحظة التي كان يجتاز فيها نهرا كبيرا يسمى «هيكسدا» (إذ يلزمنا أن نحتاط لهذا كما يقول السيد بربرجار بعدم الخلط بين هذا النهر وواد سلي).(انظر الموضوع المنشور بالمذكرة السابقة).

وهو يحاول اجتيازه للجوء ويرى الماركيز قريبا منه والمسيحيون قد اقتربوا وهم يقتلون له عدد من أتباعه ويقطعون رؤوس البعض وهو يحاول توقيف العدو راح يستعمل طريقة حربية.

(والتي قد ينجح بها لو كان يملك مجمعا قويا). إذ راح يسكب كمية كبيرة من كؤوس الذهب والفضة والمجوهرات والنقود وأشياء أخرى باهظة الثمن والتي كان الأتراك يحملون منها حمولة كبيرة آملين في أخذ

---

(1) هايدو لم يقل أن عروج دافع على المدينة لمدة ستة أشهر وأنه لم ينزوي بالمشور إلا بعد أن أصبح الأسبان على الأبواب وفي نفس الوقت التلمسانيين انقلبوا ضده (انظر المجلة الإفريقية 1878 ص. 390).

وقت ليكونوا بملجأ وراء النهر، أمام طمع المسيحيين الذي راح يحرضهم على التقاط الكنوز التي راح «عروج» يبذرها. لكن «الماركيز» الشجاع راح يحرض رجاله على مقت كل هذه الثروات[1].

ولم يكن لهم إلا الفخر الكبير في إلقاء القبض على «عروج» قبل أن يجتاز النهر. وهم يطئون بإقدامهم الكنوز، راحوا ينتصرون على الأتراك من دون شفقة. هؤلاء وهم يرون أنفسهم قد التحق بهم الأسبان وراحوا يلاحقونهم عن قرب استداروا إلى الخلف وراحوا يقاتلون كالرجال العازمين على الموت.

وعروج بساعد واحدة يصارع كالأسد. وما هي إلا لحظات إلا والكثير من الأتراك يلقون مصارعهم الواحد تلو الأخر. مجموعة قليلة منهم استطاعت اجتياز النهر والهروب. هكذا كانت نهاية المشاريع الكبرى لـ«بربروس» الأول الذي جلب الأتراك إلى بلاد البربر وعلّمهم قيمة ثروات «بينون» أين كان السداد والشجاعة[2]. التي أسسوا بها أمبرطورية لازالت إلى اليوم بالجزائر (العاصمة).

الماركيز وهو المغتبط لهذا النصر والذي نراه طبيعيا. راح يوزّع على الجند من دون أن يحفظ لنفسه الثروة التي صنعها. ويعود إلى تلمسان وهو يحمل رأس عروج على طرف نبل ويقدمه من دون صعوبة إلى «ابيش مان» على كرسيه وفي أقل من خمسة عشر يوما من هذه الحادثة، ملك فاس يصل إلى «مليلة» ببلد يسمى «عبدلي» مع عشرين ألف من المشاة والفرسان

---

(1) هذا الشكر قد يستطيع أن يكون غير مقبول إذ أنه يعطي لنا تصرفات النبل التي أعطيت إلى الفارس «غارسيا دي تينو» الذي قتل عروج لحظة الهجوم. والكوكبة الاسبانية التي لم يكن بها إلا أربعين رجلا. الباقي بقوا في المؤخرة وقد أخرهم النهب (غوميز المقدمة ص. 159).

(2) أرى علي هنا ان افتح قوسا لأذكر القارئ أن عروج طلب النجدة قبل وصول الماركيز (إلى وهران بعشرة آلافه أن كان العدد صحيحا وملك فاس يعده بالمجيء للانتقام من عدو واحد لهما فلماذا تأخر إلى غاية انتهاء النزال ليجيء إلى حدوده الساحلية ومنها يعود بعد سماعه بمقتل عروج. فهل الأمر به مكيدة ومكر ولعب أدوار تفنن فيها برابرة أب عن جد أم أنها الصدفة كما علمونا. ذلك تاريخ علينا فهمه من قراءتنا ونحن نقول ونردد ذلك أن التاريخ يقرا بهدوئه لا بفوضاه ... المترجم).

الموريين جاء لنجدة بربروس وهو يعلم هزيمته ومقتله، يعود مسرعا والماركيز يعود إلى وهران بجيشه[1].

وهو يترك الملك في سلام تام. ونحن نتابع أقوال الذين عرفوه، أن عروج كان يبلغ من العمر أربعة وأربعين عاما عند موته، إذ لم يكن ذا قامة طويلة ولكنه قويّ وصلب، كانت له لحية شقراء، وعينان براقتان تشتعل لهبا. وأنف معكوف وسحنة مائلة إلى السمرة وكان نشطا وشجاعا إلى حدّ لا يوصف وشهما، وعطوفا وصاحب كرم كبير. إذ لا يظهر بمظهر الوحشي القاسي إلا شاذا كأن يكون بحرب أو لا يطاع. وهو يجعل من جنوده يحبّونه ويكرهونه ويحترمونه، إذ راحوا يبكونه بمرارة. كما أنه لم يخلف من ورائه أولاد. أين قضى أربعة عشر سنة ببلاد البربر، قدم فيها المآسي الكبرى للمسيحيين، فقد كان لأربع سنوات ملك على جيجل والمناطق المجاورة لها، وعامان على الجزائر (العاصمة) وعام محتال[2].

---

(1) علينا ملاحظة ان الذي يعبر هو عنو، اسباني، قديس. إذ هنا لنا ثلاث عناوين مختلفة حتى لا نباهي الذين قدموا الكثير إلى اسبانيا وإلى المسيحية. ونحن نراه يعطي عدلا مميزات لـ"بربروس" إذ من المستحيل أن لا نندهش ونحن نرى الكتاب المحدثين يرون في هؤلاء أشخاص سوء ورجال عصابات).

(2) أرى أن الكاتب يناقض نفسه، فهل هذه الصفات التي ذكرها تطابق وصفه؟ وهو قرصان كبير، أم أن بالأمر تداخلات لم يعرف لها فرز ...ذلك ما سوف نقف عليه من خلال مشوارنا .... المترجم».

الفصل الثاني

الملك الثاني خير الدين بربروس

أولا

عروج يصل بعد أيام قلائل إلى الجزائر التي يحكمها خير الدين أخيه. هذا الأخير وهو على حزنه الذي سببته له هذه الخسارة ويخشى هجوم الماركيز عليه، كان على أهبة المغادرة للجزائر مع أتراكه في سفنهم البالغ عددها اثنى وعشرون سفينة.

لكن بعض القرصان الحاضرين معه يصرفونه عن هذه الفكرة، ويقترحون عليه الانتظار حتى ظهور نوايا الأسبان في اتخاذ شيئا ما.

ولكن سرعان ما علم أن الماركيز قد سرّح جنوده بعد أن التحق بوهران ومنها خير الدين راح يهدئ من خشيته وخوفه.

والجند والقرصان يلتحقون به من كل الجهات وكذا الذين فروا بعد سقوط عروج، والجميع راح يعترف به طواعية ملكا عليهم.

ولقول الحقيقة، عبقريته في تسيير الأمور الداخلية وكذا الحربية، جعلت منه مؤهلا لخلافة أخيه والتي سوف نأتي إليها فيما بعد بالتوضيح.

وكان أول عمل قام به هو إرساله سفينة إلى السلطان يعلمه فيها وفاة عروج وخشيته من أن يطرده المسيحيين من الجزائر وكل البلاد. ويطلب منه الحماية واعدا إياه بتقديم الأتاوات وكذا زيادة القوة التركية ببلاد البربر بصورة تكون فيها البلاد في اقصر مدة تابعة كلية للباب العالي.

وهو يدعم طلبه بهدايا ثرية يحملها أحد الموالي، كاهيته أو رئيس ديوانه.

والسلطان الأعظم يتلقى هذا الطلب بالقبول، ولا يرضى فقط بقبوله تحت الحماية بل يبعث إليه بألفين من الجند. ويعطي الموافقة لكل من يريد الذهاب إلى بلاد البربر ويوافق على إعطاء إنكشاريي الجزائر نفس الحقوق التي يتمتع بها إخوانهم بالقسطنطينية.

و«كاهية» خير الدين يعود مع مطلع السنة المقبلة جدّ فرح بهذا الرّد والذي أحدث غبطة لدى أتراك الجزائر. وبربروس (يعني به الكاتب خير الدين ..المترجم) يخشى أن النظام والطاعة لا يكفيان وحدهما وقد حدثت محاولات تقتيل جماعي فراح يعمد إلى توزيع فصائله بالمدن المحاذية لمقاطعة وهران كمستغانم، تنس، مليانة وأخريات، لتجنّب الانتفاضات وجذب عطف الأعراب وإعادة ملك تنس «حميد العبدي» إلى مملكته التي ضاعت منه بشرط أن يدفع له إتاوات سنوية. وهو يرى نفسه مدّعما ضد المسيحيين يبدأ في سباقاته القرصنية كعادته ويبقى سيدا بالجزائر مع قوات صلبة مموّنة لعام آخر.

وما أن أتى فصل الربيع لهذه السنة حتى جاء حدث لا ينسى، دعم بقاءه بالحكم إذ أن «دون هيغودي مونكادا» الفارس الكنسي لمالطة، وهو القبطان المعروف بوزنه الذي أظهره بإيطاليا زمن القبطان الأكبر، ينطلق من «نابولي» و«صقلية» على رأس ثلاثين سفينة، وثمانية سفن شراعية وبعض الصعاليك.

هذا الأسطول الذي يحمل أكثر من خمسة آلاف رجل والكثير من المحاربين الأسبان القدامى ومنهم نلاحظ الرفقاء الشجعان الذين دافعوا سابقا دويلات «فرانسيسكو ماريا دي مونت فالتريو» دوق إيربن.

«شارل كانت» الذي راح يعتلي كرسي العرش لإسبانيا ونابولي أعطى الأمر لهذا القبطان بطرد خير الدين من الجزائر والذين كانوا يفكرون بأنه يئس لوفاة أخيه. يصل إلى الجزائر، ولكن الأسطول تعصف به عاصفة مفاجئة قضت على أغلب السفن. والأعراب والموريون يأتون من البوادي مع الأتراك ويبدأون في تقتيل كبير للمسيحيين، والكثير من الذين ألقي

عليهم القبض والغنائم صارت ملكا لهم. ومنها راح «دون هيغو» يفرّ مع بعض رجاله وسفنه، وعليه فإن «بول جوفي» يروي[1].

أن «دون هيغو» يرسو بجيشه ويشكله للمعركة ولكنّه هزم من طرف بربروس وأحدث به تقتيلا شنيعا مما أضطره إلى الانسحاب والمغادرة، ويضيف أنه بعد هذا الانسحاب جاءت العاصفة وفقدان السفن بعدها.

أعراب البادية وأتراك الجزائر راحوا يقتلون ويأخذون الكثير من المفقودين الذين قذفت بهم العاصفة.

وفي سنة (1520) راح بربروس يخضع بتهديداته موريو «القل» (مرفأ بحري، بمقاطعة قسنطينة ويبعدها بحوالي ثلاثين ميل إلى الشرق من الجزائر)[2]. وفي السنة المقبلة يخضع لسيطرته قسنطينة أيضا، والتي راحت لزمن مضى تدافع عن حريتها ضد ملك «تنس». (خطأ مطبعي لتونس). والتي كانت تخضع لها من قبل. وسكان هذه المدينة وجدوا أنفسهم مضطرين للاعتراف ببربروس كملك عليهم، خاصة وأنه أصبح سيدا على «القل»، لأن المسحيين لم يكن لهم إلا هذا المرفأ الذين يشترون منه الأصواف، الأغطية والأصماغ والجلود والتي يكسبون منها أرباحا طائلة. وبالسنة الماضية (1522) يستولي على المدينة العتيقة والقوية بونة، والتي كانت إلى تلك اللحظة حرة كلية (كما يروي ذلك خوان ليون).

إذ يدخل بسفنه الإثني والعشرين المجهزة للحرب إلى المرفأ وبالنهر كذلك ويرغمهم على الولاء لتجنب تحطيم كلي. وهو يقوم بهذه الفتوحات[3]. لم يهمل سباقاته التي راح يقودها لمرة أو مرتين في السنة

---

(1) الغزوات يروي نفس الرواية مع بعض التقارب.المعركة حصلت يوم 20 أوت 1518 والعاصفة دامت يوم 21 و22 من نفس الشهر وبها راحت تزيد في حجم الكارثة).

(2) نلاحظ أن بالنص ثلاثون وهذا خطأ غير متعمد. وهايدو أراد حقيقة أن يقول ثلاث مائة، وعلى أية حالة هناك ثلاثون ميريامتر تحليقا لطائر بين الجزائر والقل).

(3) والغزوات حسب مفهوم كل واحد طالما أن أسماء الأشياء تتغير من كريم إلى سفاح ومن معتدل إلى مستبد وهكذا .. ونحن نعد القارئ ومنذ الكتاب الأول بأننا سوف نخصص بحثا طويلا لدراسة متأنية لهذا التاريخ المتحرك ...المترجم».

لكسب شهرة أكثر من أخيه عروج، وبها يحدث الكثير من الأضرار للمسيحيين. ويواصلها إلى غاية سنة (1529) وهو يضاعف يوما بعد يوم من ثرواته وعدد المختطفين وسفنهم، إذ أصبح له ثمانية عشر من السفن المجهزة بالمدافع والأدوات الضرورية ملكا له.

وفي شهر سبتمبر 1529 يروح يعقد معاهدة مع ملوك «كوكو» و«بني عباس»[1] المجاورين لإقليم الجزائر والاثنين كانا ملكان قويين. أين راحت اسبانيا تمنعهما إلى الآن بوساطة من القائد العام لبجاية (الذي يعود إلى مملكة قسطيلية)[2]. على التحالف مع الأتراك الذين يحدثون كل الأضرار الممكنة وبعدها راح يرسل بأربعة عشر من سفنه إلى مياه «البليار» واسبانيا ويعطي القيادة لأحد القراصنة الأتراك المسمى «كاكسيا ديابالو».

الرياس الأساسيون للأسطول كانوا كالتالي: «صالح رايس» الذي سيصبح فيما بعد ملك للجزائر. «شعبان رايس» طبقة رايس «حارة الدين رايس».

إذ بعد أن استولى على بعض زوارق وأشخاص كانوا إلى القريب من الجزر وعلى سواحلها. وهم يرون أن بعض (الموريسك) لمملكة «فالنسيا» التابعين لـ «الكونت دي اوليفا» والذين كانوا يريدون المرور إلى بلاد البربر مع أسرهم للعيش تحت شريعة «محمد» ويقدمون لهم أموال للمرور.

هذه الاقتراحات كانت مقبولة من القراصنة والذين راحوا يجتمعون.

بالقرب من "دي أوليفا". ومنها نقلوا المائتي من الموريسك ليلا واتجهوا إلى جزيرة «فورمونتيريا».

(1) الأوربيون يسمون هذين الزعيمين الذين يتقاسمان نفوذ القبائل. فواحد يقطن «كوكو» والآخر قلعة «بني عباس». وطيلة فترة الأيالة. كانت سياسة الأتراك تفضل هذا مرة وتارة الآخر. وتحافظ على جعلهم على حالة عداوة مفتوحة دائمة حسب الحاجة).

(2) يعني بها الكاتب مملكة قسطيليا وهي قوتها ... المترجم».

ثانيا

في نفس اللحظة، جنرال السفن الشراعية لإسبانيا الفارس الكنسي «بيسكايون» المدعو «بورتاندو» وهو عائد إلى ايطاليا بعد أن رافق موكب «شارل كانت» بثمانية سفن شراعية، وسفره هذا إلى «بولوني» لغرض التتويج من قبل البابا «كليمون السابع» إذ يجد نفسه مع أسطوله على طريق «برشلونة فالنسيا».

و«كونت دي اوليفا» كان هو الآخر على عودة في نفس الوقت، وقد ابلغ بهروب زوارق الموريسك، وأنهم أخذوا معهم ثروات كبيرة.

ومنها يبعث ببريد إلى الأميرال «بورتندو» يترجاه إتباع هؤلاء القراصنة ويعده بعشرة آلاف من الأوقية، إن هو أسترجع الزوارق و«بورتندو» المعجب بهذا المقابل، يرى أنها فرصة، يمر باتجاه فالنسيا، وهو يعتقد أن الرياس قد اختاروا طريق البليار، فراح يأخذ نفس الطريق. وهو لم يصل بعد إلى «فور مونتيرا»، والجزائريون يكتشفون إلى البعيد وهم يعددون السفن الشراعية الكبيرة، يرون بأن عليهم أن يقاتلوا أو على الأقل الاصطياد، وهم يلاحظون أن ركابهم على يأس كبير في هذه الحالة أو تلك. فيروحون مسرعين إلى «فور مونتيرا».

ومن هذه الناحية فإما إن «بورتندو» لم يعرف قوة الأتراك، أو أنه كان يعتقد الانتصار عليهم سهلا راح يدافع عن سفنه باستعمال مدافعها والبحث على عطب سفن الأعداء ولأنه كان يريد استعادة الموريسكيين على أحسن حال إلى «لكونت دي اوليفا» سيده وربح المكافئة المقدّمة.

وبأوامر منه إلى ابنه «خوان بورتندو» والذي كان إلى الأمام من أبيه بأربعة سفن شراعية، لم يستطيع إطلاق نيران مدافعه على الأتراك والذين بدأوا في الابتعاد عن الجزيرة، والذي كان بإمكانه إلحاق الكثير من الأضرار بهم، إذ على عكس من ذلك راح يرفع المجاذف ويعطي الأوامر بانتظار السفن الشراعية الأخرى، والأتراك وهم يرون هذه الحركة راحوا يعتقدون أنه خافهم، ويقررون عدم الفرار والمحاربة إلى أن هناك أربعة عشر سفينة مقابل ثمانية. وهم ينتظرون رؤية المسيحيين ينظمّون.

وعندما رأوا أن «بورتندو» يتظاهر بأن لا يقتحمهم، ولا يبدأ باستعمال النيران، راحوا يشعرون بشجاعة القرار بمهاجمتهم هم أنفسهم. ويديرون وجهتهم إلى المسيحيين وبدأوا في الإسراع بحركة المجاذف ويهاجمونهم بطلقات كثيفة من البنادق والسهام.

والأسبان لم يكونوا على عدد كبير ونفس الشيء لسائر السفن لأن السفن الشراعية قد ترك أكثر من نصف أعدادها من الجند بإيطاليا لحضور الحفلات الكبيرة لتتويج الأمبرطور.

ومنها راحوا يصارعون بشجاعة والاقتحام كان طويلا ودمويا. والحظ السيئ كان من نصيب الأميرال «بورتندو» الذي هوجمت سفينته من مركبتين ويقتل بسهم أصابه بطنه، ومقتله راح يرمي بثقله على القيادة، والأتراك يزيدون في شراسة الهجوم، ويستولون على هذه السفينة والتي كانت الأقوى من الأخريات وقبطانهم يضاعف من شجاعة القراصنة والذين واصلوا انتصارهم وقد أصبحوا أسياد على الآخرين، واحدة فقط استطاعت بأعجوبة الإفلات من العدو. ولم تتوقف إلا بعد أن وصلت إلى الخلف من شواطئ «دي إيفيكسا» وبعد انتصارهم الأتراك يعودون إلى «فيرمونتيرا». ويركبون الموريسكيون الذين تركوهم ويولون وجهتهم نحو الجزائر بسبع سفن شراعية والعديد من المقبوض عليهم.

وخير الدين يستقبلهم بأكبر غبطة وابتهاج، ويأخذ لنفسه المساجين المهمّين ومن بينهم ابن «بورتندو» وكل قباطنة السفن يضعهم بسجنه للأعمال الشاقة وفي السنة المقبلة (1530) وهو يعلم أنهم يتآمرون على الاستيلاء على الجزائر وكان له توافق، ولكن وهو يعلم بالحدث من المقبوض عليهم من المسيحيين راح يقتلهم بوحشية ويمزق أجسادهم بضربات منجنيق كما سنرويه إلى البعيد من هنا[1].

---

(1) هناك خطأ بالتاريخ اليومي: الاستيلاء على بينون كان سنة (1529) كما تؤكده رسائل شارل الخامس المشار إليه من السيد بربرجار (بنينيون الجزائر) 1860 المقتطف 8 ص. 99 الخ وبعض الوثائق الاسبانية المترجمة من السيد دي لا بريموداي (المجلة الإفريقية سنة 1875 ص. 163 . 166).

ثالثا

في سنة 1530[1]. بربروس يقرر تحطيم وتسوية «بينون» التي كان عروج قد بدأ العمل بها سنة (1516) والذي كان بنيته أن يبدأ بتنفيذ هدمها وإحداث منارة. وإلحاق الجزيرة بالمدينة بواسطة طريق بغرض إعطاء الأمن للسفن. وفي هذا الوقت بالذات القراصنة كانوا مرغمين على سحب سفنهم على رمال شاطئ جدول صغير يقع على حوالي ميل إلى الغرب من الجزائر وكان يلزم تنفيذ أشغال عمّال الجرّ بجهد للساعدين، مع عمل كبير من المساكين المقبوض عليهم. وسفن التجار المسيحيين أين كانت تجارتهم لفائدة الجزائريين تعود عليهم بربح وفير (من دون إحصاء الحقوق التي يسددونها). لم يكن لهم ملجأ إلا خليجا صغيرا، والذي يتواجد إلى الخارج من «باب عزون» بالمدينة الذي نسميه اليوم «بالما». والتي كانت من غير توقف عرضة للفساد، تنقصها الملاجئ ومعرضة للرياح. هاته الأسباب جعلت من خير الدين يقرر مهاجمة الحصن. وحادث غير متوقع راح يدفعه إلى الإسراع في إنهائه. إذ يحصل أن شابين من الموريين يفرّان من «بينون» ويدليان للحاكم على أنهما يريدان أن يصبحا مسيحيان. هذا الأخير يسمى «مارتان فارغاس» فارس كنسي اسباني الأصل، والذي راح يستقبل إنسانيا هذان الفاران ويسكنهما عنده، وبينما كانا يتعلمان ويعمّدان قبل إعطائهم التطهير وبعد أيام قلائل، الأحد نفسه لأعياد السنة، بينما كان القبطان والموقع يستمعون إلى الصلاة، الشابان الموريان يصعدان على الأسوار التي كانت خالية من الرقابة، هنا إما لاستخفاف أو شر منهم أو خيانة راحا يرفعان علما ويقومان بإشارات إلى أعلى المدينة التي كان بها حصن كبير.

وخادمة للكابتن والتي كانت بالقصر راحت ترى ما يحصل لتنادي في الموقع بصيحات قوية وتنبه إلى ما سوف يحصل والحاكم يغادر الصلاة مع جنده جريًا من دون أن تكون له معلومات يعلق المتهمين بجانب ترى منه المدينة. وأمام هذا المشهد راح الجزائريون يشتكون لـ«بربروس» للرعب لذي أحدثه لهم من غير أن يهتموا بأسباب هذا التعذيب. هنا هذا الأخير راح يسرع في تنفيذ ما قرره منذ زمن طويل بفكره، وراح أولا يعمد إلى معرفة الأسباب ومن دون إهدار دماء. ومنها أرسل واحد من مواليه «القايد هيالي»،

(1) (في حوار الشهداء).

مع أمر بإفهام الحاكم هل باستطاعته إعادة الحصن من دون معركة، وسوف يجعل ذلك شرفا وبالتالي تكريما لكل رجال الموقع، وإلا فإنه سوف يقسم بجعل الجميع ينتظرون تمرير السيف على رقابهم.

«دون مارتان» لم تكن له إلا السخرية والضحك لتهديداته ويجيب خير الدين على أنه مندهش من كون قبطان شجاع كما هو يستشار من آخر ليذهب بشرفه ويطلب منه أن يتذكر أن له مع الأسبان أمرا وأن تهديداته لن تخيفه والملك كان ينتظر جوابا مماثلا، وأنه لا يأمل في خطوة رسوله.

إذ راح مسرعا لتنصيب بطارية في مواجهة «بينون». وعندما رجع المولى بجواب الحاكم. وخير الدين على غيض كبير راح ياخذ مدفعا قويا صنع من البرونز على ظهر مركب فرنسي كبير كان متواجد بمرفأ الجزائر والذي يعود إلى فارسي كنسي ينتمي إلى ايطاليا يسمى «فراخوناس»[1]. مع مدفعه وقطع أخرى والتي احتفظ بها منذ فترة احتياطا لهذا الهجوم.

وراح يرمي الحصن ويسدد له نيران مخيفة وقد بدأ هذه العملية يوم 6 ماي (1530) وواصل بعدها بخمسة عشر يوما من دون توقف، وهو يسوي الحصنين بالأرض والسور الذي يقابل المدينة وفي نفس الوقت راح يقذف بقاذفات من البنادق ونظرا لقصر المسافة التي تفصل المحاربين (300 خطوة تقريبا) قتل قسم كبير من ألمائتي مدافع .. وأخيرا يوم الجمعة 21 ماي[2].

اليوم السادس عشر منذ فتح النيران، وقبل طلوع الشمس راح بريروس يهاجم بسفنه الأربعة عشر المحملة بمجموعات مختارة من بينهم ألف ومائتي تركي مسلحة بالبنادق والسهام. والمسيحيون الذين كانوا على عدد صغير مصابين ومكبّلين بالأتعاب، لم يستطيعوا منع الأتراك من النزول بقدم الثغرة. وهؤلاء لم يجدوا إلا الكابتن «مارتان دي فارغاس» مصاب إصابات بليغة وبه رمق من

---

(1) هذا ما لا يمكن تصديقه، فارس كنسي من مالطا يرسو بسهولة بمرفأ الجزائر، في الوقت الذي كان السلطان يضرب هدوء كل السواحل، وهذا الفارس يقدم مدفعه إلى بربروس لمحاربة جنده الذين كانوا في هذه اللحظة تقدم مالطا كملجأ لإخوانه! هذا أمر يصعب تصديقه!.

(2) رسالة العميل اليهودي للوثائق الاسبانية (التي سبق وأن ذكرت) تقول الجمعة 23 ماي.

الحياة وثلاثة وخمسين جندي)[1] جدّ مصابين وهم تقريبا خارج المعركة ووجدوا ثلاثة نساء. منهن اثنتان اسبانيتان (واحدة منهن لازالت تعيش إلى الآن وهي أم زوجة القايد رمضان) والأخرى كانت من جزيرة (مايوركا) وهي الأخرى لا زالت على قيد الحياة وهي أم زوجة «حاجي مراد» وجدّة وأم «مولاي مليك» الذي أصبح ملك فاس بالمغرب. والتي سوف نلتقي بها مطولا. (في حوار الشهداء). كيف بربروس راح بوحشية يعذب بالعصا «مارتان دي فارغاس » ولمدة ثلاث أشهر من تاريخ القبض عليه. من دون أن يكون له هدف وبعد انتصار خير الدين. راح يسوي الحصن بالأرض باستعماله للمواد للانتهاء من المرفأ الذي هو الآن مستعملا للمقبوض عليهم من المسيحيين لهذا العمل وربط بأتربة المسافة المتواجدة بين الجزيرة الصغيرة والمدينة. وهذا الإنجاز لم يفرغ من انتهاءه إلا بعد عامين[2].

---

(1) سنان شاوش المشغول إعجاب ببطله دائما يقول: خمسة مائة رجل وهو لم يكن مع بداية الهجومات أكثر من مائة وخمسين رجلا للموقع الرسالة المذكورة بالمذكرة تتحدث عن تسعين سجين وستين من القتلى.

(2) أربعة أيام بعد انتهاء الهجوم. الأتراك يستولون على سفينة تحمل البارود. ذخائر و600 قذيفة للمدفعين عن بيدون. بالغزوات هذا الاستيلاء يتحول إلى معركة بحرية أين فقد الأسبان تسعة زوارق و الفان وسبع مائة من الرجال).

رابعا

في سنة (1531) انشأ خير الدين منارة بالجزائر وأخرى بشرشال وهذه المدينة تمتلك مرفأ طبيعي ولكنه كان يريده واسعا وجدّ آمن. والأمير «اندريا» يرى الأفضل أن يمنعه من إنشائه، وهو يعرف أن شرشال هي نقطة بلاد البربر القريبة من البليار، إلى ساعات قليلة من اسبانيا.

إذ راح يتوجه بسفنه الشراعية يأمل في اقتناص على أقل تقدير أكثر من سبعة مائة مختطف لاستعمالهم في الأشغال. وقد قلنا أن مساجين تلك الفترة كانوا قد أكدوا لي أن البعض منهم راسلوا الأمير ليفيدوه كم هو سهل إعادة حريتهم إليهم والاستيلاء على المدينة وتخريب المنارة التي بدأ العمل بها. والأمير ينطلق من «نابولي» في شهر جويلية (1531) بسفنه الشراعية والمدعمة بالمدافع، ومسيرته كانت سريعة، إذ يصل قبل طلوع الشمس وينزل الألف وخمس مائة رجل إلى القريب من شرشال ويعطى الأمر بالتوجه إلى المدينة التي كانت غير محصنة والتقاط المسيحيين المختطفين أولا والتصعلك تحت أي طائلة لنهب المنازل. ومنها الركوب عائدين عند الإشارة والتي تعطى بطلقة مدفع.

والجند وهم يعتقدون بأن لا أحد رآهم يصلون إلى المدينة والقصر. ويأخذون في تكسير الأبواب ويحرّرون الأسرى وصياح الحرية! الحرية! يطلق من هؤلاء، وهم يرون شفقة الرّب عليهم يسرعون في الذهاب إلى الشاطئ ويركبون السفن، ولكن الجند لم يقلدوهم في حركتهم ولم يمتثلوا إلى صنيعهم، وهم مشدودون إلى الغنائم على عدم طاعة ما أمرهم به قائدهم، إذ راحوا ينتشرون بالأنهج والمنازل ويخمرون نهبا، وأميرهم قد أطلق قذيفة مدفع منبّها لم تسمع منهم، إلى درجة أنهم لم يطيعوه، وهم هكذا على حالهم إلى أن جاء الصباح.

والأتراك كانوا قد تفرقوا لأول صدمة راحوا يلتحقون ويجتمعون بالسكان وموريسكو اسبانيا المحاربين الأقوياء ينقضّون جميعهم على الجنود المسيحيين المتفرقين والمحمّلين بالغنائم ويصيبون ويقتلون الكثير منهم وأخيرا يقذفون بهم إلى الفرار، آخرون من الأتراك صعدوا إلى القصر

وبدأوا بسرعة في رمي السفن ببعض المدافع التي وجدوها هناك. إضافة إلى أن «دوريا» كان يخشى أن تتوقف السفن بالمياه، وهو يعرف أن جنوده فقدوا ولا أمل في عودتهم. يأخذ بالانطلاق وقد ترك بالشواطئ أكثر من ستة آلاف من الأحياء والذين استولى عليهم الأتراك والموريسكيون مقابل المقبوض عليهم الذين حرروا. والأمير راح يرفع الشراع باتجاه «مايوركا»، بينما بربروس كان مغتاظا لفقدانه بعض سفنه الحربية، ولكنه راح يرضي نفسه وهو يرى مقدار الهزيمة التي تلقاها «دوريا»[1].

(1) مارمول يروي إرسالية دوريا بنفس الطريقة ولكن بقليل من التفاصيل كتاب. ف الفصل 33).

خامسا

في سنة (1532) التونسيون وخاصة سكان مدينة تونس كانوا غير راضين عن الملك «مولاي حسن» الذي كان رجلا قويا وقاسيا والذي أغتال عددا من إخوته والسكان الوجهاء وهم يريدون الثأر منه يراسلون بربروس سريًا والذي كان يتواجد لحظتها بالجزائر ويترجّوه أن يأتي بجيش قويّ، مع وعدهم له بأن يجعلوه سيدا على المدينة وسائر المملكة.

إذ أن فترة شباب خير الدين كان قد قضاها بتونس برفقة أخيه عروج وربط علاقات مع الكثير من الموريين الذي راحوا يتقدمون إليه بهذه الخطة. وهو يرى جيدا ألاّ يرفض الطلب لهذه المملكة الغنية وعاصمتها، واستيلاؤه عليها يجعل منه ملكا قويًا على كل بلاد البربر.

وعلى هذا لم يكن ليسرع في عمليته، ويجيبهم بأنه سوف يحضر لذلك وأنه سيأتي حالما يصبح قويًا. ويقال إن (جوق حسب ما يروى) راح إلى القسطنطينية ليطلب من السلطان دعمه. لكن الأتراك والموالي والحاضرين يقولون أنه ارتضى أن يكتب إلى السلطان الأعظم يعلمه بما يجري ويطلب منه إرسال بعض الفصائل لتركها تحرس الجزائر، وبينما هو ذاهب إلى تونس بقوات كافية لإنهاء الأمر بسرعة.

ويعلمه أنه يريد أن يكون ببلاد البربر في أسرع وقت وأن استيلاءه عليها ليس بالصعب. داعما طلبه بإرسال أحد الموالي والذي هو رئيس ديوانه بسفينتين مليئتين بالهدايا الثمينة للسلطان وسائر أعضاء البلاط الملكي لسليمان والذي كان يحكم في تلك اللحظة القسطنطينية وهو أمير كريم ومتعطش للفتوحات، يدخل بقوة في هذا المشروع ومنها راح سريعا يهيئ أربعين سفينة. ويصدر لها الأمر بالتحرك بداية الربيع السنة المقبلة (1533) بجيش يتكون من ثمانية آلاف تركي والعديد من المدفعيات والذخائر وأعطى لهم الأمر بعدم الرسو لا بتونس ولا بأي مكان من بلاد البربر لغاية أن يعلمهم بربروس المكان الذي يذهبون إليه.

هذا الأسطول كان تحت قيادة رئيس ديوان خير الدين يصل إلى رأس «لي كولون» بـ«كلابرا» ويجتاز منارة «مسين» ويتوقف بجزيرة «بونس» وبعد أن

نهب شواطئ «كلابرا». وبهذه الطريقة لم يكن مولاي حسن يشك في هذا الأسطول ولا ملك الجزائر. وهذا الأخير كان قد أعلم منذ مدة وكأنه ذاهب في سباق قرصنة يأخذ معه حوالي ثلاثة تركي، ثمانية سفن شراعية وعشرة سفن شراعية صغيرة. إذ أنه زاد في عدد أسطوله ويبدأ في الإبحار بداية شهر ماي، تاركا وراءه حراسة جيدة بالجزائر العاصمة والبلاد، ويفوّض أحد الموالي سلطته أين وضع به كل ثقته. وهو مولى من «سردينيا» يسمى «حسن أغا». وهو يعلم أن الأسطول التركي قد جاء يضرب شواطئ «كلابرا» راح يعلمه بواسطة سفينة شراعية صغيرة بأن يلتحق بسواحل بلاد البربر. وكان هذا الإعلام قد حصل بجزيرة «بونس». ومنها ترفع الأشرعة ويحدث الالتحاق برأس «بون» غير بعيد عن تونس بشهر جوان، وخير الدين يدخل «حلق الوادي» من دون انتظار ومنها ينزل رجاله ومدافعه ويترك قليلا من رجاله لحراسة السفن، وينطلق بسرعة إلى تونس بمعية عشرة آلاف من رجال السهام والنبال وبعض القطع الميدانية[1]. إذ لم يتركوا الوقت الكافي لـ»مولاي حسن» بأن ينظّم دفاعه. وهذا الأخير يعلم بالإنزال لهذا الجيش الضخم، ومنها يعلم أنه كان ضحية خيانة من أتباعه ولا يشك في أنهم كانوا على اتفاق معهم. وبالنتيجة راح يفكر بعدم البقاء بتونس وأن يفرّ لدى الأعراب، أقاربه وأصدقاءه بنسائه وأبنائه وبعض الخدم الأوفياء والكثير من الثروات التي استطاع حملها.

بربروس يدخل تونس من دون مقاومة، ويستقبل من الجميع بلباقة كبيرة ويعترف به ملكا[2]. ونفس الشيء فعله سكان «باجة» مدينة صغيرة تقع إلى الداخل وإلى البعيد من تونس بخمسة عشر ميل، أما سكان «بنزرت» المدينة الساحلية إلى مسافة خمس وثلاثين ميل إلى الغرب من تونس «المحمدية» إلى خمسين ميل إلى الشرق من تونس، و»سوسة» إلى مائة ميل «المنستير» إلى اثنى عشر ميل «قليبية» إلى مسافة مائة ميل، وإفريقيا إلى أربعة أميال من» صفاقص»

---

(1) قواته كانت تتكون من 1800 انكشاري و6500 إغريقي و600 من الزنادقة الكثير منهم أسبان (وثائق اسبانية المجلة الإفريقية 1875 ص 348.

(2) بربروس ينزل بحلق الوادي يوم 16 أوت 1534، ويوم 18 مولاي حسن يفر ثم يعود مع 1000 فارس والمعركة تندلع أمام باب الجزيرة. قسم من التونسيين بقي وفيا للملك راح يدافع طيلة النهار ونصف الغد ويقتلوا تقتيلا والأتراك يدخلون منتصرين. (وثائق اسبانية المجلة الإفريقية 1875 ص 345).

وأخيرا إلى»غالفاس» وبقية المملكة، إلا مدينة القيروان فقط. الكثير من أعراب البوادي راحوا يستسلمون خوفا منه وقد أعطاهم هدايا ثمينة. وخير الدين وهو يرى نفسه سيدا لهذه المملكة الواسعة وفي زمن قصير ومن دون أن يخسر شيئا. وهو يعلم أن كل السكان تقريبا يمقتون «مولاي حسن» لوحشيته كانوا مبتهجين بجعل خير الدين ملكا عليهم. وهو يرى أن لا فائدة من استبقاء سفن السلطان الشراعية، راح يأمرها بالانصراف مع الأتراك التي أتت بهم، وهو يكافئهم. ومع الذين استبقاهم وأتراك الجزائر صار يمتلك جيشا من ثمانية آلاف. إذ أن أول ما عمد إليه هو تدعيم «حلق الوادي» بحصون وأتربة صلبة وقوية، وتحويل القلعة الصغيرة التي وجدها إلى قلعة حصينة وجد مموّنة من الذخائر ومنها راح يشكل موقع من ألف وخمس مائة تركي وقد أنهى عمله خلال فصل الشتاء، وهو يستعمل من دون توقف أعداد كبيرة من الموريين والأعراب وينزع سلاح سفنه الصغيرة. وراح يتخذ لها ملجأ بقناة «حلق الوادي» وهو يحصّن القناة، ليس فقط ليزيد من صعوبة الرسو لأي قوة مسيحية تريد أن تطرده من تونس ولكن بالتالي مضاعفة دفاعه، بحيث يلحق بأي عدو له خسائر كبيرة.

خاصة وأنه علم أن «مولاي حسن» يتفاوض مع الأمبرطور»شارل كانت» وقد قدّم له نفسه له كتابع وهو يظهر له الأخطار الكبيرة التي سوف يجلبها عليه الأتراك إذ سوف يطال ما اكتسب بإيطاليا. مثل «سردينيا» و«صقلية» و«كلابري» و«نابولي». ولأن النقود هي عصب الحرب كان على «بربروس» أن يسدد للذين استعملهم حقهم[1].

ومنها راح يجمع الكثير من الأشياء الضرورية للدفاع والمحافظة على المملكة، يستعمل كل عبقريته على جمع كل الثروات اللازمة. حسب ما يقوم به المستبدون وقد كان يتحصل عليها مرة بالترهيب والإكراه وأخرى بالعنف على الطريقة التركية وهو غير مطمئن لهذا، راح يبعث بسفنه الصغيرة والقراصنة الآخرين وأصدقاءه ومرافقيه لنهب الموانى الايطالية.

---

(1) الانكشاريون راحوا ينتفضون مرتين بتونس بسبب تأخر التسديد. أحداث الشغب الأولى حصلت يوم 23 أكتوبر (1534) وكاد فيها خير الدين أن يقتل، ومنها راح يخفف من وطأة الانتفاضة بالدراهم وعادت للمرة الثانية شهر سبتمبر الموالي وفي هذه المرة استعمل زنادقة والذين قتلوا 180، والمقبوض عليهم شنقوا من على فتحات القلعة الوثائق الإسبانية التي سبق أن ذكرناها).

وخلال شتاء (1533) وكل سنة (1534) وبعض الزمن من سنة (1535) قام بنهب كبير من دون أن يلقى مقاومة.

سادسا

في اللحظة التي كان فيها بربروس يقوم بغزو تونس، الأمبرطور «شارل كانت» صاحب الذكرى الخالدة يتواجد بـ«برشلونة» عاصمة «كتالونيا»، وهو يعلم بكل ما حصل، راح يرى جيّدا حجم الخطر الذي يجلبه عليه جيرانه الأتراك، ويسارع إلى مقاطعاته ويقترح عليهم طرد الأتراك من تونس.

وهذا المشروع أخذ الكثير من العناية والتفهم وهو يرى مبعوثي «مولاي حسن» يرغبوه في ذلك، والأمير يطلب منه مساعدته على إعادة كرسي عرشه إليه ويقدم نفسه له كتابع له، متعهدا بدفع الأتاوات التي تطلب منه.

علاوة على أن عمليات النهب والخسائر التي فعلها القراصنة بالمقاطعات الايطالية، جعلته يقرر سريعا عدم الانتظار ومسابقة الأحداث إذ راح يجمع قوة كبيرة ومن كل النقاط الاسبانية والايطالية، ويركب من «برشلونة» يوم 20 جويلية (1535) لطرد بربروس من مملكة تونس وإرغامه على الفرار إلى بونة.

ومنها أعاد «مولاي حسن» كما يعلم الجميع إلى كرسي عرشه وهذا ما كتب عنه الكثير من الكتاب مما يجعلنا في غنى عن هذا ولا نضيع وقتنا بالسرد والكتابة إذ سوف نقول فقط أن خير الدين وهو يستعلم بقدوم الأمبرطور يتقدم نحوه بقوات معتبرة، وراح يرسل بسفنه الأربعة عشر المختارة إلى بونة، وهي مدينة تقع إلى ثلاثة مائة ميل غرب تونس ونفس المسافة إلى الشرق من الجزائر[1].

وبعد المسافة لهذا المكان هو الذي جعل خير الدين يفكر في انه سوف يكون أقل تعرض لهجمات المسيحيين، وبها تكون سفنه في أمن. وإذا استطاع الأمبرطور طرده من تونس (والذي كان يراه واقع لا محالة) فإنه سيجد بـ «بونة» ملجئا. وهذا ما حصل. وهو ينطلق برا من تونس بصحبة القسم الأكبر من القراصنة وحلفائه وقوة كبيرة من الأتراك، إذ لم يخسر إلا القليل في المعركة[2].

---

(1) هنا الكاتب يتحدث عن المسافة البحرية وليست البرية ..المترجم».

(2) الغزوات يسرد الاستيلاء على مرفأ ماهون بإسهاب كبير وبالطريقة الأكثر وصفا. فحسب رأيه أنه أحرق سجينا حيا، بعد أن ألبسه ثيابه وتشبه به بحيث أن كل السكان اعتقدوا أنه

وهو يصل إلى بونة راح يخرج بسفنه ليراقب وهو نفسه يسرّع من العملية، وبعض القراصنة يقترحون عليه أن يذهب إلى القسطنطينية لطلب النجدة من السلطان والثأر لنفسه. وهو بهذا يكون على صواب لأن بحار الغرب لم تكن مضمونة لديهم وأن الأمبرطور سوف يلاحقهم إلى غاية أن يقبض عليهم جميعا[1].

ولكن خير الدين المصاب في عزة نفسه، يلتفت إليهم وكله غضب ويقول لهم «كيف إلى القسطنطينية! وما هو غرضنا من الهروب؟ وما هذا الجبن؟ أنني سوف اذهب بكم إلى «فلاندرا» هكذا أقول وليس إلى «القسطنطينية» إذ يهيئ سفنه في مدة ثلاثة أيام ويحمل المؤن في اليوم الرابع ويناديهم في اليوم الخامس من دون أن يطلعهم على وجهته ويعطيهم الأمر في الالتحاق به ثلاثة أيام من بعد يصل إلى شواطئ جزيرة «مايوركا» أين السكان يعرفون أن الأمبرطور يحارب بتونس ضد بربروس وقراصنته كانوا بعيدين عن التفكير في الذي سوف يقوم به معهم.

إذ يطلب من الأتراك أن يتمثلوا بالمسيحيين ورفع العلم الاسباني، ومنها يدخلون مرفأ «ماهون» وهم بذلك يوقعون سفينة برتغالية في الخطأ والتي كان ركابها يعتقدون أنهم مسيحيين وهم يحيّونهم كالأصدقاء.

خير الدين. وأنه في تلك اللحظة وهم يغتبطون لهذا الخلاص من هذا العدو الخطير والذي راح يظهر على رأس أتراكه) هل هذا تكتيك عسكري من خير الدين أم ذلك ما حصل ... المترجم»).

(1) (هذا اقتراح في محله ولكنه لا يخدم طموحات خير الدين وسوف نرى من هو على حق .... المترجم).

«الجواب عرف جيدا ولنا أن نتابع ما يحصل ... المترجم».

اعتقد أن هذه حيلة يمكن تصورها، لإيهام السكان بأن خير الدين قتل ولكن ما لا ينطبق على بعضه أن كاتب الغزوات يذهب خياله إلى أشياء يضع فيها نفسه في مأزق وهو لا يحسن الإخراج الدراماتيكي ....المترجم).

وهناك أشياء تمر عن غفلة منا. فعدد الأسرى مبالغ فيه كثيرا والكاتب قد يكون أخطا بأن أضاف صفر ولكن ونحن نراه يكتب ذلك كتابة. فمن أين كانت له السفن الإضافية لحمل كل هذا لعدد الضخم؟ ذلك ما سنحاول الرد عليه إلى البعيد من هنا حتى نترك القارئ يتابع المشهد .....المترجم»).

ومنها راح بربروس يستولي على هذه السفينة بعد معركة دموية أين راح البرتغاليون يقاومون بشجاعة ولكن من غير أمل ومنها قبض عليهم جميعا وراح يرسو بجمعه ومدفعه ويسقط على المايوركيين والذين أخذوا عن غفلة.

ومنها راح يدخل بالقوة إلى المدينة بعد عدة طلقات مدفعية، ويبدأ في النهب والسلب والحرق والتخريب ومنها يلقي القبض على ستة آلاف رهينة ويغادرها بسرعة متجها إلى الجزائر العاصمة وهو بذلك قد ثأر لنفسه وهزيمته كما يقول[1].

ويصل خير الدين إلى الجزائر ووصوله يحدث فرحة كبيرة بالمدينة خاصة وأن الجميع يعلم أنه أجبر على مغادرة تونس.

ومساعده «حسن أغا» الرجل الشجاع والذي كان عبدا له أخذ بجيش قوي من الأتراك خوفا من متابعة الجيش المسيحي لخير الدين وأخذ منه انتصاره واستيلاءه على الجزائر.

والسكان وهم على رأي أن خير الدين قد أخذ وجهة لا يعرفها أحد وهم على خوف وحذر يعتقدون أن الملك لن يستطيع العودة إلى الجزائر ولن يظهر بأي مكان، وأنه فرّ يائسا[2].

وبعد أيام قليلة من وصوله، راح يعلم أن الأمبرطور بعد رد ملك «مولاي حسن» قد غادر تونس إلى»صقيلية» وسرح جيشه. يترك خير الدين قيادة الجزائر (العاصمة) لـ»حسن أغا» وينطلق إلى القسطنطينية يوم 15 أكتوبر

---

(1) «هذا تكتيك لا يحسنه إلا عروج وأخيه خير الدين والواقع وهم القراصنة يصنعون النصر أو الانسحاب في أول لحظة وإلا ما كانوا رواد للقرصنة والتاريخ يشهد لهم بذكائهم وتكتيكهم المحير ... وذلك ما ينقص أعرابنا وبرابرتنا وأقباطنا .... المترجم»).

(2) (هنا نقف قليلا عند هذا الزخم الكبير من المعلومات، ونقول ترى كيف جاءت فكرة زيارة خير الدين إلى اسطنبول وهو لا يعلم بالتأكيد أن شارل كانت قد سرح جيوشه كلها وهل هناك من لا يخبره بما فعل خير الدين من إغارة وخطف وقد اذهب عنه نصره. فهل حقا أن خير الدين كان بارعا وماهرا في لعب الأوراق باحتراف ومهنية كبيرة لا يستطيع فعلها القواد الكبار للجيوش الكبيرة فإن كان الأمر على هذا النسق فنحن أمام عظيم وقائد قرصني كبير يعرف جيدا موضع قدميه .....المترجم).

باثني عشر سفينة كبيرة محمّلة بالكثير من المقبوض عليهم مع كنوز يهديها إلى السلطان وباشاواته.بغرض الحصول على جيش لاستعادة تونس.

إذ أنه كان جدّ حزين لفقدانه مملكة غنيّة. و«سليمان» كان جدّ مغتبط ويتعرف حقا برجل أكثر شهرة والذي هو خير الدين والذي سمع به وهو لم يراه بعد. وهذا الأخير لم يكن قد عاد إلى تركيا منذ (1504) أي الفترة التي مرّ فيها إلى بلاد البربر مع أخيه عروج. والسلطان الذي كان مستاء من أميراله الكبير «زعيب» (البعض يدعونه هميرال)[1].

والذي أظهر جبنا أمام الأمير «أندري دوريا» في الفترة التي بعث فيها هذا الأخير إلى اليونان مع مائة سفينة شراعية من قبل الأمبرطور «شارل كانت» بغرض تحويل نظر سليمان عن عملياته ضد النمسا و«فينا».

والأميرال لم يكن في استطاعته محاربة «دوريا» راح يتركه يحتل بحر «مرمرة» وجزيرتي «القرن» و«بطرس».

وهكذا عندما رأى السلطان الأعظم بربروس والذي يعرف عنه أنه شجاع وبحار ماهر. يقرر إعطاءه القيادة العامة لأسطوله بعد أن نزعها من «زعيب». وعلى أية حال لم تكن الحاجة هي التي دفعت بالسلطان لهذا بل لأنه سوف يصبح (كنزه وثروته التي يراها فيه). وهو في طريقه يستولي على سفينة فينيسية ويقال أن الجزائريين لم يكونوا على علم بالمعاهدة التي أجراها السلطان الأعظم مع «فينسيا». وعلى ظهر هذه السفينة يجد بربروس رسالة من الوزير الأول للباب العالي «إبراهيم باشا» والذي راح يراسل سريًا. (حسب ما هو مكتوب). «دوق فينيسيا».

يفتحها خير الدين لحب الإطلاع وهو لا يشك أنها جاءت من «إبراهيم» ومنها يعرف أنها تحمل مما لا يدع على شك على استعلامات ضد السلطان وفي صالح المسيحية.

---

(1) الكاتب هنا لم ينتبه إلى أن كلمة هميرال هي كلمة تركية تعني قائد البحرية فهي ليست اسم بل هي رتبة و«زعيب» هي الاسم الصحيح ....المترجم».

ومنها يتأكد أن الذي يسمى إبراهيم كان على علاقة طبيعية ومعتاد على إرسال رسائل من هذا النوع وخاصة إلى الأمبرطور «شارل كانت» عن طريق «فينيسيا».

وبربروس وهو يظهر هذه الرسالة للسلطان، أين راح هذا الأخير مسرعا إلى إعطاء الأمر بقتل إبراهيم ورميه سرية بالبحر. (الكثير من المؤرخين يعطون سببا لمأساة هذا الوزير الكبير، هو مقت السلطانة الأم و»روكسلان» الذين أقنعوا السلطان أن إبراهيم خانه في حربه ضد الفرس[1].

(1) انظر دي لا كروا، هامير وغيرهم ..) مضيفين أن اعتقدنا في كلام ساندوفال، إن إبراهيم باشا كان المحمي من خير الدين وقد ساعده كثيرا في أن يصبح باشا).

سابعــا

بربروس ابن صانع الأواني الخزفية الفقير. وقد وصل إلى مرتبة عليا يريد أن يظهر كل إمكانياته وذكاءه ولباقته للسلطان، من دون أن ينتظر لحظة، راح يخصص كل سنة (1536) على تنظيم الأسطول وإضافة السفن القديمة بعد أن أصلحها وراح يبحث عن الكثير من الأخشاب الغليظة بسواحل البحر الأسود، ومنها راح ينشئ الكثير من السفن الجديدة وجمع مدد كبير من كل نوع من الأشياء. وراح يهتم بعناية لتحضير مختلف العمليات التي استعمل فيها الرياس الذين أخذهم معه من الجزائر.

والكل وهم يرونه بالعمل يروحون معجبون بصناعته ونشاطه ويعترفون له صراحة بالفارق الشاسع الذي هو عليه وذلكم الذين سبقوه من قباطنة السفن.

وخير الدين يروح لأول مرة على رأس الأسطول التركي سنة (1537) والسلطان يريد أن يقطع علاقته بـ"فينيسيا" والدخول معها في حرب وبالتالي الاستيلاء على مملكة "نابولي" بناء على طلب من بعض سكانها الذين أخذت منهم أراضيهم. واحد من الرئيسيين كان رجلا بذيئا وحاكما للمدينة القديمة "براندس" كان قد وعد السلطان على أن يسلمه هذه المدينة وقت ما يصل أسطوله وهذا الموقع الجدّ هام للمدينة يفتح الطريق للاستيلاء على "بويا" ومملكة "نابولي".

ومنها يعترف له السلطان بفضله عليه ويسلمه قيادة الأميرالية الكبيرة بعد أيام. وهذا الغزو كان سابقا من طموح محمد الثالث فاتح القسطنطينية الذي احتل "اوترانت" والذي احتفظ بهذه المدينة إلى غاية وفاته وهو يأمل في فتح باقي ايطاليا وروما أيضا. ولتنفيذ مشاريعه راح سليمان يغادر القسطنطينية على رأس مائتي رجل ويصل إلى "فيلون" وهي مرفأ بالقرب من ايطاليا ويأمر في نفس الوقت بربروس بأن يتبعه بأسطوله وبدأ بالاستيلاء على "براندس"[1].

---

(1) وأعود مرغما، واسأل هل مغادرة خير الدين للجزائر سليمة من كل تخطيط خط هناك بالقسطنطينية لحسابه وهم يعرفون قدرته على البطش، والحال في تركيا قد أصبح غير مريح يفرون من امام الأمير المسيحي وغدا تصبح القسطنطينية بايدي المسيحية ومنها

والأميرال وهو يصل إلى «فيلون» راح ينتظر رأيا من حاكم «براندس» وهو لا يرى ما وعد به سليمان، ومن دون أن يضيع وقته، راح يتجه إلى «كاستيا» مدينة لمقاطعة «اوترانت» بغرض نهب البلاد وزرع الهلع بالمملكة. وتقذف المدينة بقوة وتسقط في غضون أيام وفي هذه الأثناء خبر وصول الأسطول التركي يحتّم على «دوريا» الخروج من «جنوة» و«مسين» مع واحد وثلاثين سفينة شراعية، ولم يكن له الوقت لتسليح كل سفنه فقام مسرعا بتسليح السفن الأخرى وهو يدخل إلى مضيق «فينسيا»، يستحوذ على «كورفو» وهي سفينة شراعية للعدو، وهو يريد أن يعرف أغراض خير الدين، راح يضع الرايس تحت طائلة العذاب، وهذا الأخير يخبره بخيانة حاكم «براندس» هي السبب كما هو واحد من الأسباب الرئيسية للإرسالية. والأمير يرسل بهذا الرأي إلى نائب ملك «نابولي «دون بيدرو دي توليدا». هذا الأخير راح يأخذ هذا الخائن قبل أن يقوم بغرضه، ومنها انتقل إلى تأمين الحراسة للمدينة بأن أرسل السينيور «آلرسون»[1]. مع جيش كبير من المشاة الأسبان. وبربروس وهو يعلم بهذه الأخبار لا يأمل في الاستيلاء على «برانداس» راح يلتحق بالسلطان بـ» فيلون» ولكن هذا الأخير أماط اللثام عن غيضه وحقده للفينسيين و يأمر بنهب ما أستطاع جنده إليه سبيلا وخاصة جزيرة «كورفو» وهو يقوم بذلك يعود إلى القسطنطينية برا ويتبع الأميرال بأسطوله[2].

يذهب الجميع ... وإيجاد الرسالة على ظهر سفينة جاءت هكذا صدفة أمر لا يرام واتفاق سري لتغطية ما سوف يحصل كلها لا تقنع العاقل ... فعلى الباحث أن يفكر بمقياس اليوم وليس بمقياس العصور الماضية والنظرات تتباعد وتتقارب ... والتاريخ كما اذكر دائما يدرس بسكونه لا بفوضاه ... المترجم»).

(1) جورج رويس دي آلريس حاكم «ميرسيا» و«قرطاجنة» واخ لـ»آلنسو دي آلرسون» والذي استعمل في المفاوضات السرية مع خير الدين).

(2) (فتكتيكه تكتيك أمبرطور له الكثير من المستشارين ويملك الثروة والعلم والجيش .. وإن كان الأمر على هذا النسق فإنني اشك في أن خير الدين هذا هو نفسه الذي فر من دون قتال من أمام شارل كانت ... وهو لم يسدد رواتب عملائه .. فلنا أن ننتبه إلى الأحداث ونأخذها نظرة الواثق بل، هناك ما يثير شكوك إن أنت بحثت وراجعت .... المترجم»).

نتوقف هنا لنرى ما حدث من لعب بأذهان القراء عن قصد أو بحسن نية، جيش يتكون من مائتي ألف محارب وأسطول كبير حضر لفتح كبير ولكن لأمر لا أهمية له يعود الجيش والأسطول وتحدث مفاوضات لا نعرف لها سبب ... ويأتي الكاتب ليقنعنا وأشياء كثيرة تنقص المسرحية لم يهيأ لها ..... المترجم»).

ثامنا

في سنة (1538) الحرب بين الأتراك والفينسيين تتواصل وبربروس يخرج على رأس أسطوله وهو جدّ مقوى رجالا وسفنا، ويقتحم مقاطعات «فينسيا». وفينيسيا لا تستطيع مقاومة السلطان الأعظم راحت تتحالف مع البابا الثالث والأمبرطور «شارل كانت»، والحلفاء الثلاث يجتمعون ويجمعون مشتركين أسطولا كبيرا أين قيادته أوكلت إلى الأمير «دوريا» الذي خرج لمهاجمة بربروس. ويحصل اللقاء بالمكان المسمى «بيريفيزا». وعند تقابل الأسطولين، الأمير ولأسباب مجهولة يرفض الدخول في المعركة وينسحب وشرف وسمعة بربروس تتعالى إلى عنان السماء ويحسب له أنه استطاع رد محارب شجاع إلى مواقعه[1].

(1) ترى ما هي الأسباب التي أدت بـ(دوريا) إلى الانسحاب وهو لم يدخل المعركة، فهل حصل اتفاق بينه وبين خير الدين ،ام أن هناك أمور لم يكون الزعماء الثلاثة على اتفاق فيها ...أم أن الأمر غير ما نتصور ذلك ما سوف نبحث فيه إلى البعيد من هنا .. المترجم»).

تاسعا

وفي سنة (1539) يخرج خير الدين للمرة الثالثة ويستولي على «كاستيلنوفو» بـ»ديلماتي» بعد أن قصف المدينة بنيران كثيفة من مدفعيته وقد أحال كل التحصينات إلى آثار، ومنها راح يذبح 4.000 من العساكر الشجعان والقدامى للأسبان الذين وضعهم الأمبرطور بالموقع تحت قيادة «فرانسيسكو سارميانتو» رجل شجاع يصلح ليكون سيدا للموقع، والذي قتل وهو يقاتل بكل فخر على رأس قواته.

وبعد أيام يستولي خير الدين على «كتارو» و«مالفوازيا» اللتان كانتا تحت السيطرة الفينيسية ويخضع بالقوة «نابولس دي رومانيا» وكل هذه المدن كانت ذات أهمية كبيرة. ونلاحظ أيضا بهذه الحملة بروز اثنين من الرياس بعناية من خير الدين وهما: «كوريستو» و»دراغوت» والذين أصبحا من عهدها أكثر شهرة وغبطة لعملياتهم.

هذه الحملة اضطرت الفينسيين إلى طلب السلم ومنها راح الأميرال يرتاح بالقسطنطينية أين قرّر البقاء. في سنة (1543) ملك فرنسا «فرنسوا الأول» يطلب بإلحاح من السلطان الأعظم بأن يرسل بأسطوله ضد الأمبرطور «شارل كانت» الذي راح يقرر الحرب على فرنسا آخذا بذلك حجة مقتل «فرغوس» و«رانسون». هذان الشخصان كانا نائبين للملك لدى السلطان والذين قتلا بـ»لمباردي» وهما يمران بنهر على «طريق فينيسيا» أين راحا يعودان إلى وطنهم فرنسا. وبربروس يخرج للمرة الرابعة بمائة سفينة شراعية ويتوجه إلى فرنسا وهو يحطم ويقتحم مدن «كالبري»، ويمر من أمام «غاييت» مدينة تنتمي إلى ملك «نابولي» (آخرون يقولون كذبا أن هذا الحدث حصل بـ»ريجيو» مدينة تنتمي إلى «كلابرا» تقع مقابلة لـ«مسين»). والحاكم «دون ديغو غتان» قصفه بطلقات مدفعية، وخير الدين يوقف مسيرته وينزل البحر بقوة تقدر بـ»12.000» تركي راح يقصف بقوة المدينة ويستولي عليها. وكان من الذين ألقي عليهم القبض ابنة «دون ديغو» البالغة ثمانية عشر سنة وكانت على جمال كبير، وعندما رآها بربروس أعجب بها وأتخذها زوجة له، ومن أجل حبّه لها راح يعطي الحرية لأبيها وأمها ويأخذهما معه إلى فرنسا، وبعد أقل من شهر من وصوله إلى مرسيليا، يأخذ الأمر من الملك «فرانسوا الأول» بأن يحاصر «نيس» التي تعود إلى «دوق سافوا» أمير «بيمون» وحليف الأمبرطور، ومنها راح يدخل

أسطوله إلى مرفأ «فيلا فرانكا» والتي لم تكن تبعد عن «نيس» بحرا إلا لمسافة رمي سهمين بينما هي برا تبعد بميلين وإلى الشرق من المدينة. وهذا المرفأ كان واسعا وجميلا ولكن لم يكن محصنا ومدينة «فيلا فرانكا» كانت صغيرة مما سمح لبربروس بدخولها من دون مقاومة ويقوم بتخريبها وحرقها. والسكان استطاعوا الفرار وأخذ أملاكهم. ومن هنا راح الأتراك يعبرون لمسافة ميلين الجبال المجردة والمتوحشة وهم يصلون إلى السهل يقومون بمحاصرة «نيس». ويفتحون نيران مدفعيتهم القوية والتي حملها بربروس عبر الجبال، لأن المنحدرات الحادة لم تكن لتسمح بوسائل أخرى للجر والمدفع كان قد هدم كل محيط «نيس» هذه الضواحي الأكثر إنعاشا وجمالا وعطاء، وقسم كبير من المدينة صار آثارا والعديد من السكان لقوا حتفهم والآخرون استسلموا تحت عرض فرنسي.[1] ولم يبقى لهم من الدفاع إلا القصر، وخير الدين يهاجمه ولكن من غير فوز نظرا لقوة المكان (وحيوية الحاكم الشجاع بول سيميون). وفي اللحظة التي راح يضاعف من مجهوداته راح يصل خبر «ماركيز دي غياست» الذي يحكم وقتها «ميلانو» لصالح الأمبرطور «شارل كانت» والذي راح يتجه نحوه بجيش من قوات المشاة الأسبان، وعند سماع هذا الخبر راح يقرر سريعا الانسحاب وهو يرى أن القصر محصن جيّدا وفي مكان جدّ عال لا يستطيع إجراء هجوم عليه أو يهدم بالمدفعية، ومنها راح يعود عبر الجبال بمدافعه ويعود إلى «فيلا فرانكا». ومنها يغادرها بأسطوله إلى «طولون» المرفأ الفرنسي الهام، أين يمكث به طويلا رغما عنه وهو يشتكي من ضياع الوقت من دون فعل شيء وفي نهاية الصيف يرسل بأحد من رجاله القدامى والشجعان وهو من أصل «كورسيكي» يدعى «صالح رايس» لنهب وتهديم السواحل الاسبانية بسفنه الإثني والعشرين المسلحة جيّدا وهذا الأخير أتجه إلى «كتالونيا» وخرب المواني الهامة لـ«بلاموس» و«روساس» وهذه المدينة الأخيرة لم تكن محصّنة في تلك الفترة ولكنّها حصّنت بعدها بعد الخسائر التي لحقت بها، وبعد هذا راح «صالح رايس» وهو طائعا لأوامره يقضي فصل الشتاء بالجزائر[2].

(1) السكان وقد أصبح عددهم قليل وهم يخشون السقوط بين أيدي الأتراك يطلبون من الفرنسيين أن يستسلموا اليهم وخير الدين يرى أن انتصاره اختطف منه ومنها راح يظهر إرادته السيئة).

(2) هنا نذكر مسرعين كيف أن أسطولا يهيئ بالقسطنطينية ليأتي إلى نيس يمكث بها لبعض الوقت وهو يجد نفسه امام حصن لا يستطيع الاستيلاء عليه ويسمع بأن قوات معادية تنطلق إلى محاربته، لكنه يفر منها وهي لا تتعقبه! ويظهر فجأة صالح رايس في خضم الأحداث ليقوم بتحطيم ونهب وسلب وكأن الأسبان نائمون على اذانهم ..ذلك ما لا نعرف له ربط.....المترجم»).

عاشـرا

وفـي سـنة (1544) الأمبرطور وملـك فرنسـا يوقعـون بيـنهم السـلم. ويطلب من بربروس أن يعود بأسطوله إلى تركيا. ويغادر مرفأ «تولون» مع بداية فصل الربيع بعد أن ألتحق به «صالح رايس» ومعه سفنه الشراعية الإثني والعشرين والتي كانت تحت قيادته.

وهو يصل إلى جزيرة «إلبا» يرسل بفرقاطة إلى سنيور «بيوبينو» لغرض تسليمه شاب يهودي يدعى «الرايس» رهينة عنده وابن واحد من أصدقائه القراصنة والذي يتواجد وقتها بـ«السويس». وهذا بأمر من السلطان الأعظم الذي طلب منه تنظيم أسطول كبير لطرد البرتغاليين من الهند.

و«آبييانو» راح يعتذر بحكم أن الشاب قد أصبح نصرانيا، ولكن بربروس لم يكن ليقتنع بهذا الجواب، ويهدده بجعل البلد كله نارا ودماء، وبدأ باقتحام الجزيرة وإلقاء القبض على الكثير من سكانها. وهنا «آبييانو» من فرط خوفه راح يعيد الشاب. وبربروس بدوره يعيده إلى أبيه، ومنها يعود سريعا إلى القسطنطينية. و«سنان رايس» يجد نفسه إذا على شواطئ البحر الأحمر، ويقال أنه سريعا ما مات فرحا وهو يرى ابنه.

وخير الدين يحرر «دراغوت رايس» الذي كونّه بنفسه والذي كان سجينا بـ«جنوة». بعد أن ألقى عليه «جينتان دوريا» القبض بسفينتيه الشراعيتين وسبعة سفن صغيرة، بعد أن فاجأه وهو يقوم بتهيئة سفنه، ويطلق سراحه بعد أن قدم فدية كبيرة[1].

هذه الفدية التي راحت تكلف المسيحية خسارة باهظة فيما بعد، إذ أن «دراغوت» جلب عليها الكثير من المصائب والخسائر ولمدة طويلة. والأسطول التركي يستولي على مدينتي «طالمون» و«بورتو هرقل» بدولة «سيان» ونهبهما وإحراقهما وكذا جمع من القرى المحاذية لهما وتمكنه من اختطاف عدد كبير من سكانهما من كل الأعمار ذكورا وإناثا. ومنها

---

(1) دراغوت وقع بين يدي واحد من لومينيين والذي لم يكن مقتنعا إلا بتبادله بإمارة طبرق أين يصطاد المرجان والمصاريف التجارية الهامة وهذه المؤسسة تنمي لعائلة لومينيلي إلى غاية سنة 1741.

راح يجول بسواحل «نابولي» ويقوم بنفس العمل بجزر «ايشيا» و«بروسيدا» «ليباري».

الحادي عشر

وبربروس يأخذ راحته سنوات (1546)، (1547) وقسط من سنة (1548) أين راح يقيم مسجدا فخما وضخما بعد أن مكنّه بأموال كبيرة وأنشأ إلى الجوار منه قبة دائرية جدّ مزخرفة أين بنى بها قبره الذي سيوارى به من بعد. هذه الإنشاءات تبعد بحوالي خمسة أميال إلى البعيد من«غالاتا» على ضفة مضيق «البوسفور» بـ«بيكدرريا» وهاته المنشآت متواجدة إلى الآن). وسط الكثير من المساجد والحدائق والتي تعطي لهذا الشاطئ جماله وبهاؤه على امتداد عدة أميال، وتجعل منه شبيها بضواحي «جنوه». ثم انه انشأ بالقسطنطينية نفسها حمام جميل ورائع والذي له مداخيل كبيرة والذي سوف يكون فيما بعد محل طمع للباشاوات كما سنعرف ذلك إلى البعيد من هنا.

إذ أصيب بحمى قويّة ويموت بعدها بأربعة عشر يوما، وقد حزن الأتراك أشد الحزن وهم يضعونه بمرتبة الأكثر نجاحا. ويروى وذلك كحقيقة أنه دفن بالقبة التي تحدثنا عنها، وهم يجدونه لخمسة أو ستة مرات إلى الخارج من قبره ملقى على الأرض، وأمام ذهول الجميع. جاء أحد السحرة الإغريق والذي يقول أن أفضل وسيلة لكي لا يغادر قبره، هو أن يدفن معه كلب أسود، وهذا ما حصل والجسد لم يخرج بعدها من قبره[1].

واليوم أيضا يقدس قبر بربروس من قبل القراصنة والبحارة و لا أحد يروح يؤدي حجه إلى البقاع إلا ويمرّ على قبره لتحيته أو زيارته، ومغادرة الحجيج

---

(1) هذا اعتقاد بقوى غير طبيعية نراه بين الجميع ويروى ان الموتى غادروا قبروهم وقد رأينا ذلك أيضا بالجزائر أكثر من مرابط راح يختلقون لهم تلك الأساطير.....

(وما هو ثابا يقينا أن الأساطير التي تحدث عنها الكاتب لازالت ملتصقة بنا ونحن بالقرن 21 ولكن يبقى أن الذي يغذيها هم أصحاب الأعراف القديمة التي استغلوا جهل الناس وطمعهم في تحصيل دنيا بآخرة صورت زيفا وحماقة ...فصار الأمر سياسة تسخر وتمدح في نفس الوقت وعلى القارئ أن يرى الخرافة ممتدة من زمان ولا سبيل لدحرها إلا بالعلم وإنهاء سيطرة سدنة علم وفقه وما شابه ذلك من مرابع الكل يعرفها ولا سبيل لذكرها .....المترجم»).

تكون بطلاقات مدفع فخرا وشرفا لهذا القديس الكبير «خير الدين» الذي توفى عن عمر يناهز الثلاثة والستين[1].

وهذا عمر له وزنه الخطير، وقد كان طويل القامة وشديد القوة وذو لحية كثيفة قسطلية وليست شقراء كالتي بـ«عروج»، وكان له حواجب ثخينة ورموش طويلة. وكان جد قاس على المسيحيين وجدّ كريم على الأتراك والذين كانوا يخشونه، لأنه إذا غضب فلا وسيلة تخفف من غضبه، ولم يترك بعد وفاته إلا طفلا والذي كان له من مورسكية من الجزائر العاصمة. والذي أصبح فيما بعد ملك للجزائر العاصمة على ثلاثة مراحل مختلفة كما سنذكره إلى البعيد من هنا. والذي ورث جميع أملاك أبيه[2].

(1) بعض المؤرخين يقولون سبعين عاما، ولكننا نجد صعوبة في تحديد العمر الصحيح لهذا المشرقي). (ما أنبه إليه القارئ أن ثلاثة وستون عاما أصبح عددا مقدسا لكل شخص يرى به عباده أنه يوافق عمر وفاة رسولنا محمد (ﷺ). وهذه حيلة قديمة ولا زالت تفعل مفعولها إلى اليوم ....المترجم»).

هناك خطأ بالتاريخ اليومي. خير الدين توفى سنة 1546 وهذا ما دلت عليه رسالة من أسقف «كومبراي» سفير بالقسطنطينية موجهة إلى فرانسوا الأول بتاريخ 4 جويلية 1546 (ريبيي رسائل ومذكرات الدولة إلخ 1666، تحت رقم م. مج 1 ص.584.

(2) رسالة سفير فرنسا يتحدث على عكس ذلك: «الذي يقال عنه بربروس لم يترك له أي أملاك ولم تكن منها شيئا إذ سلمت قسط إلى الملك الأعظم وواحد من أقاربه.

الفصل الثالث

حسن أغا الـملك الثالث

أولا

الملك الثالث للجزائر كان حسن أغا والذي كما قلنا «سرديني» مولى وعبد. اختطفه خير الدين أثناء اكتساحه لتجمع سكاني بـ«سردينيا» وهو طفل صغير، ولأنه كان جميل الطلعة والقوام أخذ كخادم عبدا له (يقال بالتركية أغا). وقد كبر بمنزله كابن له.

وقد راح «حسن» يظهر ذكاءه بكل الشؤون التي أوكلها إياه سيده، وهذا الأخير وهو يصبح حاكما للجزائر (العاصمة). يعينه «كاهية» أو رئيس ديوان ويعطيه إدارة كل أملاكه. وبعدها يجعل منه «بغليار باي» أي القائد العام.

وعند خروجه المعتادة يجعل مع «مهالة» وسط البلاد لإرغام الأعراب على تسديد إتاواتهم، وكانت له الفرصة ليظهر شجاعته وقدراته في القيادة بحيث أنه عندما ذهب بربروس لتونس بناء على طلبهم سنة (1533). (سنة 1534 هو التاريخ الصحيح). اختاره ليحكم بدلا عنه أثناء غيابه. و«حسن» راح يقوم بمهامه على أحسن وجه واستطاع تأمين المدينة التي كان سكانها على خوف من «شارل كانت» أن ينقض عليهم، في الوقت الذي كان بربروس قد طرد من تونس والتجأ إلى بونة.

وفي سنة (1535) وخير الدين يغادر الجزائر إلى تركيا يترك له الحكم وطيلة السنوات الستة المتوالية، راح «حسن» يحكم الجزائر من دون حوادث تذكر وأمن تام، وهو يعدل، واليوم العدد الكبير من قالوا أنهم لم يروا باشا أعدل منه.

ثانيا

وكان أن جاءت الكارثة والاجتياح من الأمبرطور «شارل كانت» والذكرى الخالدة التي تركتها العاصفة الهوجاء والتي لن تتمحي من الذاكرة، أين خسر أسطوله المتكوّن من خمس مائة سفينة شراعية. (ألف وخمس مائة سفينة ناقلة، بها خمس وسبعين سفينة شراعية كبيرة).

على شاطئ الجزائر في يوم 28 أكتوبر[1]. هذا الحدث المعروف جيدا والذي غالبا ما نذكره ونحن نهتم بـ«حسن أغا»، إذ لم يكن إطلاقا وفي أي حالة من الحالات أن ملكا اظهر شجاعته وتجربته أكثر بهذه المناسبة، وهو يرى نفسه محاصر من أمير أكبر قوة منه ومعجب بعملياته والذي هو الأمبرطور «شارل كانت»مع أسطوله المنيع، مسلح ومجهز بعدد كبير من الشجعان من كل الأمم المسيحية، بينما «حسن» لم يكن يمتلك تحت قيادته إلا ثلاثة آلاف تركي بالتقريب وبهم مزيج من الأندلسيين والموريين.

وفي هذه الأثناء لم يخاف بل إنه كان الوحيد الذي راح يشجع الجمع المذهول، وهو يجول شوارع المدينة. عندما أرسل إليه الأمبرطور واحد من الفرسان الكنسيين الرئيسيين الأسبان «دون لورانزو مانويل» والذي يحمل له اقتراح تسليم المدينة مقابل مكافآت كبيرة له وأتراكه، راح يرد عليه أن هذا جنون أن تأخذ بمشورة عدوك، وهو يأمل بحماية الله أن هذا الأمر سوف يعود عليه بسمعة طيبة وكبيرة وشهرة خالدة وأبدية. وبعدها فإنه بمختلف المعارك التي خاضها وخاصة (تلك التي يتحدث عنها الأتراك) أين الفرسان الكنسيين لـ «مالطا» قتلوا الكثير من الجزائريين وجاءوا إلى غاية «باب عزون».

«حسن» ركب جواده وراح يسرع وسيفه بيده، يرغم الفرسان الكنسيين على التراجع إلى مسافة نصف ميل من السور وهو يقتل منهم أكثر من مائة وخمسين، وأوقع فوضى كبيرة أين «دوق إلبا» و«دوق ساسا» كانوا مجبرين على نجدة فرسانهم والأمبرطور نفسه الذي نزل مسرعا من الجبل

---

(1) سوء الأحوال الجوية بدا ليلة الاثنين 24 أكتوبر أو الثلاثاء 25، إذ خلال نهار الثلاثاء العاصفة بدات بكل قواها ولم تخفف من قوتها إلا يوم الأربعاء 26.

الذي كان مخيما به، وكم كانت الكارثة أكبر التي أحدثها «حسن» البطل. والأتراك يظهرون اليوم السكان الذي سقط به هؤلاء الشجعان وهم يقاتلون بشرف. والمكان يسمى اليوم «مقبرة الفرسان الكنسيين» وهم يثنون على شجاعته[1].

واليوم المقبل هو نفس يوم الثلاثاء 25 أكتوبر[2]. تبدأ عاصفة بسيول طوفانية تقذف بالسفن إلى الشاطئ وهي تتحطم من دون أن يقف أحد ليعترض والأمبرطور وهو يرى هذا المشهد المأسوي يجد نفسه مضطرا على إعطاء الأمر بالانسحاب. وحسن راح يتبعه إلى غاية «راس ماتيفو» مطاردا جيش الأمبرطور ويقتل ويقطع رؤوس الكثير وهو لا يظهر بمظهر العبد بل بالرجل الكامل والشجاع. ويكسب عدد كبير من المقبوض عليهم والغنائم والجياد وأشياء أخرى كثيرة لها أثمانها. وبذلك أعطى المثل والدليل على كرمه. إذ لم يحتفظ لنفسه ولو بإبرة راح يوزع كل ما استولى عليه قائلا أن شرف ومجد هذا الانتصار يكفيه[3].

---

(1) أنه بجسر الأفران «قنطرة الأفران»، ولسنوات مضت كانت آثار الأفران بادية الوجود. واليوم مع البنايات الحديثة راحت الآثار تنمحي، والأرضية قد تغيرت، فمن الصعب معرفة هذا الخناق أين الفرسان المالطيين وهم جميعهم فرنسيين، أدوا واجبهم الشرفي، والأتراك يقول «هايدو» يتشرفون بهذا المكان. ولكن لا أحد من حكامنا فكر في وضع فقط في وضع حجر تذكاري).

(2) قد يكون المترجم الذي أترجم له أنا أقواله على حق في طلب شيء يراه ملك لفرنسا ولكن ما اسأل عنه أنا أين نحن من تاريخ سجل بدماء وقد انضوى ...لزيف وجهالة نحن أحق به أن يذكرا ... المترجم»).

(3) هذه العبارة لن نمر عليها هكذا كما مررها الكاتب، لأنها لا تعنيه رغم انه كان صادقا في تعبيره، لكن ما نراه نحن ببصائرنا أن الشرف والعفة والكرم عناوين لا يزيلها أي طارئ أو ناكر. فهي تغوص كالفلين لتظهر من جديد على السطح ...فلما لا نجد من ينوه بمفخرة هذا الرجل رغم عيوبه والتي هي ليست حكرا عليه بل يشاركه فيها كل واحد أعطى الكثير ...فهل لأحد أن يعطيه حقه؟... السؤال يبقى مطروح على الرابضين على مصارع التاريخ لا يريدون له ظهور ... المترجم»).

ثالثا

الملك الموري لـ«كوكو» بمقره الذي يبعد مسيرة ثلاثة أيام من الجزائر و«بجاية»، راح يخرج من إقليمه لمساعدة الأمبرطور» شارل كانت» بقوة في هجومه على الجزائر، أين راح يجمع معه الكثير من الفرسان وألفين من أتباعه المسلحين ببنادق. ولكن وهو يعلم بهزيمة الأسبان ومغادرتهم، يتوقف عن السير ويسرع إلى مقره. لكن وهو يعلم فيما بعد أن الجيش بـ«راس ماتيفو» سيتجه إلى بجاية أين راح ينتظر صفاء الأجواء ليسمح له بمواصلة طريقه، راح يرسل بالمؤن التي هو في أمسّ الحاجة إليها[1]. «حسن» الذي أعلم بكل هذا. راح يقررّ معاقبة هذا الملك ومنازلته في معركة قاسية، ويترك خروج فصل الشتاء الذي كان جدّ ممطر وفي فصل الربيع ينطلق من الجزائر نهاية شهر أفريل (1542) بمعية ثلاثة آلاف تركي مسلحين بالبنادق وألفان من الفرسان الموريين والأعراب، وألف من الموريين واثنى عشر مدفعا تجرّها عربات والكثير منها من العيار الخفيف. ملك «كوكو» وهو يرى نفسه ضعيف في قوّته لم يقبل المنازلة ويقرر الاستسلام ويعطى كمية كبيرة من الدراهم وعدد كبير من الثيران، وجمال وأغنام، وتعهدّ بدفع الإتاوة السنوية والتي لا هو ولا الذين جاءوا من بعده قبلوا دفعها وأعطى ابنه الوريث رهينة والبالغ من العمر آنذاك خمسة عشر سنة والمسمى «سيد أحمد بن القاضي» على أساس أن يعود «حسن» إلى الجزائر من دون أن يحاربه. وفي سنة (1543) ملك تلمسان «مولاي احمد ابن مولاي عبد الله» وأخ مولاي «أبو حسن مان» والذي أعاده الماركيز إلى الحكم سنة (1518) كما تحدثنا عنه في حياة «عروج»[2]. بربروس كان قد تحالف مع «مولاي أحمد» أو للتوضيح مع أبيه والذي وهو يخلف أخاه المتوفى من دون أن يحكم راح يرفض الإتاوة التي كان يدفعها إلى ملك اسبانيا.هذا التحالف الذي بقي إلى غاية سنة (1543) و«مولاي أحمد» يخضع لـ «حسن أغا» على أساس أنه ملك

---

(1) أنظر علاقة فيلغانيون لمبعوث البابا مانيلوتي إلخ ....إلخ.

(2) على أي حال انه لم يبعث شيئا، خاصة وأن حديث الشهود العيان يعلموننا انه حصلت مجاعة أين لم يجدوا ما يأكلون «إلا الكلاب والقطط والحشيش» انظر (فيلغانيون وتقرير عميل إلى فرانسوا الأول. محادثات فرنسا مع المشرق مج I. ص 522).

الجزائر ولكن وهو المتعب من استبداد الأتراك. أو أنه يطيع طبيعيا تخوف وتغيّر الموريين راح يتحول من جديد إلى الأسبان.

و«حسن» وهو المغتاظ لهذه الخيانة يسير إلى تلمسان بداية فصل الربيع على رأس أربعة آلاف جندي يحملون بنادق، وستة آلاف فارس وأربعة آلاف موري وعشرة مدافع ميدان. وعند ما سمع «أحمد» بأخبار تقدم «حسن أغا» راح يرسل إليه مبعوثين محمّلين بهدية ثمينة ويطلب منه العفو على ما حدث سابقا وهو يقول أنه من الخطأ أن لا يخضع لطاعة السلطان، وأن تحوله إلى إرادة ملك اسبانيا، لم يكن إلا لتخوفه من «الكونت دي الكوديت» و»دون مارتان دي قرطبة «الحاكم العام لوهران الجار القريب منه، وأنه داخليا كان دائما صديقا للأتراك وأنه يرى أن هناك ما يجعله يخادع اسبانيا لتجنب الحرب. ويضيف أنه رغم ما حصل فإنه عند طلب «حسن» والذي سوف يفعل ما في وسعه لجعله هو القائد وأنه سيقطع علاقات السلم مع الأسبان لأول أمر من «حسن» ملك الجزائر إن هو حضر إلى تلمسان، سوف يتقدم إليه من دون سلاح يظهر له كم هو مرحب به في قصره كضيف. وهذه البعثة راحت تخفف من وطأة غضب «حسن» والذي راح يقرر الاستمرار في سيره وترك موقع تركي بتلمسان. وبوصوله يستقبل من الملك وسكان المدينة وتقدم الهدايا والعناية الطيبة له وكل أتراكه. والملك يدين بالولاء، وهو يقسم ليس فقط بالخضوع إلى السلطان ولكن يوعد علاوة على ذلك بأن لن يقيم أي معاهدة مع المسيحيين وقطع التي أقامها.

ويفترقان عن بعضهما ويعود «حسن» إلى الجزائر من دون أن يترك موقعا تركيًا بتلمسان والذي كان قد ارتأى من قبل إقامته. و»دون مارتان» يعلم للتو بما حصل، وتروح مشاعره تكبر غيضا وهو يطلب من الأمبرطور أن يقبل ولاء الملك الموري. وهنا يرى أن الاستهزاء وقلة الإيمان تبعث به إلى الغضب الكبير.

ومنها كانت النتيجة أن يطلب السماح من الأمبرطور وبمساعدة من أقربائه وأصدقائه، ويجهز على حسابه الخاص جيش من أربعة عشر ألف من الأسبان[1].

وكانت مواجهة خاصة به، وهو الذي وجد نفسه على خط أمام ملكه والذي أهدى تعهده إلى «أحمد». والنتيجة كانت على حسابه هو وليس على حساب الأمبرطور وهو يريد معاقبة هذا الخائن وبالتالي يثأر لنفسه. ومنها سار إليه والتقي به بعد أربعة أيام من السير انطلاقا من وهران وبالقرب من تلمسان يهزمه وقد قتل له الكثير من رجاله. وراح يتبعه والسيف مسلطا على أحشائه إلى داخل المدينة، ومنها يسلم كرسي العرش إلى أحد إخوة الملك المنهزم، وهذا الأخير لم يجد إلى أين يلتجئ راح يفر إلى «فاس»[2].

وحسن أغا يسقط مريضا بعد رجوعه من تلمسان إلى الجزائر ومرضه يتضاعف يوما بعد يوم بالحمى المحرقة والهزل ويتوفى نهاية سبتمبر (1543) منتصف الليل[3].

---

(1) في سنة 1530 عبد الله يتعب ويجهد من طلبات الأسبان، وهو متحمس ومشجع بثورة بعد علم سقوط «بينون» راح يرفض تقديم المؤن لمدة طويلة وتسديد الإتاوات. ومنها راح حاكم وهران يحرض عليه ابنه أحمد. والحرب تبدأ بينهما إلى غاية مقتل عبد الله ولكن الملك الجديد والذي كان غير مساعد من الذين دفعوا به إلى الأمام لم يتوانى في عقد بعض التفاهمات مع الأتراك. وبتلمسان سياسة اسبانية راح تعمد إلى تحريض الأمير وريث العرش ضد الملك الحاكم (انظر إلى الوثائق الاسبانية التي ذكرناها من قبل والمجلة الإفريقية 1875). (إذ أنه من الصحيح أن نقول أنه راح يتقلب بين الأسبان والأتراك، والتلمسانيين يمقتون القوتين. الأوائل على أساس أنهم مسيحيين والآخرون يذكرونهم بطبيعة جنود عروج الفظة والمتسرعة. إضافة إلى أن «كونت الكونديتي» حسب السياسة المعتادة كان يحبب انتفاضة الشاب عبد الله أخ أحمد (انظر إلى الوثائق الاسبانية والمجلة الإفريقية 1876 – 1877).

(2) مارمول يقول: تسعة آلاف وأربعة مائة من الجياد، ولكنه لا يتحدث عن الأحداث السابقة. إذ يكتفي بأن يعلمنا فقط بأن مولاي أحمد أخذ بالطرف التركي، بينما أخاه عبد الله راح يطلب النجدة والعون من الأسبان لخلعه من كرسي العرش وهذا ما حصل سنة 1544.

(3) السيد ديفولكس كان قد لاحظ أن هذا التاريخ غير دقيق، ويرى ذلك ويستنتجه من قبر حسن الذي لم يمت إلا بشهر نوفمبر 1545 (المجلة الإفريقية 1864 ص. 290، إذ ما هو محتمل أن حسن ترك الحكم نهاية 1543 سوى بمرض أو سبب آخر بقي غير معروف ان م).

محزون من الذين عرفوه وكان عمره سبعة وخمسين عام. قصير القامة وصاحب قدّ جميل، له أعين جميلة، ووجه برّاق وبشرة بيضاء. كان عادلا كبيرا، إلا أنه كان يطبق أحكاما قاسية. كذا كان محبوبا من الجميع وكريما ويحب فعل الخير بالتصدق وقد دفن بالجزائر إلى الخارج من باب الواد بقبة كبيرة والتي بناها له رئيس ديوانه بعد موته.

الفصل الرابع

حاجي باشا الملك الرابع

أولا

في اليوم الذي توفى فيه حسن أغا، الأتراك وانكشاريو الجزائر، من دون أن ينتظروا السلطان ليرسل إليهم ملكا، اختاروا جميعا واحد من الوجهاء منهم والذي يدعى «الحاجي» أي بمعنى الحاج لأنه كان قد زار مكة وطبّال المدينة[1].

والتي دفن وشرف بها محمد. هذا الحج يعطي للذين أدوه من الموريين والأتراك الشهرة والاحترام وكلمة الحاج تعادل كلمة القديس الكبير والذي نتحدث عنه هنا كان محترما وشعبي بالجزائر العاصمة، أين راح يظهر غالبا أمام رعيته وفترات السلم والحرب مميزاته إذ كان معروفا بسداده وشجاعته أثناء حصار «شارل كانت» للجزائر. فقد كان القبطان العام للميليشيا والأتراك كانوا في غالبيتهم مدانين له في نصرهم لعنايته وإرشاداته لهم[2].

---

(1) كلمة طبال التي سبقت المدينة في النص كانت قد أوقعت في السيد ديلوكس انزعاج فريد من نوعه. وبتصحيح تيبوغرافي بسيط راح يقرأها «يبال» (ومنها استطاع أن يدخر لنفسه خطا ويلاحظ إلى البعيد ميزات لحرف Y) ومنها استنتج أن هذه القراءة الغير صحيحة يبال تعني «يثرب» لأنه كما يقول أنها الاسم الصحيح لهذه المدينة. (المجلة الإفريقية 1864 ص. 290.

(2) سرد ميخمي يؤكد على ذلك لهايدو. الحاج بشار (هو الاسم الحقيقي للحاج باشا). وقد ذكر على أساس أنه كان قام بأشياء يوم اكتساح المدينة. ونجد هذه الفخريات بزهرة النيرات.

ثانيا

لحظة وصول خبر وفاة «حسن أغا» إلى عشائر الداخل والذين يخشونه كثيرا أين كان هناك شيخ يسمى«سيدي بوالطريق»[1] أمير لعدد من الأعراب المجاورين لـ«مليانة».

المدينة التي توجد إلى الغرب من الجزائر على مسافة اثنى عشر ميلا. ودواوير وخيم هذه العشيرة تتواجد بحمامات «ريغا».

هذا الشيخ وهو يظن أن الفرصة قد حانت لتحقيق ما ارتجاه الكثير من الأعراب منذ وقت بعيد، أي الانتفاضة على الأتراك الذين راحوا يضطهدونهم ويعاملونهم على الدوام بقسوة.

ولهذا جمع عشرين ألف موري من فرسان ومشاة من بينهم جمعه وعشائر أخرى، ومنها راح يحرضهم على الالتحاق به وسار إلى الجزائر على رأس هذا الجيش نهاية شهر مارس (1544) وهو يتقدم بدأ في نهب وتخريب كل ما يعيق طريقه ويزرع رعبا وهلعا كبيرا بالجزائر لدرجة أن لا أحد أصبح قادرا على الخروج من المدينة.

القايد المختار لقيادة «مليانة» كان تركيا ويدعى «حسن» والذي يوثق في شجاعته وشجاعة الأربعين إنكشاري معه المسلحين بالبنادق يطلب بإلحاح من «حاجي باشا» أن يتركه يلتحق بمركزه، وهو يؤكد له أنه لن يدافع فقط وهو يسلك مسلكا لنفسه وجنوده من الموريين عبر طول الطريق ولكنه وهو يصل سوف يعرف كيف يمنع العدو من الاستيلاء على مليانة والملك كان يريد استبقاءه لغرض تجربته وهو يحاول أن يشرح له الهلاك الذي يعرض نفسه له وجماعته. وفي النهاية يركن الملك لطلباته ويتركه يغادر المدينة، وهو لا يزال لم يقطع مسيرة يوم يهاجم من قبل «بوالطريق» الذي أعلم بسيره ويقتله وجماعته. وهذا الحادث أسرع مغادرة «حاجي باشا» الذي جمع من قبل جيشا للذهاب لمعاقبة الأعراب والذين ولمدة شهرين أبقوا الأتراك محاصرين بالجزائر.

---

(1) هذا النصف لقب، بو الطريق، اي سيد الطريق.

ويخرج إليهم نهاية ماي بأربعة آلاف تركي أو مولى مسلحين ببنادق وخمس مائة من الأندلسيين أو الصبايحية الجزائريين. ويسلم القيادة إلى القايد «رمضان» ويعيّن المدعو «كتانيا» وهو من مواليد «كتان» قبطانا عاما للمشاة، وهذا الأخير كان مولى صقيليا شجاعا يأخذ معه قياد آخرين من الأتراك والزنادقة القدامى الذين كانوا عساكر لـ«بربروس».

ويضع القايد «صفاء» التركي الذي سوف يحكم الجزائر فيما بعد وقبلها قايد على تونس ولمدة طويلة والقايد «آميسة» التركي والذي سوف يصبح قايد لـ«مليانة» مستخلفا «حسن» الذي قتل من طرف الأعراب، و«مصطفى» التركي قايد لـ «المدية». ويسير الباشا بجموعه هذه وهو على قرار بأن يضع «بوالطريق» على صوابه. والمنازلة تدور رحاها على مسافة ثمانية فراسخ من الجزائر وأربعة من مليانة على سفح جبل يسمى «ماتا»[1]. والأتراك يقتلون الكثير من الموريين، وهم يملكون البنادق ضد عدو لا يحارب إلا بالسهام والدروع. وجيش «بوالطريق» يهزم ويفرّ والأتراك يدفعون بالعدو إلى درجة أن زعيمهم وجد نفسه مضطرا للهروب إلى فاس وخسارة كل ما يملك. وملك هذه البلاد يستقبل بحرارة ويصحبه معه بعد عشر سنوات، عندما يستولي على تلمسان كما سنجيء إليه.

حاجي باشا المنتصر يعود إلى الجزائر جد مغتبط وهو لم يخسر في حربه هذه إلا مائتي رجل، ومنها يستقبل بفرحة. وبعدها بأقل من خمسة عشر يوما. الملك المعيّن من السلطان بـ«القسطنطينية»يصل وحكم «حاجي باشا» لم يدم إلا ثمانية أشهر ونصف تقريبا، ويعيش بعدها أربع سنوات ويتوفي بعد حمىّ أصابته وهو على أربع وثمانين سنة من العمر كان ذو قامة طويلة ضخم الجثة وأسمر البشرة ،كانت له زوجة مورسكية من «فالنسيا» والتي لم ينجب منها إلا بنتا واحدة والتي أصبحت فيما بعد زوجة للقايد «دوت» (من دون شك داوود). وقد دفن إلى القريب من مقابر) الملوك إلى الخارج من باب الواد بقبة صغيرة أقل من الأخريات[2].

(1) قد تكون احتمالا الصومعة إلى القريب من العفرون.

(2) وقد استنتج من الوثائق المترجمة من طرف ديفولكس أنه يسمى (الحاج بشار بن اثلجة).

الفصل الخامس

حسن باشا الملك الخامس

أولا

الملك الأعظم وهو يعلم بوفاة «حسن أغا» يجد نفسه محاصر بطلبات من عدد كبير من الأتراك الذين يأملون في حكم الجزائر وبها من شرف هذه المهمة والفائدة التي يجنيها من فاز بها[1].

وخير الدين الذي كان خارج القسطنطينية راح يساند ترشح ابنه وهو يقدّمه لسلطان على أنّه رجل جدير بهذا الشرف وأنه من غير العدل أن يختار غيره وهو من عائلة بربروس التي أعطت مملكة الجزائر للأمبرطورية العثمانية وأنه من العدل أن يعطى لأنسال هذا العائلة الفخر بما أعطاه أجدادهم من ثمار خدمات للأمبرطورية العثمانية. والسلطان يوافق على ما طلب منه، والملك الجديد يأخذ طريقه الاسبان الجزائر ويصلها بعد أيام. وقد أعطاه أبوه اثنى عشر سفينة مسلّحة تصاحب موكبه وبها العديد من المشاة الأتراك والأمل في الثراء يجذبه كما جذب وبنفس الطريقة الاسبان للهند.

الملك الجديد يدعى «حسن» وهو ابن مورسكية من الجزائر العاصمة (كما قلنا من قبل) يصل يوم 20 جوان، وبعدها بأيام من رجوع «حاجي باشا» بعد أن أنتصر على الشيخ «بوالطريق». وفي هذه الفترة ملك تلمسان يعاد لكرسي عرشه من طرف «كونت دي الكوديت» بعد أن أرغم أخاه «مولاي أحمد» للجوء إلى فاس[2]. ونظرا لكون هذه المملكة كانت دائما معرضة للتمزق، أخ آخر صغير لهذين الملكين[3] يأمل في المجيء إلى

---

(1) هذا ليس صحيحا، إذ أن حسن أغا لم يكن باشا الجزائر ولكنه خليفة فقط لخير الدين الذي احتفظ بالمرتبة إلى غاية وفاته وأنه من السهل وأنت تراه في مفاوضات فرنسا بالمشرق (الوثائق الجديدة). نلاحظ هنا أن هايدو لا يأخذ في الحسبان هذه الفوارق ويظهر له أن كل الذين مارسوا السلطة ما هم إلا نواب ولمدة أيام أنهم ملوك).

(2) يدعى عبد الله ابن مولاي عبد الله وابنه رضوان شيخ بني عامر).

(3) (حسب مارمول أنه ليس أخ لهم ولكنه أحمد نفسه. ونحن لا نجد ما يجعل الكفة ترجح بين هذا وذاك).

الجزائر بعد أن سمع بخبر وصول «حسن» والذي عرف كيف يقنعه بأن يعلن الحرب على أخيه.

والنتيجة بعد عام من تنصيبه ومع بداية شهر جوان (1545). «حسن باشا» يغادر الجزائر باتجاه تلمسان مع ثلاثة آلاف تركي ومولى مسلحين ببنادق. وألف من الصبايحية على الجياد وعشرة مدافع، وهو يمر بـ«تنس» حميد عبدي والذي لازال يحكم يمدّه بألفين من الفرسان الأعراب.

والجيش يصل سريعا إلى تلمسان من دون أن يواجه أيّ مقاومة، لكن الملك وهو يحذر من الذي سوف يحدث، راح يحمل أثاثه الأكثر غلاء ويفرّ إلى وهران مرفوقا ببعض أصدقائه. وحسن يعيد المحتمي به إلى كرسيه. ويتلقى منه كمية كبيرة من النقود والتي يرجع أصلها إلى أتباعه وقسم من الأتاوات التي ضرب بها الآخرين. وبعد إقامة قصيرة يعود الجيش إلى الجزائر[1].

والملك الجديد لم يتذوق طويلا حلاوة الحكم وقبل أن تمرّ سنة، «الكونت دي الكوديت» على رأس قواته التي جاءت من اسبانيا يعيد إلى تلمسان الذي كان ملتجئا عنده بوهران ويفرض على الآخر الفرار إلى فاس كما فعل من قبله أخوه.

(1) مارمول يقول العكس، أن أحمد دعي طواعية من قبل التلمسانيين وأن حسن الذي خرج من الجزائر لنجدته لم يذهب بعيدا من اقوبال عندما سمع أن كونت الكوديت يسير نحوه. ولكن هناك خلط لأن نفس المؤرخ يقول إلى البعيد من هنا (إن أحمد بقي ملكا لتلمسان إلى غاية وفاته). والذي لا يمكن حدوثه لو أن الاسبان انتصروا).

ثانيا

في سنة (1548)[1] سكان تلمسان الذين بقوا على خلاف فيما بينهم وبين ملكهم، توجهوا الاسبان «حسن» وهم يقترحون عليه أن يكون ملكا عليهم إن كان يريد كرسي عرشهم أو يريد أن يسلمه الاسبان أحد ينصبه هو.

هذه الطلبات جعلت من «حسن» يقرر السير إلى تلمسان بمعية ثلاث آلاف من الرجال المسلحين بالبنادق من الأتراك والموالي، وألف من الصبايحية على الجياد وألفان من الموريين والتي قدمها له ملك «تنس» كما فعل في سنة (1545) وأرسل بحرا إلى «تنس» ثمانية مدافع مع كمية معتبرة من المدد من البارود والذخائر. وهو يصل إلى نهر «ريغا» البعيد بأربعة فراسخ عن وهران على طريق تلمسان، أين التقى بالكونت «دي الكونديت» الذي كان ينتظره هنا بستة آلاف من الجند كلهم مسلحين ببنادق يصحبهم في ذلك ملك تلمسان حليفه الذي أتى بستة آلاف من الفرسان. والباشا يعلم وهو على مقربة من العدو الذي راح يقطع عليه الطريق، يعمد إلى استراحة جنده، وكان يأمل في دخول المعركة غدا وهو يعتقد في شجاعة الجيشين والحيوية التي يبدونها والأمر كان صعبا ودمويا. ولكن عند منتصف الليل يصل رجل فرنسي مسرعا يدعى السيد «دي لانيس»[2]. والملك الذي أرسل بسفينتين شراعيتين ليعلم حسن وفاة أبيه ويقدم له تعازيه. وهو يستقبل هذا المبعوث ورسائل الملك الفرنسي التي يحملها. باشا الجزائر راح يتألم وهو يعرف ما تحمله وفاة أبيه وحزنه يشاركه فيه كل جيشه والقسم الأكبر وخاصة الضباط الذين كانوا تحت أوامر بربروس.

---

(1) كل ما يتعلق بها الفصل يعود تاريخه إلى سنة 1547، وهذا تفسير سرد مارمول والذي ذكرنا بهذا الموضوع. ونحن هنا لن نضطر على تأكيد صفاء ونقاوة الأسباب المعطاة لتأكيد انسحاب حسن وهي بلا شك عادة بقت بالانكشاريين والتي اقتطفها هايدو كما هي وهو ما يقوم به غالبا).

(2) إذ من المؤكد وقبل هذه الفترة، باشاوات الجزائر يستقبلون مبعوثي ملك فرنسا. خير الدين كان دائما يستقبل ولعدة مرات الشهير بولان دي لاقارد وجون دي لا فورست إلخ .. وعلى أي حال فإن هناك خطأ تاريخ يومي، إذ أن خير الدين كان قد توفى سنة (1546) واسم «لانيس» غير معروف لدينا، ونحن نرى انه اشتق من دي البيس.الفارس الكنسي دي البيس كان في تلك الفترة قد قام بعدة مهمات من الملك لدى باشاوات الجزائر (انظر مفاوضات فرنسا مع المشرق)مج 2 ص. 204 و261 إلخ).

وفي صباح الغد يدخل «حسن» في محادثات مع الجنرال الإسباني ويقتنع بالملك المنصب من اسبانيا ليبقى على حاله وأنه يستطيع أن يصرح بتبعيته إلى الأمبرطور من دون أن تكون هناك عداوة وينصرفون على صداقة. بعدها بيومين من جراء المعاهدة «حسن» يعود طريقه إلى الجزائر وهو يبكي بمرارة وفاة بربروس، إذ راح يلبس الأسود من الثياب ويصعد جواد من نفس اللون وهو يمر ب»تنس» يترك مدفعيته والذخائر التي حملت عبر سفن إلى الجزائر[1].

(1) نقف هنا لحظة لنرى أن الأمر به التباس كبير، حكام الجزائر دائما يقعون ضحية كلام منمق من ملوك تلمسان وكأن الأمر به حطة وبلاهة منهم هكذا يصورون وهم لا يرون مصلحتهم يذهبون ويجيئون لتنصيب عربيد يحسن الإخراج، وهذا مالا يقنعنا وفرنسا تظهر من جديد وكأنها الوصية على عرش بربروس بالجزائر وسفينتين تحملان الخبر والعزاء وكأن الدولة العثمانية لا تملك زورقا تأتي به إلى الجزائر للتبليغ ولا هي بعثت من قوادها من يبث الخبر .. وتواريخ تجذب من هذا ليصححها الآخر ... والسواد يتبع بربروس إلى قبره ويطال ابنه وهو البعيد عنه بفعل ساحر جني من جند سليمان ..ويأتي من يقول لك أن تاريخنا أصفى من عسل جنة يوم الغد ...ذلك حديث سنعود إليه في كتاب مستقل .. المترجم»).

ثالثا

في سنة (1550) سكان تلمسان والذين على الدوام منتفضين، يراسلون «الشريف» ملك فاس المغرب المسمى «عبد القادر» يطلبون منه أن يرسل إليهم أخ الملك الذي نصّبه من قبل «حسن» ملكا بتلمسان والذي طرده الكونت «دي الكونديت» ويقولون أنهم يريدونه ملكا عليهم وأنهم ذاهبون لمطاردة الذي يحكمهم الآن لأنه صديق للمسحيين ومضطهد للمسلمين بأثقال إتاواته ليسلمها إلى الملك الإسباني والشريف غير مقتنع وهو يرغبهم في الانضمام إلى مملكته بفاس المغرب و»طريدون» التي يحكمها يجمع بسرعة جيش من اثنى عشر ألف فارس وعشرة آلاف من المشاة، من ضمن هؤلاء الأواخر نلاحظ جيش من خمسة ألاف موالي مسلحين بالبنادق والذين نسمّيهم في اسبانيا على أساس غير صحيح «علج» ويعطي قيادة هؤلاء لأبنه الكبير وليّ العهد ويضم إليه شاب يسمى «مولاي عبد الله» وهذا الأخير أخ ملك تلمسان والذي طالب به السكان. وأنطلق هذا الجيش واستولى على تلمسان، أين لم يكن الملك على مقدرة للدفاع ومنها هرب إلى وهران.

والقائد المغربي أعطى قيادة المدينة المكتسبة لأخيه «مولاي عبد الله» ولا يشك في إعادة الكرسي أخ الملك السابق والذي أقنعه خيانة بمرافقته وهو يحدثه بنيته في غزو مملكة الجزائر. وعند العودة يعطي له كرسي عرشه. ومنها ترك بعض القوات لأخيه ويدخل إلى بلاد جبال «بني عامر» القريبة إلى وهران. هذه العشائر تستطيع إعطاء اثنى عشر ألف فارس تحت المعركة لكنها لم تستطيع الوقوف بوجه الجيش المغربي وانسحبت من طريقه بقوافلها من جمال وأنعام وأثاث لهم إلى غاية مدافع مستغانم إلى الشرق من وهران بحوالي اثنى عشر فرسخا. وابن ملك فاس[1]. وهو يجد البلد متروكا من غير سكانه، راح يتردد في متابعة هاته العشائر والذي

(1) كان هناك اتفاق مسبق بين الشريف وحسن باشا بعد أن نصب الملك الجديد لتلمسان، كان على الجيش المغربي أن يسير إلى وهران أين يتحد بالجزائريين. ومنها بعد الاستيلاء على وهران ومرسى الكبير، ويقومون بمحاولة الركوب إلى اسبانيا (انظر رسالة ماريلاك إلى هنري الثاني بتاريخ 29 جويلية 1550) (ريبيي. ت. ص. 282) طموح الشريف كان هدفه الاحتفاظ بمملكة تلمسان وإجهاض الاتفاق، ومنها راح حسن وهو الغاضب لهذه الخيانة، يسير إليه ويقضي على جيشه).

كان يأمل أن يأخذ منهم أموالهم أو التحول إلى وهران أين كان الاستيلاء عليها قد يعطى له شرف كبير لكن هذه المحاولة كانت تبدو له مكلفة وذات مخاطر ومنها قرر متابعة الموريين وهو إلى القريب من مستغانم يعلم أن أتراك الجزائر يسيرون لمقابلته.

وهكذا حسن باشا الذي أعلم بأن القائد المغربي يربح كل يوم أرضا حشد جيشا من خمسة آلاف من الجند المسلح بالبنادق وألف صبايحي وعشرة مدافع. وبقي هو بنفسه بالجزائر للدفاع إن سارت الأمور عكس ما توقع. ويعطى القيادة إلى ثلاث قياد «القايد صفاء» و«حسن قورصو» و«علي ساردو» المولى السرديني. وأعطى لهم الأمر بالاجتماع بعشائر «بني عامر» بالقرب من مستغانم قبل الدخول في المعركة مع أمير فاس. وبعد أن أجمعوا كلهم على مهاجمة العدو. وهكذا تطابقوا حول الأوامر التي تلقوها. وفي اللحظة التي وصل فيها أمير فاس إلى مقربة من مستغانم. راح يرى الجزائريين على مقربة منه. وعندها وجد نفسه مضطرا على منازلة الأتراك والموريين، أين كان الاجتماع قد حصل قبل ساعات ومنها راح يقرر القتال منسحبا.

وبدأ سريعا حركته وهو يستحوذ على عدد غير محدد من الأغنام والجمال التي نهبها من كل الجهات. لكن الأتراك و«بني عامر» راحوا يحثون في طلبه ويلتحقون به إلى القريب من أمام تلمسان لمسافة تقدر بثمانية فراسخ على نهر «هيوكسدا» بالمكان نفسه الذي قتل فيه الماركيز «دي كوماريس» عروج سنة (1518)[1]. والمعركة تبدأ بوحشية وتدوم لساعات طويلة بدماء قوية وخسائر فادحة. خاصة وأن الأتراك وموالي الجزائر كانوا شجعان و«علج» فاس لم يكونوا أقل شجاعة، والجيوش كانت مسلحة بالبنادق. وأخيرا فرسان المغرب كانوا قد توقفوا عن القتال وأجبروا على الفرار من «بني عامر» و«العلج» هم الآخرين يرغمونهم على التراجع ويتبعونهم والسيف بأحشائهم وقد خسروا الكثير من جموعهم. وأمير فاس والمزعوم ملكا لتلمسان

---

(1) ونحن نؤكد للذين هم على طريقة السيد بربريجار يعتقدون إلى الآن أن عروج كان قد قتل إلى القريب من وجدة، والتمعن جيدا في هذا الممر والذي يوضح لنا جيدا أن بربروس الأول لقي حتفه بين مستغانم وتلمسان كما سبق وأن لاحظنا، أن الفراسخ تحسب بين 8 إلى 10 كيلو مترات مما يؤدي بنا إلى ممر ريو صالدو.

كانوا ضمن القتلى. وهذا النصر حفـّز الأتراك والموالي وأقوام «بني عامر» على السير ومنها دخلوا إلى تلمسان من دون مقاومة وهم يرفعون على النبال رأس أمير فاس[1].

أخوه الصغير يهرب لأول خبر ويقص على أبيه هذا الانتكاسة وهو الذي سوف يخلف أباه فيما بعد. والمدينة تتألم وتوضع بالجراب، وقد نهبت عن آخرها من كل الجيش، وخاصة من الإنكشاريين، وحياة السكان حفظت ولكن كل ما كان له قيمة نزع منهم بالقوة.

والقيّاد الثلاث راحوا يجتمعون مع الأساسيين من الجيش ويتوصلون إلى عدم ترك المدينة وإقامة موقع. القايد «صفاء» عيّن بإجراء القرعة فأصبح الحاكم التركي الأول. والآخران راحا يتركان له ألف وخمس مائة رجل من اليولداش[2].

إضافة إلى عشر مدافع مع الكثير من القذائف. وبعد أيام قلائل راحوا يأخذون طريق الجزائر منتصرين ومحمّلين بالغنائم ورأس ابن ملك فاس. و«بني عامر» يعودون إلى جبالهم. الجيش يستقبل ويحتفي به «حسن» وهو يذكره بانتصار لا ينسى إذ راح يضع رأس ابن الأمير بقفص حديدي إلى الأعلى من باب عزون وقد بقي به إلى سنة (1573). أي الفترة التي أعاد فيها ملك الجزائر «أعراب أحمد» بناء الباب والسور وإزالة هذه الغنيمة.

---

(1) هذا ثأر لعروج وشتيمة لملك فاس الذي غدر بعروج وملك تلمسان وهو يعود بعد مقتل عروج وسقوط تلمسان والأمر قد صار متعادلا في كفتيه .. ولكن ما لا يفهم ما التطاحن على كرسي والأجنبي بالديار .. ومكوثه لمدة أطول هو لخيانة ونذالة أهل البلد... المترجم).

(2) أبوا رحيله ليكون قميص عثمان حاضر في كل وقت ... والتاريخ كفيل بأن يعطي لكل حق حقه ..... المترجم). (مارمول يرى أن هذه الأحداث لم تكن دقيقة ويرجعها إلى تاريخ أبعد تحت باشا ليك لصالح رايس، لكن رسالة ماريلاك(التي تحدثنا عنها من قبل) تعطي الصواب لهايدو وكذا الرسالة الموجهة إلى السيد آرمون يوم 13 ديسمبر (1550) (مفاوضات فرنسا مع المشرق مج 2 ص. 130) هذه الرسالة يقرر فيها الملك قطع كل علاقة بالشريف، بغرض إسكات شكوك الباب العالي وملك الجزائر ابن الشريف أصبح عدوا له (انظر أيضا رسالة 18 ديسمبر للسيد دي سالف إلى هنري الثاني. ن.م).

لم يذكر هذا الاسم من قبل الكاتب ..و ها هو يفاجئنا به ... المترجم».

رابعا

في نفس هذه السنة «حسن» ينشئ حصن بالمكان الذي نصب فيه الأمبرطور «شارل كانت» خيمته أثناء القيام بحملته على الجزائر[1].

على جبل صغير يبعد عن «القصبة» بحوالي ألف خطوة، وهذا الحصن لم يكن في أول الأمر ذا أهمية، ولكن من بعد المولى الفينيسي «حسن» وهو يصبح ملكا يزيد في اتساعه سنوات (1579) و(1580) وتنجز من حول الحصن القديم أنهج وقلع كما قلنا من قبل. حسن باشا بدأ في هذه السنة في إنشاء آخر، هو مستشفى لاستقبال الإنكشاريين الفقراء والعجزة، هذه البناية لم تكن ذات أهمية فأنجز الثالثة ذات الجمال. حسن قلّد في هذا أباه خير الدين الذي انشأ باسطنبول حماما يشبه هذا والذي أنهاه سنة (1550) وهو حمام أنيق مزين بالبلاط والذي نسمّيه اليوم حمام حسن أين الكثير من الناس يأتونه في كل الأوقات ليأخذوا إستحمامات ساخنة حسب الاستعمال الموري والتركي وهو يغادر حكومة الجزائر تركه للذين جاءوا من بعده والذين راحوا يتمتعون بمداخيله.

---

(1) هذا المشروع الذي اخذ اسم حصن الأمبرطور، بترجمة خاطئة انتشرت بين العبيد المسيحيين، الذين يعتقدون أن الحصن أنجز من طرف «شارل كانت» فالحدث ماديا يكون على استحالة لأن «شارل كانت» لم يقيم إلا لأربع وعشرين ساعة على هذا الموضع الذي نصب به خيمته وقد راح يقاتل وهو ينسحب في الغد).

(بالطوبوغرافيا الفصل 9).

خامسا

في السنة الموالية (1551) حسن يغادر مملكة الجزائر للأسباب التالية. منذ وفاة خير الدين، واحد من الباشاوات الأقوياء للديوان الكبير يسمى «روستان» والذي تزوج واحدة من بنات السلطان المفضلات كان يرغب في الاستيلاء على الحمام الأنيق الذي أنجزه بربروس بالقسطنطينية، أين مداخيله حرضت الطمع فيه. وقد تحدث في هذا الموضوع مع رئيس ديوان حسن المدعو «جعفر» والذي أرسل من الجزائر إلى القسطنطينية من طرف سيده، وهذا الأخير وهو يسمع بوفاة أبيه.

وجعفر يخطر حسن بما حصل، وهذا الأخير لم يكن راضيا بأن تسلب منه أولا مداخيل كبيرة وإنشاء هو لأبيه وتخليد له.

وفي هذه الأثناء رئيس الديوان يكتب إليه من جديد ليحذره من «روستان باشا» الذي بدأ يظهر أكثر تحريضا على الذي يمانع في تحقيق رغباته، وقوته كانت تتمثل في فضل صهره الذي جعل منه رجل أكثر خطورة، إذ لم يهدد حسن بأخذ الحمام ولكن بعزله من حاكمية الجزائر. وهذا الخبر أحزن حسن مما جعله يذهب مسرعا إلى القسطنطينية[1].

بستة سفن شراعية بغرض تخفيف غضب «روستان». ومغادرته كانت يوم 22 سبتمبر (1551). إذ حكم مملكة الجزائر لسبع سنوات بكل أمن وعدل وكان له من العمر ثمانية وعشرين سنة عند وصوله إلى الجزائر وخمسة وثلاثين عند مغادرتها. وأنا هنا أروي في فترته وبالمكان الذي سوف يصير عليه الحال بعد سلطتين أخيرتين بالجزائر.

---

(1) قد يكون من المؤكد أن طمع روستان كان سببا في عزل حسن، ولكن سقوطه كان في اغلبه ناتج عن طلبات سفيرنا الذي كان يظهر عداوة باشا الجزائر لفرنسا. ففي الرسالة التي وجهها السيد دي آرامون الموجهة إلى الملك بتاريخ 20 جانفي 1552 نلاحظ النص التالي: «بناءا على التكهن الذي توصلت إليه حول ملك الجزائر، هذا الملك الأعظم (هناك كتابة سرية لا تفهم بها خليط من الفرنسية والاسبانية لم يقوى المترجم على ردها إلى أصلها ...(مفاوضات فرنسا مع المشرق مج 2 .ص. 181).

الفصل السادس

القايد صفاء سادس الملوك

أولا

كان حسن يأمل في الرجوع قريبا، وذاك خطأه. إذ رغم أنه سلم حمامه إلا أن حقد «روستان باشا» الذي يحمله له. وهو يريد أن يترك مكانه رجل يكون بمقدار حذره وعدله يستطيع إدارة المملكة إدارة لائقة وقد وقع اختياره على القايد «صفاء» الذي عاد من تلمسان بعد أن سلمت له قيادة تلمسان (كما قلنا سابقا) واستولى عليها الأتراك.

هذا القايد الذي أعطى الانطباع بتجربته وحذره وشجاعته في هذه المعركة وفي مناسبات أخرى. كان محبوبا من الجميع وكذا هذا الاختيار كان مقبولا في عمومه. فهو تركي الأصل ومن عائلة مزارعة فقيرة بالأناضول أتى إلى الجزائر قبل سنوات من هذه مع بعض الذئاب من تركيا (ن. م) يبحث عن المغامرات وقد نجح نجاحا كبيرا في ذلك وقد وصل إلى ما وصل إليه الآن. ولكن لم تعطى له رتبة ملك والباشا ولكن أعطيت له رتبة الخليفة والتي تعني نائب أو مساعد الملك.

وقد راح يحكم بهدوء وحكمة وفي زمنه لم يحدث ما يعيق سلطته ويجعله يقوم بعقوبات وإعدامات والتي تحدث عادة وقد راح يتقلد المنصب لسبعة شهور منذ نهاية سبتمبر (1551) إلى غاية افريل (1552). الفترة التي وصل فيها ملك جديد إلى الجزائر. وفي نفس الوقت كان «صفاء» قد أقام تحصينات على المرفأ بإنشائه لقلعة جميلة والتي ترى اليوم على باب «بابازيرا» أي «باب الجزيرة» والتي تؤدي إلى البحرية وكان مشروعا مميّزا وقويًا.

وفي عهده حصلت مجاعة مرعبة ولكنه كان ذا عناية كافية في إمداد المدينة في اللحظة التي كان يموت الكثير في البلاد. جزائريو العاصمة كانوا يعيشون الوفرة. ويموت الذي حكم «تنس» لعشرة سنوات وقد أصبح قايد لـ«تنس» بعد وفاة «حميد عبدي». والأتراك الذين عاشوا على وئام وصداقة مع هذا الأمير وفق اتفاق أقامه خير الدين الذي أعاده إلى الحكم، ولكن بعد وفاته، راحوا يستولون على مملكته. و«صفاء» يتوفى سنة (1561) عن سن واحد وخمسين سنة. وقد كان قويًا، ذو قامة قصيرة، بدين، وأسمر وذو لحية. إذ لم يترك من ورائه أطفال ولكن كان له أخ صغير يسمى القايد «دوت» (هو القايد داوود والذي تحدثنا عنه من قبل).

والذي جاء به وهو طفل صغير من تركيا. وقد أثرى وأشهر قايد زمنه. وقد دفن إلى خارج باب الواد إلى القريب من البحر بقبة صغيرة مربعة الشكل وغير مرتفعة تستند على أربعة ركائز من الآجر.

الفصل السابع

صالح باشا الملك السابع

أولا

روستان باشا وهو يريد منع حسن ابن بربروس من أن يعود إلى سلطته بالجزائر، يعيّن مكانه القرصان الشهير «صالح رايس» والذي كان ولمدة طويلة رفيقا لخير الدين والذي تحدثنا عنه ونحن نقص تاريخ هذا الأخير[1].

وهو موري ولد بالإسكندرية زمن حكم السلطان سليم يوم جاء لفتح مصر بأن ضرب المماليك وقضى على قوتهم. ومنها انتقل إلى تركيا ومنها إلى بلاد البربر أين وضع نفسه وقرصان مثله تحت قيادة بربروس الذي أحبّه وقدّر شجاعته التي أظهرها في كل مناسبة وكذا في سنة (*1535*) عندما ذهب خير الدين إلى لقسطنطينية اختار صالح رايس من ضمن الذين رافقوه ويوم سلمت قيادة الأسطول إلى خير الدين كان من بينهم. ومنها راح يعرف في كل مناسبات الحروب البحرية على أنه رجل ذكي وذو مراس. وأخيرا وفي سنة (1543) عندما أرسل بربروس بعض سفنه لاكتساح شواطئ الأمبرطورية قام بإرساله من «تولون»[2] إلى اسبانيا على راس اثني وعشرين سفينة حربية والتي بها زرع خرابا بـ «روزاس» و«بلاموس».

---

(1) صالح رايس خلف بربروس كقبطان باشا (انظر محادثات فرنسا مع المشرق مج 1. ص. 624) حسب رسالة السيد دي آرمون والذي سوف نتحدث عنه إلى القريب منه هنا كان يظهر لفرنسا تودد كبير وقد كان ذا فائدة لسفيرنا في عدة مناسبات).

(2) ولنعلق نحن على ما قال دي غرامون. وهو يقول أن صالح رايس كان ودودا ومحبا لفرنسا وهذا كلام قاله فرنسي والواقع أنه عميل من الطراز العالي جدا، ونقول لماذا ونقول أن يوم حضر خير الدين لنصرة ملك فرنسا البائس كان هناك صالح رايس على سواحل نيس وتولون والكاتب يظهر لنا تملل خير الدين من موقف فرنسا وهو لا يعلم أن بين صفوفه من يؤدي دور الكامبارس ويحصل اتفاق لا نعرف له بنود بين فرنسا والأمبرطور شارل ويبقى خير الدين واقفا يشاهد مظاهر الاتفاق وهو لا يعلم أن فرنسا حصلت على امتيازات منه وصالح رايس الانكشاري القرصان ليس بن ديار الأتراك بل هو موري حسب أقوالهم وقد عرف أشياء لم يدركها لا خير الدين ولا ابنه .. وللحديث بقية ...المترجم»).

ولدى عودته إلى تركيا، راح يعرض عليه قيادة سفينة السلطان التي يستعملها في سياحته ونزهته بالبحر. وهذه المهمة لا تعطى إلا للأشخاص الرئيسيين والمرغوبين من السلطان ويحوزون على ثقته. إضافة إلى أن الباشا «روستان» اقترحه أن يكون الحاكم بالجزائر لغرض حرمان «حسن» من العودة. والسلطان ما كان منه إلا القبول بطواعية اقتراح هذه المهمة لرجل كان قد خدمه وهو يعلم أنه لها قادر.

وصالح رايس يصل إلى الجزائر في نهاية أفريل (1552) على رأس عشرة سفن شراعية. وفي نفس هذه السنة. ملك توقرت الموري أين مملكته تقع إلى مسيرة واحد وعشرين يوما من الجزائر وإلى خمسة أيام من بسكرة على حدود الصحراء وأراضي الزنوج وإلى المائة وخمسين من الفراسخ الصغيرة من الجزائر، راح ينتفض ويرفض تسديد الغرامة السنوية.

وصالح رايس يسير إليه في بداية أكتوبر بثلاثة آلاف رجل من الاتراك والزنادقة مسلحين بالبنادق وألف فارس ومدفعين فقط، من دون أن يعلن عن وجهته، بغرض الانقضاض على العدوّ وهو على حين غرّة. ويصل هو وجيشه إلى القريب من توقرت، قبل أن يعلم الملك بمسيرته وهذا الأخير لم تكن له القدرة على الخروج إلى الخارج من المدينة ولا الدخول في معركة، وهو يتبع نصائح وصيّه (الكلمة بالاسبانية هي آيو والتي تعني معلمه أو الحاكم، ولكن أظن أن كلمة وصي هي أصلح استعمالا للمعنى لهذه الجملة..المترجم). (هذا الأمير كان شابا صغيرا) راح يغلق على نفسه بعاصمته والتي كانت محصّنة، وهو على أمل أن يكون أتباعه والأعراب وجيرانه وحلفاؤه كلهم أعداء للأتراك، يأتون لنجدته.

وصالح رايس راح يقذف المدينة بالمدفعين، ولثلاثة أيام متتالية وفي اليوم الرابع يعطي الأمر بالهجوم ويستولي على المدينة بعد أن أحدث بها مجزرة كبيرة للموريين. والملك نفسه يقع بأيدي «صالح رايس» والذي راح يطلب منه كيف أن شجاعته أوصلته إلى حد الانتفاضة ومحاربة سلطة السلطان.

والشاب الصغير راح يرمي بخطئه على وليّه والذي راح يسيطر عليه ويملي عليه بالقوة أوامره وطاعته بحكم أنه هو الذي يملك السلطة الحقيقة. وصالح رايس يقدم هذا الموري إلى الأمام ويعترف هذا الأخير بصحة ما

كان وأنّه هو الذي حرض على التمرد وبالتالي أكد أنه كان على قناعة يشهد عنها الله بأن قتل التركي مساوي تماما قتل النصراني ..

وعندها راح صالح رايس يقيّده إلى فوهة مدفع ويقذف به أشلاء. وراح يبيع الإثني عشر ألف بالمزايدة ساكنا بأصنافهم سنا وحالا.

وينهب البلد ويحطم التحصينات ويأخذ الملك البالغ من العمر أربعة عشر سنة رهينة، ومنها يذهب بعيدا لمسيرة أربعة أيام لغزو مملكة ورقلة عازما على قتل ملكها (هذا البلد الذي تتوافر به التمور بكثرة) والذي أبى أن يدفع الأتاوات. ولكن ملكها راح يفرّ مصحوبا بفرسانه الأربعة آلاف من المدينة.

والأتراك يجدون أنفسهم أمام أربعين زنجي جاءوا كما هي العادة لبيع عبيدهم والذين لم يكن في مقدورهم الهروب من أمام الأتراك. وقد كانوا يملكون أموالا معهم، إذ راحوا يدفعون مائتي أوقية من الذهب حقنا لدمائهم وتركهم وحالهم.

ومنها راح صالح رايس يأخذ بجيشه راحة دامت ستة أيام. وفي تلك الفترة استعلم مكان تواجد الملك الفار الذي راح يبتعد عن عاصمته لمسيرة سبعة أيام (خمسون فرسخ) بمدينة تدعى «القلعة» (تدعى اليوم عين صالح .....المترجم). والقريبة من أراضي الزنوج.

ويطلب منه الرجوع وأن لا شيء يثير قلقه. ولكن بشرط أن يدفع الأتاوى. ويوافق الملك على ذلك ويأخذ صالح رايس طريقه إلى الجزائر. ويعود ملك ورقلة إلى أراضيه. وهو يحذر من عودة الأتراك (رغم المسافة التي تفصلهما) راح يسدد من اللحظة الأتاوات وأتباعه يقلدوه في ذلك إلى اليوم إضافة إلى إرساله لزنوج عبيد إلى الجزائر العاصمة سائر السنوات المتوالية. وصالح وهو يعيد ملك توقرت الشاب إلى كرسي عرشه. وهذا الأخير يقسم له وأتباعه أن يكونوا أوفياء للأتراك وأن يسددوا الغرامة المالية السنوية إضافة إلى خمسة عشر زنجية بعد أن أعطى لهم حريتهم إلى غاية اليوم[1].

---

(1) كان السيد ديفولكس قد وجد ببعض الأرشيف الوثائق تظهر بأن الغرامات قد سددت في أواخر أيام أيالة الجزائر).

ثانيا

وطيلة فصل الشتاء راح صالح رايس يهتم بإصلاح سفنه قدر المستطاع ومع بداية جوان (1553) يخرج من ميناء الجزائر بسفنه الأربعين من شراعية كبيرة وأخرى صغيرة.

وهو يصل إلى جزيرة «مايوركا» بعد ثلاثة أيام من الإبحار ومنها ينزل قسطا من رجاله لنهب شواطئ وبوادي وخطف عبادها ولكن فرسان وحاملي السهام والنبال لمدينة «مايوركا» يخرجون من المدينة ويهاجمون بشجاعة الأتراك ومن دون خسائر كبيرة يوقعون بالأتراك خسائر ويقتلون منهم خمسة مائة رجل، وكان من بين قتلاهم «يوسف رايس» وهو مولى محبوب من الأميرال العام «أشا اولي»[1].

والأتراك وهم منهزمين أرغموا على الانسحاب وصالح رايس وهو يرى نفسه مكشوفا راح يتجه إلى الغرب بالقرب من السواحل الاسبانية، من دون أن يحدث أضرار، خاصة وأن سكانها يعرفون أن قوة أسطوله لن تستطيع فعل أكثر من هذا ويعود نهاية شهر جويلية، وهو يلتقي في عودته بخمس سفن خاصة بالنقل وسفينة برتغالية صغيرة.

وبهذه السفن كان متواجد «مولاي بوعزون» الأعور[2]. ملك «فاليز» الذي كان يريد أن يستولي على فاس بعد أن راح يطلب المساعدة من اسبانيا ويعود بهذا الأسطول الصغير الذي يحمل على ظهره ثلاثة مائة رجل والذي أعطاها إياه ملك البرتغال «جون الثالث» لمواكبته إلى غاية «فاليز».

وصالح وهو يتعرّف على هذه السفن المسيحية يقوم بالإحاطة بها بأسطوله، والبحر حينها كان هادئا، وراح يقصفها بقوة من كل الجهات ودون توقف والأتراك تتلاحمون لمرات مع السفن البرتغالية التي راحت تدافع ببسالة لأكثر من ثلاث ساعات، وهم يخسرون الكثير من رجالهم وكل الذين بقوا على قيد الحياة قد أصيبوا ومنها راح الأتراك الذين يشكلون قيادة

---

(1) كان بيالي والذي كان الأميرال الكبير ونحن هنا لا نقبل بـ(اشا- اولي).

(2) الاسم الاسباني هو تيارتو وهو المرادف الثاني للأعور والأعمش).

الأربعين سفينة للباشا يلقون القبض على الباقين بما فيهم ملك «فاليز» وخمس عشر أو عشرين من المور وصالح يتوجه برهائنه إلى جزيرة «فاليز».

والقايد الذي يحكم والمعيّن من قبل ملك فاس المسمى «موسى» يعلم أن ملك الجزائر بنفسه يقود الأسطول، وهو يخشى الدخول معه في نزال أو أنه يريد منه المعاملة الحسنة بأن يجعله السيد ويسلمه هذا الحصن المنيع والمدينة التي يحكمها.

وملك الجزائر يشكره على رغبته ويقبل بعطاياه، وهو يجيبه بأنه على سلم مع الشريف ملك فاس، وأنه لم يأتي بنية الحرب أو الغزو ولكن بالعكس يسلم للشريف السفن المسيحية التي استولى عليها بكل مدافعها وأسلحتها. إضافة إلى هذا ولخدمته يأخذ معه سجينه «مولاي بوعزون «إلى الجزائر الذي اتصل بالمسيحيين طالبا المساعدة للإطاحة بكرسي عرشه.

وهم على هذا التبادل في الرأي والمشورة بهذه الأساليب لم يكن صالح يطلب إلا مواصلة الصداقة مع ملك فاس، وهو يطلب منه أن لا يجتاز جبال «المولحية» التي تواجه «مليلة» والتي تفصل تلمسان عن مملكة فاس (والتي يسميها الأسبان الفرسان الغير مروضة للمولحية)[1].

وعدم ترك الموريون وأتباعهم بالقيام بمخاطر بمقاطعة تلمسان التي هي تحت سلطة الأتراك. وصالح يحمل القايد «موسى» بتليغ الأمر سريعا إلى الشريف. ويترك له المراكب مع مدافعها المصنوعة من البرونز والتي هي جيدة وبكمية كبيرة[2].

ويتجه إلى الجزائر، وثلاثة اشهر لم تمر بعد إذ بعدد من المغامرين يمرون بالجبال ويجتاحون مقاطعة تلمسان سواء أكان ذلك بموافقة من الشريف أو خروجا عن طاعته.

---

(1) انظر إلى ما قاله مارمول الكتاب الخامس فقرة 16. إذ ترى أنه من الأفيد أن النهر القديم مليفيا كان حدود معترفا بها بين المغرب وأيالة الجزائر كما كان في السابق في العهد الروماني بين تانغتان وموريتانيا السيزارية).

(2) هنا نلاحظ الدهاء الكبير لدى صالح وقد اشترى حدودا وامنها من خلال رحلة كانت أقل فائدة من ناحية القرصنة لكنها كبيرة له من ناحية التواجد ....المترجم).

هناك من قال بأن الاجتياح لم يحصل إطلاقا، ولكن «بوعزون» كان قد تمكن من الحصول من صالح على دعم للاستيلاء على مملكة فاس وهو يدفع إليه كمية كبيرة من النقود كدعم له.

وهذا الأخير راح يقبل بهذه الاقتراحات ويعلن الحرب على الشريف. وكان قد تهيأ مع بداية شهر جانفي (1554) مع ستة آلاف من الجنود الحاملين لبنادق وألف من الصبايحية. ومنها ألتحق به وهو في طريقه أربعة آلاف من الفرسان الموريين أرسلوا من طرف ملك «كوكو» وقسم آخر من زعماء الأعراب. ومنها راح يسير إلى فاس بهذا الجيش واثنى عشر من المدافع وهو يصطحب معه «مولاي بوعزون» الأعور.

إضافة إلى هذا ضمه لحوالي ثمانين مسيحيا اختيروا من الرهائن الشجعان، والذين سلمت لهم قيادة مصلحة المدفعية، وهو يعدهم بالحرية إن هم استطاعوا الدخول إلى غاية فاس، ومنها سوف يكون على وعده.

وعلاوة على هذا كان قد أرسل بحرا اثنى وعشرين سفينة شراعية صغيرة وذلك بإعطائهم الأوامر بأن يرسوا بمرفأ جديد إلى القريب من «مليلة» بفرسخين وإلى ثلاثين من فاس (هذا التوضيح يعود إلى قصص مارمول). وكان هذا ضمان احتياط للانسحاب، إن هو هزم وهو يصل إلى المدينة «تاسا» (والتي اليوم «تازا»). والتي تبعد إلى الأمام من فاس بعشرين فرسخ.

ومنها يلتقي بالشريف الذي كان ينتظره بتعداد أربعين ألف من الفرسان والعديد من المشاة. ورغم قوة هذا الجيش راح صالح رايس يقتحم عدوه. ولأن العديد من القياد الذين يصحبون ملك فاس كانوا قد انذروا «أبو عزون» أن اللحظة قد وصلت فتخلوا عن صفوف الملك الفاسي وقد انظموا إلى صفوف الأتراك من الوهلة الأولى للمعركة وقد راحوا يساعدونهم في مهاجمة الملك. وجيش الشريف كان مضطرا إلى الفرار بعد أن تلقى خسائر فادحة، ومنها راح صالح يدخل مدينة «تازا» من دون مقاومة، أين أقام موقعا من مائتي تركي يقودهم القايد «حسن» وواصل طريقه إلى فاس الجديدة، أين الملك كان ينتظره وجيشه والذي أعاد تجميعه وتنظيمه، وهو يريد أن يقوم بمعركة ثانية.

وبدأت المعركة بمقبرة تواجه جدران مدينة فاس، والجيش المغربي يهزم ويصد إلى غاية المدينة. وفي الوقت الذي كان الشريف يفر من أحد أبوابها والتي تفتح على طريق المغرب، الأتراك يدخلون من الباب الآخر للمدينة الجديدة، وهم ينهبونها، ويحصلون على غنائم كبيرة.

واليهود الذين بقوا بهذه الحيّ المفصول عن المدينة، يقدّمون عوض النهب ثلاث مائةألف قطعة نقدية لملك الجزائر. وهذا الأخير تسلمها بباب «اليهودية» واثنان من الأتراك دخلا بغرض النهب رغم حصول هذا الاتفاق. وهذا الاستيلاء كان قد حدث بشهر مارس (1554). وسرعان ما صالح رايس راح ينصب «مولاي أبو عزون» ملكا والذي كاعتراف منه لخدماته قدمت له ثلاث مائة «مثقلة» من الذهب[1].

على أساس ثلاث آلاف «مثقلة» يوميا منذ الانطلاق من الجزائر. والأتراك والجنود يقبضون ليس فقط أجرة غير محددة بل أيضا تحفيز كبير. والضباط كفئوا بهدايا ثمينة وعدد كبير من الجياد والجمال والبغال التي استعملوها لحمل غنائمهم إلى الجزائر.

وصالح وهو على لياقة ملكية والزوجة المفضلة من الشريف قد أصبحت بيده وبناته الأربع يعاملن برفق ويرسلهن تحت حراسته إلى الملك المطاح به والذي راح يلتجئ إلى المغرب.

ثم يمكث بفاس مدة شهر أين راح يهتم بشؤون المملكة وتقوية نفوذ «أبو عزون» بعدد كبير من السكان والقياد. وعندما اطمأن إلى أن الأمن قد عاد راح ينطلق عائدا إلى الجزائر ببطء وعلى سير قصير خلال اليوم. ويصل مع بداية شهر أوت، بعد أن أقام لأيام بتلمسان ومستغانم وتنس وبالعديد من المدن الأخرى، أين راح ينظم التحصينات ويسوى شؤون الحكومة.

(1) المثقلة من الذهب تساوي قيمة 5 فرنك و20 سنتا من نقدنا.

ثالثا

والهزيمة الجديدة للشريف لم تكن قد عرفت إلا بعد أيام من جزيرة «فاليز» أين القايد كان يخشى غضب الملك الجديد، والذي كان عدوّ له على الدوام، ومنها راح يفرّ ويترك هذا الموقع الصعب والذي استطاع منه بسهولة الدفاع ضد «مولاي أبو عزون» وحتى الذين كانوا أقوى منه. وعندما علم القايد بمغادرة أسطول صالح رايس، راح يبعث برياسه إلى المرفأ الجديد والقريب من «مليلة» الذين لم يفوتوا لحظة هذه الفرصة السعيدة وينطلقون إلى الجزيرة بأسطولهم التي وجدوها خالية ومنها تموقعوا بها، وصالح كان بفاس عندما علم بهذا الخبر، ومنها راح يسرع بإرسال قايد تركي يدعى «عبد القادر» بمعية مائتين من الرجال ويلزمه بأمر تحصين الجزيرة قدر المستطاع. وهذه الأوامر جعلت الجزيرة تبقى تحت سيطرة سلطة الأتراك إلى غاية (1564) أين استولى عليها الملك الإسباني «فليب الثاني».

رابعا

في سنة (1555) يستولي صالح رايس على بجاية بالطريقة التالية. إذ ينطلق من الجزائر في شهر جوان عن طريق البر وبمعيته ثلاث آلاف من الأتراك والموالي المسلحين بالبنادق ويرسل بحرا بسفينتين شراعيتين ومركب للنقل أو «سايتي» الفرنسية[1]. والتي كان متواجدة آنذاك بالجزائر، وهاته السفن مجهزة بإثنتى عشر مدفعا من العيار الكبير واثنان من المجانيق الكبيرة، والكثير من الذخائر والمؤن. ولم يكن في استطاعته تجميع جيش قويّ لأنه في هذه اللحظة بالذات، عظيم «كابوي» أخ لـ(بيار ستروزي) يصل لحظتها إلى الجزائر بمعية أربع وعشرين سفينة شراعية فرنسية ورسائل من السلطان[2].

هذا الملك راح يطلب من صالح رايس بأن يزوده بالسفن الصغيرة والعساكر بقدر الاستطاعة للذهاب لمناصرة ملك فرنسا «هنري» والذي يخوض في هذه الأوقات حروبا كبيرة مع الملك «فليب الثاني» وبناء على أوامره صالح رايس راح يسلم للعظيم اثنى وعشرين من السفن الشراعية أو الصغيرة برجالها ومدافعها. وهو يسير إلى بجاية يجمع أكثر من ثلاثين ألف من الموريين، فرسان ومشاة والذين أرسلهم ملك «كوكو» والمشايخ الأخرين[3]. وعلى رأس هذا الجيش يأتي ليضع الحصار ذات صباح جمعة

---

(1) كانت في الفترة السفن الصغيرة الخاصة بالنقل ذات الاندفاع الضعيف. والكلمة بقيت مستعملة بالبحر الأبيض المتوسط إلى غاية القرن 17 .بينما الاستعمال الذي أحدثه باشا الجزائر للسفينة الفرنسية، والذي لا نستغربه في اللحظة التي ألحق فيها دراغوت أسطوله ببولان دي لا قارد وغزا مجتمعين كورسيكا لحساب ملك فرنسا.

(2) (في مفاوضات فرنسا بالمشرق). إذ أن مسألة هذه المهمة لعظيم لـ(كابوي) نرى أن الفارس الكنسي لـ(أليبس) أرسل إلى الجزائر في سنة (1553) لطلب مساعدة من دراغوت وينظم إلى الأسطول الفرنسي، كما قلنا في المذكرة السابقة (انظر مج 2 المحادثات ص.261، 270، 274، إلخ .والحقيقة أن ستورزي جاء سنة (1552) بمعية عشرين سفينة يتجول عبر السواحل البربريسكية ولكن وهو يغزو راح يتلقى بتونس هزيمة كبيرة وخطيرة وهو يفاجئ من طرف مراد باشا الذي قتل له الكثير من رجاله (ن م ص.234).

(3) حسب الرسالة الموجهة من طرف بارلتا نفسه إلى الأميرة جان للبرتغال القصر الأمبرطوري هدم عن آخره في مدة يوم ونصف من طرف(المدفعية الرهيبة لهذا الكلب ملك الجزائر). وقصر البحر لم يستطيع المقاومة إطلاقا والقصبة تتحطم في فترة ستة أيام من النيران

وينصب بطاريتين، واحدة إلى الأعلى من الجانب الذي يشرف على المدينة ويقصف المدينة بستة مدافع وخاصة القصر الأمبرطوري والذي شيّده سابقا «شارل كانت» مع الأسوار. وهذا الجيش كان تحت قيادة المولى الإغريقي القايد «يوسف». والذي راح هو بنفسه يشرف على البطارية الثانية والتي كانت تقصف «فيرجيلات» وهو قصر منيع يقع إلى القريب من مدخل المرفأ، وكان محصنا بستة مدافع كبيرة ومجانيق والتي تحدثنا عنها ونيران مدفعيته راحت تتجه إلى سفينة كبيرة قادمة من اسبانيا بذخائر ونقود لتسديد رواتب الجيش. وبعد وقت قصير هذه الباخرة راحت تغرق إلى الأعماق وفي اليوم الثامن دفاعات «فيرجيلات» أصبحت آثارا والقسم الأكبر من المائة رجل للموقع كانوا قد قتلوا والبقية أرغموا على الدخول إلى المدينة.

وفي اليوم الرابع عشر، أسوار القصر الأمبرطوري تتحطم تحت نيران الأتراك[1].

وراح يسقط على الكثير من المحاصرين من الذين بقوا أحياء، والذين راحوا مكشوفين، أرغموا على ترك موقعهم والدخول إلى المدينة.

وصالح رايس وهو يرى نفسه سيدا على الحصون، يرى أن المدينة قد باتت على حافة السقوط، يرسل بمبعوث إلى الكابتن العام «دون آلونزو دي باراتلا» الفارس الكنسي الشهير ليشرح له أن المقاومة أصبحت صعبة بعد خسارة الحصنين والأسوار القديمة والتي اصطبحت آثارا كالتي تحيط بالمدينة، وعلى هذا فهو يطلب منه أن يدخل المدينة من دون معركة وسوف يقبل بتجزئة تشرفه.

وبعد محادثات، «دون آلونزو» وهو لا يرى ما هو فاعل راح يتفق على قاعدة الشروط التالية. على أن يختار من موقعه أربعين رجل وأن يركب

(وقد يظهر أنه لا توجد جدران مطلقا، والفرسان أنفسهم استطاعوا المرور من على الثغرة).(الرسائل الإسبانية .المجلة الأفريقية 1877، ص.279 وما يليها).

(1) يبدو أن هناك اتفاقات لم يعلن عنها الكاتب قد حدثت من قبل وإلا كيف نرى هذا العدد الهائل من العساكر التي تجمعت من مناهض للسلطة التركية ولو كان فعلا على هذا العدد فهل له من الجيش ما يحمي به نفسه؟... المترجم»).

البحر معهم إلى اسبانيا في السفينة الفرنسية الناقلة. ومنها يتحتم على الفائز أن يتكفل بضروريات السفر.

والاتفاق ارسي على هذه القواعد[1].

والتي كلفت غاليا «دون آلونزو» والتي بها ملك اسبانيا قطع رأسه لاستسلامه. وصالح يدخل المدينة وهو يبلغ من العمر أربعين سنة (خمس وأربعين سنة حسب أرقام الكاتب نفسه).

وهي نفس المدة التي استولى فيها «الكونت بيدرو نفارو» على المدينة بعدان طرد منها الموريين سنة (1510). ولأجل أن لا يقوم الأتراك بأعمال عصابات، قام بإعلام الجميع بأن لا أحد يدخل بجاية من غير إذن منه والذي يعصي أمره يناله عقاب القتل. ومنها استطاع جمع الغنائم التي وجدها، وقد كانت غنائم ثريّة. وألقى القبض على أربعة مائة رجل ومائة امرأة وحوالي المائة من الرجال وسحب اثنى عشر ألف من الأوقية بالريال والتي كانت مخبأة بسفينة النقل التي أغرقت.

والباشا راح يوزع كمية كبيرة من الغنائم والرهائن على أتراكه والبعض إلى الموريين.

وترك كقائد المولى السردي «علي ساردو» بمعية أربع مائة رجل وأرسل سفينتيه الشراعيتين مع السفينة التي أغرقت بعد أن أستخرجها وهذه السفن راحت تحمل الرهائن والاستيلاءات وكل الحملة تمت في غضون شهرين.

(1) لم يكن هذا صحيحا. فبارالتا كان قد طلب بان يعود الموقع إلى بلده الأصلي بأسلحته وأثاثه، وأن السكان يستطيعون أن يحملوا معهم أملاكهم المنقولة. وصالح أخلّ بهذا الاتفاق وفي الأخير حاكم بجاية وهو يرى نفسه ضحية اللامبالاة من حكومته لم يكن له شيء من المؤن والذخائر ولمدة طويلة ويحذر المجلس الملكي من انهيار أسوار المدينة. وهو يضيف وأنه لن يستلم إلا بعد نفاذ الذخائر، وبعد أن قاوم ثلاث هجومات على ثغرة مفتوحة. (ن. م ص. 282).

خامسا

مع بداية شهر سبتمبر من نفس السنة يرسل إلى السلطان بهدايا ثرية مع تقرير حول الاستيلاء على بجاية ويطلب فيها منه أن يوافق على إرسال جيش له للسنة المقبلة يرافقه هو بما يملك من قواته، واعدا إياه بالاستيلاء على وهران والمرسى الكبير، وطرد المسيحيين من بلاد البربر.

ولغرض نجاح هذه الحملة يحمل المهمة ابنه «محمد» والذي سيصبح فيما بعد ملك للجزائر.

والهدايا والمشروع الذي قدم أعجبت كثيرا السلطان، والذي أعطى أمرا بتجهيز وتسليح أربعين سفينة شراعية يركبها ستة آلاف تركي، وأن تتهيأ للذهاب إلى الجزائر مع بداية الربيع القادم.

وبين وصولها الجزائر وانطلاقها، راح صالح رايس يتهيأ بنشاط وسريّة تامة في تجميع ذخائر الحرب، والسفن التي يمتلك.

وفي شهر ماي (1556) الأربعون سفينة شراعية التركية تنطلق من القسطنطينية وتصل إلى بجاية في شهر جوان[1].

وصالح الذي أعلم بمغادرتها للقسطنطينية، كان قد أنهى تحضيراته وفي نفس اللحظة التي وصل فيها الأسطول، راح صالح يركب البحر ويغادر الجزائر بمعية الثلاثين سفينة شراعية، كان لذلك سببين، أولهما أن البلد في تلك الفترة كان بها وباء طاعون قوّي، والذي قد يصيب جيش السلطان، إن هو أرسى بالجزائر، وثانيهما أنه راح يأمل في الذهاب إلى وهران قبل أن يعلم الجميع بوصول الأسطول التركي.

والنتيجة بعد أن ركب البحر مسرعا بأربعة ألف من الأتراك على ظهر سفنه ومنها أتجه إلى «ماتيفو» و(تدعى اليوم بمرسى تامنتفوست) هي موقع يقع إلى شرق الجزائر باثنى عشر ميل، وبه مرفأ صغير يستعمل كملجئ

---

(1) رسالة من السيد دي كوردينياك مؤرخة بتاريخ 31 ماي تؤكد وتتحدث عن هذا الأسطول إلى صالح .(مفاوضات فرنسا بالمشرق مج 2 ص. 378).

للسفن، وبها كان يريد انتظار الأسطول التركي ومنها يتجه إلى وهران، من دون أن يتوقف بالجزائر. وما أن وصل حتّى هوجم من وباء الطاعون، ولكن لرحمة إلهية، والتي منعت مدينة وهران من أن تهاجم من مستبد فاس، يلفظ أنفاسه في مدة أربعة وعشرين ساعة، من دون أن يجد له دواء يشفيه.

وهذا الحادث يلقي بحزن كبير بين الجيش والذي راح يعود مسرعا إلى الجزائر.

وصالح رايس يدفن بقبر يقع إلى الخارج من «باب الواد» في مكان تواجد مقابر الملوك، وهذا القبر هو الأكثر قربا إلى البحر، إذ أنشأه الذي خلفه في الحكم «حسن قورصو» والذي كان مولى له[1].

وبعدها سوف يكون ابنه «محمد باشا» ملكا للجزائر والذي راح يحث نفقة لصيانة هذا المكان ويخصص له موري ومسيحي وأن يحيطه بورود وأزهار وأعشاب عطرية. هذا الضريح أحيط بسور من ثلاث طابيات (الطابية الواحدة ترتفع إلى 1متر ونصف) والتي تزال إلى اليوم ظاهرة، وبعدها أنجز «محمد باشا» قبة جدّ مزيّنة.

وصالح رايس كان له سبعين سنة لحظة وفاته، وقد كانت له لحية بيضاء وقامة متوسطة، ذو جثة ضخمة وبشرة سمراء، وكان دائما يظهر مظهر الشجاع بالحروب، ولم يترك إلا ولدا واحدا وهو «محمد» الذي سبق وأن تحدثنا عنه.

---

(1) قد نجد غالبا أن هذا التميز والذي يظهر لأول وهلة فريد من نوعه ويطلب منا تفسيرا. وهو أن كل أثرياء الأتراك لهم مقربا محببا والذي يضعون به كل ثقتهم وعائلتهم كذلك. ويكون في اغلب الأحيان عبد من القدامى اشتروه وهو طفل صغير وقاموا بتربيته بينهم، بعد أن يختن. هذا العبد الحر يأخذ مرتبة هامة بالمنزل، ومنها يحمّل إدارته، ونحن هنا نظهر الدور الذي يستطيع أن يقدمه، نرى أنه من الضروري التذكير بالعبيد المحررين في عهد روما الأمبرطورية القديمة).

الفصل الثامن

حسن قورصو الملك الثامن

أولا

بعد وفاة صالح رايس وعودة جيش الجزائر إلى «ماتيفو» مع جثمان صالح رايس. الأتراك والانكشاريون اتفقوا على اختيار ملك وحاكم لهم. في انتظار الأوامر التي سوف تأتي من السلطان. وكان المتفق عليه هو أحد الموالي الكورسيكيين. المقرّبين ورئيس ديوان الباشا المتوفيّ. وكان جدّ محبوبا من الجميع لكرمه الواسع. ويدعى القايد «حسن».

إذ أنه تحت حكم صالح باي مارس مهام «البلغيار باي» أو القبطان العام للجيش وقد أعطى البراهين على شجاعته وحذره. وكان قد رفض رفضا قاطعا هذه المهمة لأول مرة. ولكنّه قرر أخيرا تقلبها مرغما تحت الإلحاح الغير متوقف من الجميع. وفي هذه الأثناء وجيش القسطنطينية لا يعلم بعد بوفاة صالح رايس يصل إلى الجزائر أين علم بما حدث. إذ راح الملك الجديد «حسن» يستقبله. وراح يتباحث معهم حول الرجوع إلى القسطنطينية أو الذهاب إلى محاصرة وهران وكان أن توصلوا إلى الأمر الأخير ومنها قاموا بإعلام السلطان وبسرعة بخبر وفاة صالح رايس. ومنها أرسلت سفينة على جناح السرعة. وكانت الأجواء مناسبة إذ في مدة عشرين يوم رجعت السفينة من القسطنطينية. وبعدها بثلاثة أيام. كل الجيش انطلق إلى وهران مع كمية كبيرة من المدافع والذخائر التي حضّرها صالح سابقا.

و«حسن» راح يأخذ طريقه عبر البرّ بمعية قوة تتشكل من ستة آلاف جندي تركي يحملون بنادق. وهو في مسيرته. راح يضاعف من قواته بعدد يقارب الألف من الفرسان الموريين وثلاثين ألف من المشاة الذين أعلمهم صالح قبل وفاته أن يكونون على أهبة الاستعداد. ويصل بهذه الجموع إلى مستغانم وإلى الأمام من وهران باثنى عشر فرسخا ومنها أنظم إلى القوات الحاملة للمدفعية التي وصلت على ظهر السفن. وبها مكث لأيام لتجميع القوات وتنظيمها وينطلق بعدها إلى وهران بمعية اثنى عشر ألفا من أتراك الجزائر وأتراك القسطنطينية والموريين الذين تحدثنا عنهم وبأكثر من ثلاثين



مدفعا من كل الأنواع، منها المدافع الكبيرة القادرة على إحداث ثغرة. وهم يصلون إلى وهران راح الجيش يعسكر إلى الأمام من وهران، ويقوم بحفر خنادق والإغارة كل يوم على الموقع[1]. إذ لم تمرّ أيام معدودات على تنصيب الأتراك لبطارية الثغرة وبنفس السرعة التي جاءت عليها الحاملة لخبر وفاة صالح رايس تصل إلى الجزائر سفينة تحمل خبرا يقول فيه السلطان إلى «حسن قورصو» وجيشه إن هم لم يكونوا في طريقهم عليهم ألا يذهبوا وإن كانوا فعليهم بالانسحاب. وهنا يظهر إن نهاية الحملة ستكون غير مؤكدة.

والشخص الذي كان يحمل الأمر كان مولى إغريقي يدعى «علوش علي» (ويسمى بطريقة التهكم اوشالي اسكندريا). ووصوله لم يكن ليطمئن الأتراك والذين كانوا يأملون في الاستيلاء على المدينة بسهولة والتي لم يكن بها إلا موقعا صغيرا. وهم يرون إن عليهم إن لا يرفضوا أوامر السلطان يعودون إلى الجزائر برا وبحرا[2].

---

(1) حسب مارمول (الكتاب الخامس ف. 19) الأتراك كانوا قد استولوا على قلعة القديسين وراحوا يحاصرون الموقع عن قرب. ولكن السلطان أمر برفع الحصار، إذ أنه كان بحاجة إلى سفن لمواجهة أندري دوريا الذي راح يكتسح الأرخبيل ويهدد البوسفور).

(2) لنضع العملية موضع التحليل، هل حقيقة أن اندريا دوريا كان يهدد سواحل الأرخبيل، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا بعث السلطان بسفنه إلى الجزائر، والمسافة بعيدة تستغرق أكثر من أيام، ووهران قاب قوسين من السقوط يتوفى بها صالح رايس ولا تتم الحملة، وموته ليست على ما نعتقد من جراء وباء الطاعون ،بل لأمر آخر ...يعرفه الباب العالي وباشاواته، ونحن نرى السلطان لا يملك القرار وإلا مانحي حسن ابن خير الدين من سدة الحكم بطريقة دراماتكية، واغتيل خير الدين ونحن نرى أن هناك أدوار تلعب من وراء الستار و«علوش علي» واحد من أصحاب الأدوار وإلا ما آتى في اللحظة التي ستسقط فيها وهران ،فيفسد كل ما بني وتحدث مهالك كبيرة تأتي فيما بعد. تعود بالويلات على الجزائر وتركيا ..والأمر سوف يتضح للقارئ وهو يطالع ويرى ... والمترجم يمده ببعض الإشارات .....المترجم»).

ثانيا

حسن قورصو يحكم في سلم تام إلى غاية بداية سبتمبر برضى ورغبة الجميع، خاصة وأن الذين عرفوه من الأتراك والموالي المسيحيين يؤكدون على أنه رجل طيب القلب، وهادئ ومتفتح ومتحرر، لم يكن إطلاقا عدوا للمسيحيين، بل كان له بهم علاقات وروابط والتي لم يكن على معرفة واستطاعة في إخفائها[1]. وفي ظرف أيام قلائل يعلم أن هناك بطرابلس الغرب ثمانية سفن بها تركي يدعى «تيكولي»[2].

والذي أرسله السلطان ليحكم الجزائر. وهذا الخبر أثار ردّة فعل قويّة من جميع السكان الذين كانوا راغبين في حكم وسيرة «حسن قورصو».

والإنكشاريون والأتراك الرسميون يقتنعون (وهذا أمر لا يحدث إلا نادرا) ولا يوافقون على تسمية الملك الجديد الذي أرسله السلطان وأن يحفظوا لـ «حسن قورصو» مهامه وإعلام الباب العالي بقرارهم.

وهذا الاقتراح نال رضى الجميع. والإنكشاريين راحوا يحذرون قياد بجاية وبونة من أن يدخل الملك الجديد إلى موانيهم بسفنه وإرغامه بالعودة إلى القسطنطينية. وهم هكذا لا يقبلون بملك آخر غير«حسن قورصو» وقد أعلموا السلطان، وإذا لم يطيع الأوامر فسوف تقصف سفنه. والانكشاريون وهم يستقبلون هذا الأمر في اللحظة التي يصل فيها الملك الجديد إلى بونة، قايد المدينة والذي كان مولى إغريقي يدعى «مصطفى» يعلم الملك الجديد بالأوامر التي تلقاها. ولأن «تيكولي» راح يعارض، قام قايد المدينة بإطلاق عدة قذائف لإرغام هذا الأخير على الانصراف.

ومنها راح الملك الجديد يواصل طريقه ويصل إلى بجاية أين يتواجد هناك مولى سردي يسمى القايد «علي ساردو» (هو نفسه الذي تحدثنا عنه من قبل وقد نصبّه صالح رايس، عندما استولى على المدينة في السنة الماضية).

---

(1) لينتبه القارئ إلى الوصف الذي أعطاه الكاتب لحسن قورصو فهو توظيف به الكثير من الإشارات على القارئ أن يبدأ في البحث عنها ....المترجم).

(2) ما هو معروف أنه يدعى «تيكريلي» أين نجده بوثائق الأهالي وهذا الاسم يكتب «تيكالي» أو «تيكرلي» الخ ...

إذ راح يعلمه بأنه لا يستطيع استقباله لا بالمدينة ولا بالمرفأ، راح يعطي الأمر بالانصراف ويطلق على سفنه عدة قذائف ترغمه على الانسحاب. ولكن رغم كل هذا، «تيكولي» راح يواصل سيره إلى الأمام وهو يعتقد أنه سوف يستقبل بالجزائر، ويصل في نهاية سبتمبر، أين يرسو ب«ماتيفو» حسب ما هو جاري العمل به للسفن الآتية من تركيا الحاملة لرسائل أو أوامر من السلطان، ومنها راح يطلق نيران مدفع منبها إلى وصوله.

وموقع «ماتيفو» لم يكن ليردّ عليه، ذلك ما هو طبيعيا إن أريد عدم استقبال له.وهنا «تيكولي» وجماعته لم يكونوا على رضى لهذا العمل

في هذه الأثناء قراصنة الجزائر والذين هم على عدد كبير كانوا غير مرتاحين لقرار المليشيا، وهم لا يأخذون استحقاقاتهم ولا مؤنهم من ملوك الجزائر، بل بالعكس فهم الذين يثرونهم بإقساطهم من الاستيلاءات التي يقدمونها لهم، وهم غير اهتمام أن يكون هذا الملك أو الآخر.

إضافة إلى أنه في هذه الفترة المليشيا والقراصنة لم يكونوا على وفاق لأن الإنكشاريين راحوا يطالبون بتركهم يذهبون في سباقات كجنود على السفن. والقراصنة يتحملون بعض التسخير وهم يقومون طيلة السنة بجباية الضرائب من داخل الوطن.

والرياس يرفضون ولا يريدون أن يشاركهم الإنكشاريين في صيدهم البحري المثمر، ولا يريدون إن يهتموا بواجبات الحرب وأشغال الحرب، ويستلمون رواتب وامتيازات الإنكشاريين. ومنها نستتج أن القراصنة راحوا يأخذوا لأنفسهم جيشا خاصا بهم ويعيشون حالة من إنعدام الوفاق والكراهية للمليشيا[1].

---

(1) وهايدو خلال إقامته بالجزائر، كان قد رسم لنا عن قرب الأشياء بحيث مكننا من الإطلاع بدقة على أصول انعدام الوفاق والخلاف الذي يفصل زمن فترة وجود الأيالة، وبحارة المليشيا. هذا الحقد والكراهية كانت هي السبب الحقيقي لأحداث الفوضى الدموية التي ضربت الجزائر لمدة قرابة ثلاثة قرون والتغيرات التي عرفتها الحكومات. وفي الأخير والمدينة لا تجد ما تقتات منه من دون سباقات القرصنة، ومنها فإن طرف الرياس هو الذي تمكن مع مجيء الدايات من ترسيخ هذا النصر لهم).

ولم يكونوا على نفس رأي القراصنة فيما يخص طرد الملك الذي أرسله السلطان، والمساندة المطلوبة من الجميع لحكومة «حسن»، وهم يعتبرون هذه السيرة لا تعجب في شيء السلطان، وهذا ما حدث، وهم يقولون لهم أن السفن والزوارق الموجودة بالميناء غير مسلحة، ويخشون من»تيكولي» الغاضب من عدم استقباله أن يزحف ليلا بسفنه الثمانية ويحرقها.

يتوصلون فيما بينهم إلى مساندة «تيكولي» ومخادعة المليشيا، وللوصول لهذا الغرض، راحوا يضعون الأسلوب التالي: إذ راحوا يرغبون الإنكشاريين في أنهم على رأيهم، وهم يؤكدون لهم أنّهم على استعداد لمساعدتهم والانضمام إليهم. ويطلبون منهم بالنتيجة بأن يسلموا لهم الدفاع عن المرفأ والمنارة وباب البحرية الذي يحرسونه بسهامهم بينما المليشيا تهتم بأمن باقي المدينة.

والإنكشاريون لم يكونوا على دراية بالخيانة، راحوا يبدون رضاهم بهذا التوافق. وعلاوة على كل هذا راحوا يوظفون الرياس على كسب رضى «تيكولي» وإبعاده عن المرفأ والتوقف عن وضع البلد في خلافات بعد أن كان هادئ ومطمئن تحت قيادة «حسن قورصو». والذي قام بهذه المهمة هو قرصان «كسالوكي»(شلوق). والذي كان قبطان البحر وزعيم قراصنة الجزائر والأتراك وهم بعيدون عن هذا التوجس. لم يرون في الإرشادات والنصائح إلا ما يروه هم صالحا لهم. إذ يطلبون من «كسالوكي» الذهاب إلى «ماتيفو» أين يتواجد «تيكولي»

والرايس وهو يخفي نواياه ولا يسارع في تسليح سفينته الشراعية ويغادر المرفأ، ويعمد إلى ربح الوقت إلى غاية أن يصبح الزمن ليلا. فينطلق وأصحاب هذه الفكرة وهم: «مامي رايس» مولى نابولتاني، «مامي رايس» يخادع في تأدية ما تفاهم عليه ويترك أوامره لخمسة من قباطنته والذين كانوا مولى كورسيكي، «شوالي رايس» تركي، «مصطفى رايس»مولى ارنؤوطي[1]. و»يحي رايس» التركي والذي كان من قبل قايد لجزيرة «فيليز».

(1) مصطفى أرنو كاد ان يكون باشا للجزائر وقد قام بالمهمة لعدة أيام بعد وفاة تيكولي، وهذا ما تقرره رسالة كانت موجهة من فليب الثاني. والذي كان يقدم له دعمه في حالة أن الباب العالي لا يرضى به باشا (وثائق اسبانية، المجلة الأفريقية 1877. 287). السيد دي لا بريموداي وهو يخطئ فيقول (ن. م) أنه لم تكن المسألة في مصطفى ارنو في حديث هايدو).

وقد كان الزمن ليلا عندما «كساكولي» وصل إلى «ماتيفو» ومنها دخل إلى سفينة «تيكولي» والذي أختلى به جنبا وهو يحدثه عن السوء الكبير للإنكشاريين، ويطلعه على رغبة كل القراصنة أن يمكنوه من حكم مملكة الجزائر رغم أنف المليشيا، ويحدّثه عن أهمية الوسائل التي يراها تليق به. وأن يمكـنه من كل التسهيلات التي تقدم له.

و«تيكولي» وهو يرحب بهذه الأخبار. يعلم أحد الأساسيين له من الأتراك الذين أتوا معه ومنها. يعقد العزم على الدخول في مغامرة من دون انتظار، وينطلق في سفينة «كسالوكي» مع حوالي عشرين تركي من أصدقائه المسلحين جيّدا.

وتحت رأي القبطان يأمر سفنه بأن تتبعه إلى مسافة الميل وأن يدخل المرفأ من ورائه، وأن يأخذوا بكل تجهيزاتهم وسهامهم وأسلحتهم الأخرى. وهذا الأمر نفذ كما ارتأى. والليلة كانت نوعا ما مظلمة، وهم يصلون إلى القريب من الجزائر.

وبما أن الإنكشاريين أعطوا ألأمر لـ «كسالوكي» بأن ينبههم سريعا بالذي حدث وأن يعطي ألإشارة بطلقة مدفع في حالة تأكيد «تيكولي» على دخول الجزائر، وهم يرونه وهو لم يستعمل طلقة المدفع، كانوا يعتقدون أن المحادثات نجحت.

ثالثا

في هذه اللحظة التي يصل فيها «كسالوكي» إلى الميناء وهو يرسو مع «تيكولي»، يجد أن المنارة والبحرية محتلة من المشارقة والقراصنة المسلحين كما هو متفقا عليه. يتقدم وصديقه من دون توجس ويدخلون المدينة ولأن باب البحرية محتل هو الآخر من طرف الرياس. ومن هنا ومع مجموعة من العساكر تزيد عن ثلاث مائة رجل مسلحين بالسهام، ينطلقون إلى دار كبير تقع بالنهج الذي يمرّ مباشرة بالمدينة على باب البحرية. وهي التي ينزل بها الملوك الآتون حديثا من تركيا، ليقيموا بها في بداية توليهم لمهامهم في انتظار أن يترك لهم سابقوهم القصر المخصص لإقامة الملوك. و«تيكولي» وهو يصل راح ينزل مجموعة من رجال السهام مواقعهم. وفي تلك اللحظة السفن التركية الثمانية تدخل إلى الميناء وبدأت في إنزال من على ظهرها من الذين كانت بحوزتهم الأوامر وفي نفس اللحظة القراصنة كانوا مع «تيكولي» يشرعون في الصياح (يحيا السلطان! يحيا السلطان! وعند سماع هذه الأصوات الإنكشاريون وهم يرون نهج البحرية محتل من جمع مسلح بالسهام والنبال ولفات من أعمدة مشتعلة، يقعون في فوضى كبيرة وقد زاد من توهجها واحتدامها علمهم المؤكد بأن «تيكولي» دخل القصر الذي تحدثنا عنه. وأن السفن هي بالميناء، والجيش ينزل إلى الرصيف وعندها عرفوا كم كان الرياس دهاة ومخادعين، وهم ليسوا على مقدرة في مواجهتهم في معركة والكل راح يلتجئ بمنزله.

وهذا الحدث جعل من «تيكولي» يتأكد بأن المليشيا لن تستطيع القيام بشيء تحت أوامر نفس القراصنة، راح ينتقل ليلا إلى القصر بمعية ألفان من المسلحين بالسهام والنبال وحسن يأتي إلى غاية الباب. وهو لا يعرف سبب هذه الثورة. وأنها كما يقول خارجة عن إرادته وأنه تسلّم السلطة رغما عنه. و«تيكولي» لم يكن ليقبل بهذه الشروح وقد أخذها على أنها ناتجة عن نية غير سليمة ومنها يسجن غريمه

وفي هذه اللحظة لم تكن لحكومة «حسن قورصو» إلا فترة لم تتجاوز أربعة أشهر[1].

وبعدها بأيام قلائل، يعطي «تيكولي» الأمر بقتله. وذلك أمام الجميع ليظهر قبح وجرأة نفسه أمام من ينكر عليه فعله.

وسوف نأتي إلى ذكر ذلك إلى القريب بالتفصيل وثأره الذي أخذه من «حسن قورصو» الذي مات عن عمر ثمانية وثلاثين سنة. وقد كان ذا قامة متوسطة، وعينان كبيرتان وأنف معكوف ولحية سوداء لم يترك وراءه أولاد وقد دفن بقبة بجوار صالح رايس، قائده إلى الخارج من باب الواد. وضريحه قام بإنشائه مولاه «يوسف» والذي ثأر لموته بقتل «تيكولي».

---

(1) هذه الإشارة ترجع وفاة حسن قورصو إلى شهر أكتوبر (1556).انظر المواضيع المتعلقة بهذه الحادثة (المجلة الإفريقية. 1871. ص. 1 و81 و335).

الفصل التاسع

تيكولي باشا الملك التاسع

أولا

وبعد استيلاء «تيكولي» على المدينة ومملكة الجزائر بواسطة القراصنة كما قلنا عمد إلى كبل سابقه «حسن قورصو» بالحديد وأول عمل به هو إرسال اثنتين من سفنه إلى بجاية وإلى بونة لإيقاف قايدي هاتين المدينتين واللذان لم يكونا على طاعة للباب العالي. وأثناء الأيام الأولى، لم يهتم إلا بأخذ المعلومات عن المحرضين الأساسيين على هذه التمرد. ولكونه كان شحيحا وطماعا راح يتسلّم من كل الذين أرادوا إنقاذ أنفسهم الدراهم. إلا «حسن قورصو» و قيّاد بجاية وعنابة، ولم تمرّ عشرة أيام لم تمر بعد ويلقي حتفه بقساوة كبيرة وقذف به من على مرتفع (وهو عقاب بربري كما سبق وأن ذكرناه إلى البعيد من هنا) (في حوار الشهداء).

إلى الخارج من باب عزون وعند نهاية الجسر. وحسن بقي لثلاثة أيام كاملة معلقا إلى المرتفع على الجهة اليمنى[1].

ضحية لألم أكثر من قاس. وكان ذلك في بداية أكتوبر أين بدأ الجوّ في برودته. ويقول أحد المسيحيين الذي مرّ بجانبه (هذا ما رواه شاهد عيني): «يا مسيحي أعطيني لوجه الله معطف لأتغطى به» ولأن هناك أتراك راحوا يحرسونه بناء على أمر من الملك، المسيحي الرهينة لم يكن في مقدوره فعل شيء، بل بالعكس وهو يرى الأتراك يراقبونه من بعيد، راح يدير بوجهه إلى الجهة الأخرى وكأنه لا يريد رؤيته وقد كان مرعوبا بالمشهد. وبعد ثلاثة أيام يموت «حسن قورصو» وهو يعطي مثلا عن عدم

---

(1) يوم 24 جويلية 1557، هنري يكتب إلى السيد دي لا فيني: (إلى ملك الجزائر الذي عرف نهاية جد سيئة وهو يقع بين أيدي الحاقدين عليه راح يتلقى عقوبة مروعة بعدما بقي معلقا بقضيب من حديد بعينه وهكذا نهى أيامه التعيسة والأخيرة). مفاوضات فرنسا بالمشرق (هذا المشهد به خيال من الكاتب، نراه في وصف معلق بقي حيا ويدرك ما يدور من حوله، وأنا أتساءل كيف يستطيع ارتداء المعطف وهو معلق بين السماء والأرض، يجب على القارئ أن يستعمل خيالا كبيرا ليقتنع لما وصف له ....المترجم).

ثبات النعمة بينما «علي ساردو» قايد بجاية، فواحدة من السفن الشراعية تأتي به في أقل من ثمانية أيام. و«تيكولي» يشفي حقده منه، وذلك بأن دقّ أخشابا حادة بأصابع يديه ورجليه، وكانت بحق عقوبة جدّ قاسية وأضاف إلى ذلك عمده إلى وضع خوذة حديدية ساخنة على رأسه، حتى يكشف عن الكنوز التي راح يتحدث عنها العامة.

ومنها راح يخرق جسمه بأداة حادة من مؤخرته إلى غاية رأسه، و«علي ساردو» يموت أمام أعين الجميع وهو معلق كالطائر. وعذابه هذا دام نصف يوم وهو على ألم كبير إلى أن سلّم روحه. ومنها رفعت جثته لتوارى التراب إلى الخارج من باب عزون، في نفس اليوم الذي علّق فيه «حسن قورصو».

وبعدها بثمانية أيام، يؤتى للملك الجديد بقايد عنابة «مصطفى» المولى الإغريقي، الذي فرّ مع اثنين من مواليه على بغلة محمّلة بالنقود وهو يتجه إلى «حلق الواد ي» بعد أن أعلم من الجزائر بأن «تيكولي» في أثره. ومنها راح يعاقب مع أحد الأتراك الرئيسيين والأثرياء لمدينة الجزائر والذي يدعى «شرشباري». ولكن هذا الأخير حصل على عفو مقابل كمية كبيرة من الدراهم وفي الفترة التي وصل خبر تعذيب ومقتل «حسن قورصو» إلى تلمسان.

وقايد المدينة كان مولى لحسن وهو كالابري الأصل ويدعى القايد «يوسف» الذي أغتاظ كثيرا لمقتل سيده راح يرى شرفه كله في تحمّل كل الهموم من أجل الثأر لمولاه وقتل «تيكولي».

والانكشاريون الذين كانوا معه بتلمسان لم يكونوا ليتركوا هذه الظرف وهم مهانون من هذا الانتقام الذي تعرّض لها رجل منهم يكنّون له كل عاطفة الود إضافة إلى أن أصدقاءهم بالجزائر راسلوهم وأعلموهم بالغيظ الكبير الذي حدث بوصول وتصرفات «تيكولي» والذي راح لا يعاملهم بما كان الملوك السابقين يعاملونهم به، وهم يظهرون رفضهم المطلق في القبول به، والذي راح يخترق كل ما هو معهود من العفو والترحيب.

وهكذا لم يكن ينقصهم إلا أن يروا أنفسهم مجتمعين لطرده من الجزائر العاصمة. و«يوسف» وهو يطالع الرسائل التي حملت إليه يعلم

المليشيا من طرف أناس من تلمسان إن كانوا على رأيه، وأن لا يتركوه وقت تنفيذ مخططه الذي يراه في ذهابه هو بنفسه إلى الجزائر ومنها يقتل «تيكولي» ويثأر لموت سيده حسن.

والانكشاريون وأغاهم اغتبطوا لهذه الفكرة لدرجة أنهم أعلنوا عنه باشا.

وفي هذه اللحظة كان وباء الطاعون يضرب بحدة ويقضي يوميًا على الكثير. و«تيكولي» راح يفر من العدوى بخروجه من المدينة والاستقرار بـ «كاسيناس»[1].

وهي مكان غير مسكون إلى القريب من البحر إلى خمسة فراسخ غرب الجزائر العاصمة. ومنها نصب معسكره وخيمه وراح يلتجئ هو وعائلته ووزرائه إلى غاية أعياد المسيح لسنة (1556).

يوسف قائد تلمسان كان قد أعلم بتغيير «تيكولي» لإقامته فراح يرى أن الفرصة قد أتت، ومنها يغادر تلمسان إلى الجزائر بحوالي ثلاث مائة تركي (هناك من يقول بعدد ست مائة ويضيف بأنه لم ينطلق من تلمسان بل من مناطق أخرى مجاورة للجزائر، أين رفع تسديد الغرامات عن العشائر العربية لصالح الملك حسن[2]). ويوسف وهو يعلم أن «تيكولي» يخيّم بـ (كاسيناس) راح يسارع الزمن حتى لا ينتبه هذا الأخير إليه، ومنها وهو في طريقه يحجز كل من يجده أمامه من الموريين ويعمد إلى ربطه لجذع شجرة تخوفا من أن يتنبه الملك الجديد لما يحضّر له.

ويصل إلى القريب من (كاسيناس)، وعندها الباشا ينتبه إلى أن هناك شيئا ما به ريبة، يركب جواده ويسرع في الفرار مع ثلاثة أو أربعة من أصدقائه إلى

---

(1) رأس كاسين حسب الرسالة المذكورة بالوثائق الاسبانية (المجلة الإفريقية 1877، ص. 284) تكرليلي كان على مشارف مياه حمام ريغا ويوسف اغتنم فرصة غيابه لتنظيم تمرده. والسيد ديفولكس خصص موضوع طويل لسقوط ومقتل الباشا (المجلة الإفريقية، 1871، ص. 1 الخ).

(2) ونحن نرجح هذا القول لما لهو من أفضلية على تجميع أكبر قوة يغزو بها .. المترجم).

الجزائر، و«يوسف» وهو إلى القريب منه يتعرّف عليه ويتبعه من دون تأخر والسيف بأحشائه.

و«تيكولي» راح يحاول الدخول من الأبواب. ولكن الأبواب كانت موصدة من طرف الإنكشاريين. والذين راحوا يراقبون الأبواب منعوه من الدخول. وهو يصل إلى باب عزون يرى نفسه أنه ضاع ولم يكن له بدا إلا أن يأخذ بالمرتفعات بجواده. ويوسف يقترب منه راح يسارع في تسلق المنحدرات وهو يصل إلى جبل عال والذي يتواجد إلى مسافة ميل ونصف إلى الغرب من الجزائر ينزل من فوق ظهر فرسه متجها إلى باب دير أين كان قد سكن به لمدة طويلة وقد دفن به مولى من قرطبة يسمى سيدي يعقوب[1].

وبه راح يلتجئ، وما أن دخل إلا ويوسف الذي كان يتبعه عن قريب ينزل من فوق جواده ويدخل والنبال بقبضة يده يسرع إلى «تيكولي» وهذا الأخير وهو يراه يصيح يوسف لا تقتلني! اعتبر نفسك ببيت محمد! (يقصد الكاتب بيت الله ...المترجم).

ويوسف يرد عليه: أيّها الخائن. الكلب لماذا قتلت سيدي البريء؟ الذي لم يفعل أي خطيئة! وهو يقول هذه الكلمات يضربه بثلاث أو أربع طعنات بنبله ويتركه جثة هامدة على الأرض.

وتسلم روح الباشا بعد أن جاء الإنكشاريون والأتراك الموالين ليوسف وهم على قبول ورضى لما حصل له و منها اتجهوا جميعا مع «يوسف» نحو الجزائر.

وخبر ما حصل راح ينتشر بين الجميع بغبطة كبيرة. هكذا كانت نهاية «تيكولي» باشا، أين كانت سيرته مقبولة لو أنه لم يكن شحيحا وكراهية

(1) حسب السيد ديفولكس، هذه القبة تكون بالموضع الحالي لحصن الأمبرطور وإلى القريب منه (ن.م).

المليشيا له والتي لم يجد بها أحد يسانده. وقد حكم لفترة ثلاثة أشهر أي من بداية أكتوبر 1556 إلى غاية نهاية ديسمبر[1].

كان تركي الأصل، يبلغ من العمر يوم مقتله خمسين سنة. قويّ البنيّة ،ضخم الجثة ذو قامة متوسطة أسمر السحنة. وقد دفن إلى القريب من باب الواد بقبة أقامها له أحد أصدقاءه بعد أشهر من وفاته وهي إلى مسافة عشرين خطوة من أمام قبة «حسن قورصو» و«يوسف باشا».

---

(1) هناك خطأ في التاريخ اليومي، تيكولي قتل نهاية أفريل 1557 كما توضحه رسالة من الوثائق الاسبانية والتي تحدثنا عنها سابقا (المجلة الإفريقية 1877 .ص. 284). وهي رسالة من فليب الثاني ملك اسبانيا والتي تظهر ان خليفته لأيام قليلة كان مصطفى ارنؤوط والذي تحدثنا عنه (نفس المجلة. ص. 287).

الفصل العاشر

يوسف الملك العاشر

أولا

بعد أن قتل «يوسف» «تيكولي باشا» يدخل المدينة مصحوبا بجنده الذين أصطحبهم معه ومنها راح يستقبل أغا الانكشاريين ورجال الخاصة من أتراك وموالي المدينة والذين يحفظون ودا كبيرا لسيده «حسن قورصو» الذي ثأر له أيما ثأر بشجاعته، والعاطفة التي كانوا يكنونها لهذا الفعل النبيل، راحوا يختارونه من دون تأخير وينصبوه ملكا على الجزائر.

ويوسف هذا كان جدّ ذكي إذ راح يبرهن بهذه المناسبة على حريته وعطائه الكبير والممكن، ويوزّع في اليوم نفسه الذي قتل فيه غريمه عشرة آلاف من الأوقية على الجيوش، ويعيد نفس العمل في اليوم الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس إذ بهذه الأيام أعطى ستين آلاف أوقية من الذهب مما زاد في رصيده لديهم.

والأتراك جدّ مسرورين بملك جدّ معطاء، وبها غيّر «يوسف» نفسه من كلاباري مسكين إلى مرتبة جدّ وضاءة، ويوم وفاته كان الجميع يعيش على أدمع حارة بعد أن فتك به الطاعون الذي أنتشر وقسي على المدينة إذ في ظرف أربع وعشرين ساعة ضرب «يوسف» في اليوم السادس من تنصيبه وبها خسر الكرسي وحياته. وحزن كبير راح يلمّ بالجميع. وقد كان يبلغ من العمر ستة وعشرين سنة له قامة متوسطة ولحية كستانية، وبشرة بيضاء وكان معطاء للجميع، وقد دفن بجانب سيّده «حسن قورصو» بنفس القبة إلى الخارج من باب الواد وهي التي تقع إلى الأمام من قبة صالح رايس إلى القريب من قبة «تيكولي».

الفصل الحادي عشر

يحي باشا الملك الحادي عشر

أولا

بعد وفاة يوسف. الإنكشاريون المحزونون اختاروا كملك عليهم أحد الأتراك المسمى «يحي» والذي كان لفترة طويلة قايد لـ«مليانة» مدينة تقع إلى مسافة اثنى عشر فرسخا من الجزائر. ولأنه كان رجلا شجاعا وحذرا، فقد أختاره صالح رايس وهو ملك على الجزائر لخدمته في مناسبات عديدة.

إذ راح يحكم لستة أشهر من جانفي سنة (1557) إلى جوان. (هنا السيد غرامون لم يصلح الخطأ الذي ذكرته الوثائق الاسبانية ....المترجم). وبفترته لا توجد أشياء تلفت الانتباه. سوى أن فترته يموت بها الكثير من جراء إصابات وباء الطاعون الذي ضرب الجزائر وسائر المناطق الأخرى.

وبعد ستة أشهر وصل ملك جديد عيّن من قبل السلطان. وقد كان ابن بربروس «حسن باشا» والذي حكم من قبل الجزائر كما أشرنا إلى ذلك. و«يحي» يدخل في حياته الخاصة به في سعادة وسمعة كبيرة ولمدة طويلة.

وفي سنة (1562) وبعد وفاة «أحمد باشا» اختير حسن خليفة وحاكم للجزائر إلى اللحظة التي يعود فيها حسن باشا للمرة الثانية ملك للجزائر. ويتوفى في سنة (1570) عن سن ستين سنة وعلى الطريقة التالية: وهو مع «اوشالي» في محاصرة تونس سنة (1569) وبينما كان هذا الأخير بالمدينة، البعض من السفن تصل إلى «حلق الوادي» بغرض قصف جدرانها. «يحي» يخرج على رأس الأتراك. وقذيفة من هاته السفن تمر إلى القريب من عضلة

فخذه اليمنى ومن دون أن تلمس بشرته ولا حذاءه، في هذه الأثناء تصبح رجله كلها سواد ولم يعد في استطاعته الاستناد عليها.

ومنها يعود برا مع «اوشالي» على ظهر سرير صنع له خصيصا. و يموت بمنزله جراء هذه الإصابة بعد عدة أشهر من هذا الحادث.

كان رجلا طويل القامة ذي عينين كبيرتين ولحية سوداء، إذ لم يترك إلا طفلة كوريثة لكل ثرواته وقد أنجبها من «اكسا» ابنة الحاج باشا التي تزوجها، والتي كانت تدعى بـ «غوردة» لأنها كانت ممتلئة الجسم. وهذه البنت لازالت تعيش إلى الآن[1].

وتدعى «ليلى اكسا» وقد تزوجت القايد داوود وهو واحد من خاصة الجزائر. و«يحي» يدفن بمقبرة الملوك إلى الخارج من باب الواد بقبة أنشأتها له ابنته وهي إلى القريب من قبة أحمد باشا إلى جانب المدينة[2].

---

(1) على القارئ أن ينتبه إلى الفترة التي دوّن فيها هذا الكتاب حتى لا يذهب خياله إلى فترات أخرى....المترجم»).

(2) هناك خطأ لم ينتبه إليه الكاتب وهو وجود احمد باشا الذي سرب اسمه ملكا ولم يقدم للقارئ دليل على ذلك... وما يستطيع أن يقوله المترجم أن هناك أشياء أفلتت من الكاتب لا نعرف لها سببا ...المترجم»).

الفصل الثاني عشر

حسن باشا ملك للمرة الثانية والثانية عشر في ترتيب الملوك

أولا

في سنة (1557) كانت وفاة الوزير «روستان»[1]. والذي كان يمقت ابن بربروس والذي عزله من حكمه للجزائر كما سلف أن قلنا. بعدها بزمن قليل، السلطان وهو يعلم بالخلافات والتمرد والثورات بالجزائر ووفاة «حسن قورصو» و«تيكولي» و«يوسف» يسمح لحسن باشا بالعودة إلى الجزائر وحكم هذه المملكة والتي كان بها جدّ محترم ومطاع من الجميع وعلى ذكرى أبيه وعمّه والذين كانوا الفاتحين الأوائل ويصل كما كنا أشرنا إلى ذلك بشهر جوان سنة (1557) بمعية عشرين سفينة شراعية جدّ مسلحة، وبعد أيام قلائل علم أن شريف المغرب وفاس قد استولى على ولايات كانت له في السابق، وأنه قتل في معركة «مولاي أبو عزون» الأعور الذي نصّبه صالح رايس ملك على فاس، وهو على رغبة كبيرة في الانتقام من الأتراك (والذين كما قلنا هزموه في معركتين واستولوا على مملكته). ومضاعفة المناطق التي يستطيع التحكم بها.

وهذا الملك راح يسير بجيش كبير من الفرسان والمشاة إلى مدينة تلمسان التي يتحكم بها الجزائريون. ويصلها شهر جوان بعد أيام قلائل من وصول «حسن باشا». والقايد والحاكم لهذه المدينة كان حينها التركي صفاء الذي راح يحكمها لثان مرة. لم يكن لها إلا موقعا به خمس مائة رجل وبهم لم يكن قادرا على الدفاع عن المكان لشساعته ووضع أسوارها السيئ

---

(1) هناك خطأ: روستان باشا لم يمت يوم 8 جويلية 1561 (انظر إلى رسالة السيد دي بواستيلي الى كاترينا دي مسيس اليوم 5 أوت 1561. (مفاوضات فرنسا بالمشرق مج 2 .ص. 662).

بنائه. إذ راح ينسحب إلى القصبة وملك فاس يدخل إلى المدينة ويقتحم الموقع ولكونه لا يملك مدفعية لمحاصرتها، وبالتالي استحالة الاستيلاء على القلعة. يقوم بإرسال مبعوث على جناح السرعة إلى وهران ليطلب من «دون مارتان» كونت دي آلكوديت إمداده باثنين من المدافع فقط مع ذخائرهما والكونت لم يكن ليصغي لهذا ويقدم مدافعه للموريين.

وملك فاس كان عليه أن ينتظر بتلمسان آملا أن يستولي على القلعة بالقوة أو بالخيانة. وهذا التأخر كان في فائدة «حسن باشا» إذ أعلم بما يحصل ومنها استطاع السير لنجدة المحاصرين. ويخرج مع ستة آلاف من الأتراك والموالي مسلحين بالبنادق وفي طريقه ينظم إليه أكثر من ثلاثة عشر موري من فرسان ومشاة أتى بهم بعض الزعماء العرب. ويرسل عن طريق البحر أربعين سفينة منها شراعية وأخرى صغيرة وزوارق مع عدد كبير من المدافع والبارود وثلاث آلاف من الأتراك أين أعطيت لهم الأوامر بانتظاره بمستغانم وإنزال المدفعية والذخائر. وهو لم يصل بعد وإذا ملك فاس ينذر بوصوله. وهو لا يرى حظوظ في الاستيلاء على القصبة التي يدافع عنها الأتراك ببطولة كبيرة. ويرى من الحذر الانسحاب من تلمسان والعودة إلى مملكته وحسن باشا وهو على مسافة أربعة أيام من السير يصله خبر فرار ملك فاس راح يقرر الالتحاق به إلى غاية عاصمة مملكته ويواصل سيره دون التوقف بتلمسان. ويأمر بالقسط الآخر من قواته التي تتواجد بمستغانم بأن تغادرها إلى المرفأ الجديد والذي يتواجد إلى القريب من «مليلة» (قصاصة).

ومع بداية شهر أوت يصل إلى الأمام من فاس أين راح الشريف ينتظره. جيشه الذي يتشكل من ثلاثين ألف فارس وعشرة آلاف من المشاة الموريين وأربعة آلاف من العلج (أي موالي أو أندلسيون ومور الأسبان) وكلهم يحملون البنادق.

واليوم الأول كان مخصصا للراحة وبعد غد بدأت المعركة من كلا الجانبين على أشدها وخلال بعض ساعات قسم كبير من الجانبين والأتراك راحوا يتراجعون لأن الفصائل العربية لم تكن على قدرة لمواجهة فرسان فاس كما أنهم كانوا أكثر منهم عددا وتنظيما والعلج كانوا يقاتلون جيدًا وقد استطاعوا المحاربة إذ أوقعوا خسائر كبيرة بالإنكشاريين وقد قذفوا بهم إلى

جبل قريب. وجاء الليل لتتوقف المعركة والأتراك راحوا يغتنمون فرصة الليل بظلامه ليحفروا خنادق ويقيموا حواجز[1].

وحسن يعقد مع الزعماء الرئيسيين مشاورة حول إعادة الجولة في الغد صباحا ويقرر لكثرة الخسائر التي تلقاها أن لا يدخل المعركة وينسحب إلى تلمسان في أحسن الأحوال. وعند منتصف الليل يعطي حسن الأمر بالتهيؤ للمغادرة، وأن لا يتفطن العدوّ القريب منهم إلى سيرهم، وطيلة الليلة راح يشعل نيران كبيرة بواسطة أخشاب كبيرة والتي راحت تشتعل إلى غاية الصباح. هذا الأمر نفذ على أكمل وجه، والجيش التركي راح يبتعد والعملية حدثت بحذر كبير. وملك فاس لم يعلم بذلك إلا بطلوع الصباح، إذ وجد الجبل كله قد أخلي ونظرا لكونه هو الآخر خسر الكثير وله الكثير من الجرحى وخاصة في صفوف العلج الذين كانوا بصفوفه الأساسية لم يكن ليتبع الأتراك خاصة وأنه كان يعتقد أن ملاحقتهم قد تسبب له خسائر كبيرة. وحسن باشا يغادر بجيشه ويصل منتصف أوت إلى المرفأ الجديد، أين يتواجد أسطوله ومنها يسرّح كل فرسانه وفصائل المور وقسم من الأتراك. ويركب البحر مع الباقي من جيشه ومدفعيته. ونظرا لفكرة الاستطلاع على «مليلة» التي جاءته والتي قام بها على ظهر سفينة «مصطفى آرنؤوط» ومنها عاد إلى الجزائر.

---

(1) نعتقد أن الأمر لم يكن هكذا فهناك لبس كبير لهذه الحملة لم يوضحه الكاتب. فهل جيش به هذا العدد من المقاتلين الذين اضطروا الأتراك للانسحاب لأول يوم، يبقى مكانه ولا يلاحق المنهزمين بحكم أن الفار هو المنهزم والتكتيك لم يكن لا عند حسن وعند ملك فاس ومنها يعود ولا يدخل تلمسان ويسرح الجيش ويقوم باستطلاع إلى غاية مليلة ومدافعه بقت على ظهر السفن وغيرها ...هذا شيء غير متكامل في الإخراج وتنقصه رتوشات كبيرة حول ملاحقة حسن للملك وغيرها ..المترجم»).

ثانيا

وفي السنة المقبلة (1558) أين حصلت الهزيمة الحزينة بمستغانم. والتي بها هزم الكونت «دون مارتان» مع عدد من الآلاف الأسبان بين قتيل وسجين.

والكونت الذي أمدّه صاحب السموّ ملك اسبانيا باثنى عشر ألفا من العساكر للاستيلاء على مدينة مستغانم والتي تبعد عن وهران باثنى عشر ميلا إلى الشرق من وهران وعلى طريق الجزائر.

هذه الجموع تشكلت باسبانيا وجاءت إلى وهران في دفعة واحدة. والقسم الأكبر قطع البحر منتصف جويلية والباقي الذي يتشكل من خمسة آلاف والذي يدعى بوحدة «مالقا» تحت أوامر «دون مارتان» ابن الكونت ويحمل نفس الاسم (والذي هو اليوم ماركيز دي كورتيس وقائد وهران كما كان أبوه من قبل) لم يغادر بسرعة كما كان يرغب الكونت.

وهذا الأخير لكي يمرّس الرجال القادمين من اسبانيا، وفي انتظار وصول وحدة «مالقا» يقوم بعدة هجمات من وهران وبعض الاجتياحات على أراضي المور الأعداء.

ومنها وعند بداية أوت وحدة «مالقا» تصل والكونت كان قد خرج مع كل جيشه[1] يسير ببطء. ونظرا لكون مستغانم (كما قلنا) تبعد باثنى عشر فرسخا عن وهران راح يسرع من حركته.

والأتراك يفاجئون وهم قليلون في عددهم وبمكان ليس به حماية وقد انتصر عليهم بقليل من الخسائر. ولكن الكونت راح يسير ببطء تاركا المجال للموريين والأعراب المجاورين أتباع الأتراك أن يجمعوا أكثر من ستة آلاف من الفرسان. والباشا الذي أعلم بوصول القوات الاسبانية وخروج الكونت، كان له الوقت الكافي لمغادرة الجزائر والسير إلى مستغانم

---

(1) مارمول (الكتاب الخامس الفصل 19) يقول: ستة الآف وخمس مائة ويضيف المؤن والذخائر التي أرسلت عن طريق البحر والأتراك راحوا يتسارعون إلى السفن الذين يحملونهم وهذا ما كان السبب الرئيسي في كارثتهم).

والالتقاء به. يسير بخمسة آلاف تركي وموالي كلهم مسلحين ببنادق وألف من الصبايحية على الجياد وعشرة مدافع.

وهو يصل إلى القريب من مستغانم يلتحق به أعراب والذين كما قلنا كانوا بعدد ستة آلاف فارس وعشرة آلاف من المشاة [1]. الكونت كان قد أخطر بوصول حسن بواسطة مولى هرب من معسكر الأتراك وقد استطاع الالتحاق كما أراد (والكثير منهم نصحوه) بأن يستولي على مستغانم والتي هي ضعيفة وغير محصنة وهي تنتظر هجوم العدو[2].

ولكن شجاعته الأكثر من طاقته لم تتركه يأخذ بهذا. ومنها وصل الأتراك وأرغموه على الدخول في المعركة وبهذه الشروط الغير ملائمة أساسا والتي لم تكن في صالحه راح يقاتل بشجاعة وجيشه يهزم وتأخذ به الفوضى. وأكثر من اثنى عشر اسباني يقعون أسرى.

هذه الهزيمة حصلت يوم 26 أوت 1558 وحسن باشا يعود إلى الجزائر منتصرا مع عدد كبير من المقبوض عليهم من جملتهم «دون مارتان» والذي هو اليوم «ماركيز دي كورتيس» الابن لذلك الأب لذي تحدثنا عنه.

---

(1) وعند سماع خبر سير الكونت دي آلكوديت، العلج علي يخرج من تلمسان أين كان هو الحاكم ويقوم بقطع المدد من المؤن على الجيش الاسباني وهو يغير على هؤلاء المتأخرين منهم. وهذه الجيوش كان قد ذهب عنها صوابها من شدة الجوع والعطش والتعب، إضافة إلى أن الأتراك راحوا يهاجمونهم عند جدران «مازغران»، وقائدهم رغم الجهود المضنية التي قدمها، لم يستطيع توقيف الفوضى واللانظام وقد انقلب وديس من أقدام الفارين (مارمول ن.م).

(2) هذا ما استنتجناه من سرد مارمول، اليوم نفسه الذي وصل فيه الجيش الاسباني تحت جدران مستغانم، كان في استطاعته الاستلاء على المدينة بالقوة: وكتيبة من الحرس الأمامي كانت قد دخلت إلى الداخل وراء الفارين، وبوسط المدينة نصب العلم على الأسوار. والكونت راح يأمر بالانسحاب ومعاقبة الذين دخلوا إلى منتصف المدينة من دون أمره. وفي الغد يهاجم التجمع المحاذي ويحتله ولكن ليس من غير خسارة. وبعد الغد الجيش الجزائري يصل وكان عليه أن يحارب منسحبا.(مارمول. ن. م).

ثالثا

السنة المقبلة (1559) كانت هناك حربا مع ملك (العباس)[1]. أين كانت مواطنه بالجبال المتواجدة إلى الجنوب من بجاية وقد حصلت هذه الحرب بسبب أن لا هو ولا الذين خلفوه كانوا على طاعة وتسديد الأتاوات لملوك الجزائر مثلما فعل ملك "كوكو" جارهم وبعض الزعماء الآخرين. ومنها راح يظهر بالتعالي وهو يحتمي بالجبال الوعرة. أين راح يعيش بها مع أتباعه. إضافة إلى قيامه غالبا بحروبه مع الأعراب والأتراك وهو ينزل من جباله. ويستولي على كل ما لديهم. ولكونه كان كريما فإن بعض موالي الجزائر راحوا في خدمته. وهو يعطيهم رواتب محفزة يكسب بها رجال ذوي بنادق. علاوة على أن الكثير من المسيحيين الذين قبض عليهم في سباقات القرصنة كانوا يفرون من الجزائر ويأتون للاحتماء به. فيستقبلهم أحسن استقبال وهم يبدون نيتهم في أن يكونوا محمديين. فيزوّجهم ويثريهم وإن أرادوا البقاء على مسيحيتهم يترك لهم الحرية في ذلك لكونه سيستعملهم في حروبه.

وبهذه الطريقة حصل الملك على جيش كبير من المسلحين بالبنادق من موالي ومسيحيين. وبهذا الجيش المضاف إلى أتباعه كان يحدث الكثير من المآسي بالموريين والأتراك أنفسهم. وبها راح يبعث إليه بجيشين من الجزائر لصده ولكنه استطاع هزمهم وتقتيلهم جميعا. لدرجة أن الذي يتمكن منه يقطعه إلى نصفين ومنها يرسله بأيده مربوطتين إلى وراء ظهره وهو يفقد دمه يموت بالطريق.

وحسن باشا وهو يرى نفسه منتصرا بالمعركة الخالدة التي يربحها مع المسيحيين. يقرر إجراء حرب ضد هذا الملك وبالتالي الثأر لكل الهجمات التي حدثت سابقا. وهو يعتقد أن بالجزائر عدد كبير من الرهائن الذين قبض عليهم بمستغانم. يأمر برفع راية بمعتقله. والنداء في كل من يريد أن يكون حرا أن يعتنق الإسلام أن يشارك في هذه الحملة ضد ملك (بني عباس).

---

(1) يقصد هنا الكاتب بني عباس ... «المترجم».

والكثير من الأسبان يصبحون محمديين بهذه المناسبةويعطي لذلك بأن لا سماح لهم في ذلك إن هم قاتلوا مع الموريين، وكأنهم يقاتلون باسبانيا أو بلاد البربر لكن لشيء آخر.

وحسن يشكل جيشا من ستة آلاف من الذين يحاربون بالسهام والنبال وست مائة من الصبايحية. مع بعض المعتقين للإسلام والموالي والأتراك. وبالطريق التحق به أربعة آلاف فارس من الأعراب، ومع كل هذا الجمع ثمانية مدافع. ومنها أخذ طريقه إلى بجاية ومنها إلى بلاد (بني عباس). وفي شهر سبتمبرمن السنة المقبلة (1559) ملك (بني عباس) وهو يعلم وصوله ينزل من الجبال بأكثر من ستة آلاف من الفرسان وعشرة آلاف من المشاة وأكثر من رجل يحمل السهام والنبال. نصف من الموالي والنصف الآخر من المسيحيين من الذين استأجرهم وأتباعه الذين أصبحوا يستطيعون استعمال البنادق في غاراتهم على الأتراك.

وهجومه كان قويًا مما أحدث فوضى كبيرة بين صفوف الجزائر (إذ أنه كان رجل ذا قيمة). ولكنّه قتل بضربة نبل أصابته ببطنه وأتباعه راحوا يفرّون إلى الجبال، أين راحوا يختارون ملكا لهم وكان المختار واحد من إخوته، ومنها يقوم باتفاق تحالف بحالتي الدفاع والهجوم مع «حسن باشا» من دون إجبار على دفع الأتاوات وكان ما هو معهود به بعد وصول الملك الجديد إلى الجزائر العاصمة وملك (بني عباس) يقدم له هدية. وبعد عودة ملك الجزائر راح هذا الأخير يقدم سيفا جميلا ولباسا تركيا. وهذه العادة بقيت إلى اليوم.

وفي سنة (1580) ويوم 16 سبتمبر، أحد أبناء ملك (بني عباس) جاء في زيارة إلى الجزائر وهو يستقبل «جعفر» باشا الذي وصل من تركيا ويقدّم له هدية ثمينة تصل قيمتها إلى أكثر من ستة آلاف روبل (أي ألفان وأربع مائة أوقية ذهبية) وأربع مائة من الجمال وألف شاة.

رابعـــا

بعد هذا التصالح رجع «حسن» باشا إلى الجزائر ومنها راح يأخذ نصيبا من الراحة خلال فصل الشتاء كله وسنة (1560) كلها.

ويتزوج بعدها بواحدة من بنات ملك «كوكو» والتي كانت على جمال كبير وهو يرى نفسه يكنّ محبة وعزّة أبناء أخ القايد «اوشالي» (والذي يدعى علوش علي سكانداريزا) والذي كان صديقا له والقائد العام لجيوشه، راح يزوج هذا الشخص والذي يدعى القايد «حسن غريغو» بالأخت الكبرى لزوجته وابنة أخ ملك «كوكو»[1]. وحسن يرسل بموكب كبير من الفرسان الموريين والأتراك للإيتاء بهاته الأميرات. ومنها يستقبلن بحفاوة كبيرة بالجزائر العاصمة، ويحيي أفراح العرس باحتفالات كبيرة.

وبهذا التحالف مع ملك «كوكو» راح حسن يقدم من خلاله السماح للقبائل بالظهور بالجزائر العاصمة مع أسلحتهم الدفاعية والهجومية والذي لم يكن مسموحا بها إلى حد الساعة، ونظرا لكون موريو (كوكو) الذين يدعون على العموم بـ«ازواغ» (كما سبق وأن أشرنا إليه)[2]. كانوا على أعداد كبيرة ولم يكن همّهم في ذهابهم وإيابهم سوى شراء الأسلحة والتجوال بحرية بالجزائر، وكأن المدينة مدينتهم وهذا ما جلب شكوكا بالأتراك والموالي، وخشية من ملك «كوكو» و«حسن باشا» أن يتصالحان وهذا ما جعل هذا الأخير سيّدا على الجزائر وبالتالي يصبح على استقلالية من أوامر السلطان وهذه التخوفات راحت تزداد أكثر وخاصة بشهر سبتمبر (1561) أين أكثر من ست مائة موري من «أزواغ» كوكو يدخلون الجزائر العاصمة على هيئة قوات نظامية ومكوّنة من كتائب[3]. وأغا الانكشاريين

---

(1) ومن هذا نستنتج أن ملك كوكو تزوج أرملة أحد إخوته.

(2) كما هو موضح بكتاب الطوبوغرافيا الفصل التاسع.

(3) ما هو مؤكد أن حسن كان يريد الانفصال من جوق المليشيا، ولبلوغ هذا الهدف كان عليه أن يشكل جيشا من الموالي والقبائل. وهذه السياسة كانت متبعة من قبل الباشاوات الكبار إلى غاية وفاة «العلج علي». وكان الهدف منها هو ضمان أمن واستقرار السلطة، ولكن ولسوء الحظ كانت مخترقة دائما بتحديات الغيرة للباب العالي. وكان بعدها بزمن

أين نجد مهامه وواجباته أكثر قوة من أي أغا آخر، بأن يعطي دواء لكل داء وهو يجمع رئاسة الديوان (وهو ما يسمى بمجلس الانكشاريين).

راح يقـرّر بـأن يستدعي «حسـن باشـا» ويرغمـه بـأن يحـرم بيـع الأسـلحة لـ«الأزواغ» ومـوريـو "كوكـو" وأن الـذي لا يلتـزم بهـذا الأمـر سـوف تنالـه عقوبة الإعدام، سوى كان من الجزائيين أو غيرهم. وفي الأخير على كل القبائل الذين هم بالجزائر بأن يتركوا المكان في ظرف ساعتين. وكان أن خرج «الأزواغ» من الجزائر، وجاء الانكشاريون إلى القصر وأخذوا حسن وكبلوه بالحديد ووضعوه تحت الحراسة المشددة.

ومنهـا راحـوا يجتاحون وبسـرعة دار «وشـن» ودار صـهره القايد «حسـن» ويعتقلونهم ويكبلونهم بالحديد. ومنها راحوا يسلحون السفن الشراعية الستة والتي حملتهم هم الثلاثة مكبلين إلى السلطان مع نسخة لما قاموا به من أخطاء والشكوك التي راحوا يحترسون منها وقد حصل هذا نوفمبر (1561). وعلى هذا فحسن هنا. يكون قد حكم الجزائر لمدة أربع سنوات وأربعة اشهر اعتبارا من جوان (1557) إلى نهاية سبتمبر (1561)[1].

طويل عرف الباب العالي كم هو ليس من السهل أن تحكم بإنتظام وتتحمل وجود الانكشاريين.

(1) هذا التاريخ لم يكن بأي حال من الأحوال دقيقا وصحيحا، إذ أنه في رسالة مؤرخة من القسطنطينية ليوم 15 جويلية 1561 السيد دي بيتريمول راح يعلم «كاترينا دي مسيس» على طلب من الوزير الأكبر أن يوصي بالتحالف مع فرنسا السيد «أحمد باشا» القائد العام للجيوش للجزائر في مكان ابن بربروس، الذي راح يتهم بالخيانة للباب العالي .. وغيرها. (مفاوضات فرنسا بالمشرق، مج 2 ص. 664).

الفصل الثالث عشر

حسن أغا وكوسة محمد المرتبة الرابعة عشر

أولا

المتسببان في سجن ومواجهة حسن باشا كانا اثنان هما: أغا الإنكشاريين والذي يدعى حسن والقائد العام للجيوش أو القبطان العام للمليشيا الذي يدعى «كوسة محمد». وكلاهما كانا تركيان ومهامهما كانت هي المسيطرة بالجزائر بسلطة مطلقة.

كذلك بعد سجنهما من قبل المليشيا والأتراك الحاكمين للجزائر، وليس برتبة باشا أو ملك، ولكن بصفة خليفة أي بمعنى نائب الملك.

إذ لم يعرف بحكمهما أي شيء يوجب ذكره. وهذا لمدة خمسة أشهر من نهاية سبتمبر (1561) إلى غاية منتصف فيفري (1562)[1].

الفترة التي حكم فيها «أحمد باشا» بعد أن عيّن من السلطان الأعظم وابن بربروس ربما لأنه لم تكن هناك دعوة موجهة إليه بسبب الفعل الذي قام به (كما يروي ذلك الرأي العام). أو أنه عرف بسداده إقناع السلطان ببراءته. فراح السلطان يأمر الباشا الجديد بأن يرسل إلى القسطنطينية أعداء حسن باشا «حسن أغا» و«كوسة محمد» بغرض الاقتصاص منهم.

وبناء على هذه الأوامر، «أحمد باشا» يصل إلى الجزائر ويلقي عليهم القبض وبعد عشرين يوما يبعث بهم إلى السلطان مع السفن الشراعية التي أتى بها.

---

(1) انظر في هذه التواريخ المذكرة السابقة.

وهم يصلون إلى القسطنطينية، راحوا يدافعون عن أنفسهم دفاعا غير نافع لهما، ومنها تيقن حسن باشا أن السلطان اقتنع ببراءته، ويعطي الأمر بأن يقطع رأساهما.

حسن أغا كان من أصل بوسني[1]. يبلغ من العمر يوم قتله حوالي أثنين وأربعين من العمر، وهو طويل القامة اسمر البشرة ونحيل الجسم.

أما «كوسة محمد» فكان تركي الأصل وهذان الاثنان يطلق عليهما اسم «الذئبان» أو «القبيحان» كما هو معروف عنه أنه يتنقل كل عام بين تركيا والجزائر، كان عمره يوم موته خمسين سنة. ذو قامة متوسطة وقوي وضخم الجسم، كما كان له عينان كبيرتان. وأنف عريض ومنبسط وسحنة تميل إلى خضرة الزيتون.

---

(1) هناك خطأ لم ينتبه إليه الكاتب وقد ذكر قبل هذا أن حسن وشريكه تركيان ....المترجم».

الفصل الرابع عشر

أحمد باشا الملك الخامس عشر

أولا

أحمد باشا يستقبل استقبالا لائقا. والإنكشاريون والسكان يقومون باستقباله أحسن استقبال ويجتهدون في كسب كل رغباته لكونه المبجل الكبير للسلطان. ولكون أن العادة تكون في استقبال الملك الجديد بأن يقوم القيّاد والأثرياء الأساسيين بتقديم الهدايا. إضافة إلى هذا أحمد راح يستقبلهم بطواعية وفرحة كبيرة. وهم يظهرون له عطاء أكبر وهو يظهر لهم طمعه. وذلك ما هو صحيح. إذ يروى أنه في الفترة التي كان بها في خدمة السلطان كرئيس للعاملين بحدائق السلطان بسراي القسطنطينية (وهو على عهده الأول بالثروة) لا يجد وسيلة لتحصيل الثروة إلاّ ببيع الحشائش والزهور وثمار الحدائق، وقد أعطى الجزء الأكبر للسلطانة المفضلة «روزا»[1]. لتجعل منه حاكما للجزائر، وهو يجتهد في جمع ما أخذ منه، راح يسرع في جمع المال على قدر الإمكان من هذا الطرف أو ذاك لأنه لم يكن يشك في أن يبقى لفترة أطول بهذه المهمة، وذاك ما حصل، إذ في ظرف أربعة أشهر من الحكم راح يسلم روحه بشهر ماي لنفس سنة (1562)[2].

---

(1) السلطانة المفضلة كانت وقتها روكسلان.

(2) في رسالة من السيد بيترومول مؤرخة بالقسطنطينية يوم 8 - 16 جوان 1562 نقرأ: (هذا الصباح بالديوان، ابن بربروس سلم على يد السلطان الأعظم ليعيده إلى منصب القائد العام في مكان حسن أغا الذي مات. وعندما أراد المغادرة رحت لأقابله وإعطائه كما هو دائما السفن وأثاث الملك ..إلخ) مفاوضات فرنسا بالمشرق ،مج 2، ص، 697).

يموت من جراء مرضه بـ«القولون». ويدفن بمقبرة الملوك بقبة والتي كانت بالقرب من قبة يحي. إذ لم يمكث بالجزائر إلا من منتصف فيفري إلى غاية منتصف ماي من نفس السنة وكان يبلغ من العمر حوالي ستين سنة، وكل شعره أبيض، وقوي البنية طويل القامة وضخم الجثة واسمر اللون.

الفصل الخامس عشر

يحي الملك السادس عشر

أولا

عند وفاة الباشا «عماد»، «يحي» خليفته راح يحكم الى غاية وصول «حسن باشا» ابن بربروس بعد أكثر من أربعة أشهر، في سلام وهدوء تام من دون أن يكون هناك ما يلفت الانتباه طيلة هذه الفترة، وقد توفى كما قلنا سابقا سنة (1570) ويعود معه «اوشالي» بعد الاستيلاء على تونس.

الفصل السادس عشر

حسن باشا ملك للمرة الثالثة والسابعة عشر في الترتيب

أولا

الخدمات والإعجاب الذي صنعه بربروس، راح وعلى الدوام وبعد وفاته سببا في جعل ابنه « حسن باشا» يحظى من السلطان رغم العدد الكبير من الأعداء الحاقدين والخصوم وقوتهم. وقد جاء ليبرهن للمرة الثالثة على حيازته لثقة السلطان وحكمه للجزائر. وهو لم يفرح ومتهميه ينالون العقاب الكبير في هذه المناسبة التي كانت تترصد به اتهامات خطيرة ولكن أيضا، راح يسترجع الملوكية من السلطان. والتي جرّد منها لبعض الوقت. وهو يغادر القسطنطينية يرسل «بيالي باشا» أميرال البحرية لمرافقته إلى الجزائر مع عشر سفن شراعية من التي استولى عليها في معركة «غافالس» في سنة (1560) وهو أميرال الأسطول البحري[1]. وهو يصل إلى الجزائر بداية شهر سبتمبر (1562). وعودته الغير متوقعة أحدثت ارتياحا كبيرا لدى الجميع بما فيهم النساء أنفسهن. واللواتي رحنا بهذا البلد لا يخرجن. يصعدن إلى السطوح ليظهرن له الترحيب بأصواتهن المفرحة. ولأن العادة لدى استقبال الملك الجديد تحرس على إقامته لأيام بالقصر المحاذي للبحرية والذي تصله مدارج كبيرة من الحجارة بالبحر[2].

---

(1) في موضوع نكسة غالفاس انظر إلى تفاصيلها لدى مارمول الكتاب 6 الفصل 151).

(2) في سنة 1830 هاته المدارج كانت لا تزال موجودة. والقصر كان يقع بالمكان الحالي لثكنة لومارسيي. السيد ديفولكس في (مساجد ومؤسسات دينية لمدينة الجزائر) يتحدث عن هذا الإنشاء ومدارجه. ولكنه لم يكن قد تعرف عن موضعه الحقيقي. إذ بعدها وفي زمن الدايات، هذه البناية أصبحت ثكنة للإنكشاريين).

و«يحي» يغادر سريعا القصر المخصص للملوك ليترك له الحرية في النزول به. وحسن باشا وهو ينزل من البحر راح ينتقل إلى نفس القصر، مما يظهر لنا أن «أحمد عماد» لم يكن ملكا حقيقيا وهو نفسه لم يكن كذلك، ومنها وهو يقوم بهذه الإهانة للذي كان قد سبقه والذي كان قد أرسل حقيقة من طرف الملك.

وكان أول عمل قام به هو التهيؤ سريعا في تجميع المؤن الكثيرة، من البسكويت، والقذائف والذخائر وبعض العتاد الحربي، من دون أن يشعر أو يلفت انتباه أحد على رغبته في السير إلى وهران والمرسى الكبير.

وهو بذلك لم يكن يبحث عن الشرف في أخذ هاتان المدينتان ولكن أيضا (وهو ما علمنا من بعد). الانتقام من الإنكشاريين والعساكر الذين عاملوه بسوء كبير وشتموه. وهو يعرف جيدا أنه في هذه العملية الهامة والخطيرة سوف يكون له الكثير من القتلى وحقده سوف يكون على راحته.

ينطلق يوم 5 فيفري من السنة المقبلة (1563). بأكبر قوة من الجيش والتي لم يشكلها أي ملك للجزائر والكثير من الإنكشاريين والأتراك وموالي أندلسيين (أو موريو اسبانيا). إذ راح يجمع إلى غاية خمسة عشر ألف من الحاملين للبنادق وألف من الصبايحية على الجياد. وصهره ملك «كوكو» الذي أرسل إليه ألف من الفرسان منهم زعماء آخرين من المور، وبها يرتفع عدد الفرسان إلى عشرة آلاف رجل. ويرسل عبر البحر اثنان وثلاثين من السفن الشراعية والسفن الأخرى محملة بالمدافع والذخائر والمؤن وثلاثة «سياتي» أو سفن للنقل الفرنسية وبعض الوقود والكثير من البارود. وهو يصل إلى وهران راح يقرّر مهاجمة مرسى الكبير ليصبح سيّدا لهذا المرفأ الكبير، لكونه النقطة الهامة والأكثر تحصينا. ومنها يصلها يوم 3 أفريل ويحاصرها بعد أن راح يقصفها بالمدفعية ولمدة طويلة ومتواصلة وبهجمات شرسة. والمدينة كانت تحت قيادة «دون مارتان» القرطبي، ماركيز دي كورتيس الذي راح يدافع عنها جيدا وهو في ذلك قائد لوهران ومقاطعتها. ومنها راح يسقط من الأتراك الكثير من القتلى والمسيحيين المحاصرين. ويوم 7 من شهر جوان وبعد شهران وأربعة أيام من الاقتتال المفتوح راح يصل الأمير «أندري دوريا» والذي كان يسارع في

تجميع جيش كبير لحمله على نجدة وهران وهو يصل بسفنه الشراعية وسفن «نابولي» بأمر من نائب ملك «نابولي» «دون بيرافون دي ريبيرا»، (دوق القلعة)[1] والكثير من المشاة لنجدة هذه المدينة والأتراك وهم يرون هذه الجيوش، لم يكن في استطاعتهم انتظارها. والسفن الشراعية والسفن الأخرى التركية راحت تفرّ باتجاه الجزائر وحسن باشا يرفع معسكره ويحمل مدفعه ويأخذ طريقه عائدا من حيث أتى. ويصل إلى الجزائر يوم 24 جوان ولمدة طويلة المدينة لم يكن يسمع لها صدى إلا شكوى وعويل النساء اللواتي رحن يبكين أزواجهن وآباء يبكون أبناءهم[2].

بينما حسن لم يكن ليخفي غبطته وهو يرى الكثير من الذين نالوا منه وكانوا أعداء له.

---

(1) مشهد أراده الكاتب ليصور مقدار الخسارة التي لحقت حسن باشا وذلك ما لم نلحظه من الكاتب وستة آلاف جندي تساق رهائن من مستغانم إلى الجزائر العاصمة ..وما نلاحظه انه هناك بعض الذاتية للكاتب أو السيد المترجم بربرجار ....المترجم.

(قد يكون غير ذا جدوى من أن نلاحظ الدور الذي أعطي لحسن لم يكن مشكوكا فيه. بينما عدم انتصار الأتراك كما تؤكده رسالة السيد دي بواسطالي المؤرخة بشهر جوان 1563) (مفاوضات فرنسا بالمشرق مج 2 ص 736)، ومن طرف مارمول (الكتاب 5 الفصل 111) حسب هذا الأخير حسن كان قد أدار المعركة بشجاعة كبيرة والمدينة كانت في خطر كبير وهي على وشك السقوط عندما جاء دوريا لنجدتها).

(2) كان حاكما لبجاية سنة 1533، 1554، 1555 (انظر الوثائق الإسبانية المترجمة من طرف السيد دي. لا بريمويد (ذكرت من قبل).

ثانيا

وفي هذه السنة والتي تليها أي سنة (1564) راح حسن باشا يستريح وبها لم يحصل أي حدث بالجزائر. وفي شهر سبتمبر (1564) تصله رسائل سرية من السلطان والتي تعلمه أن السلطان قرر استخدام قوة كبيرة في الربيع المقبل للتوجه إلى «مالطا» ويأمره بأن يلتحق بكل الرياس مع القوات الممكنة التوفر وبناء على هذه التعليمات والشتاء يصل يروح يأمر القراصنة بالتهيؤ ووضع سفنهم على استعداد، من دون شرح، مستثنيا أن الملك الأعظم يريد منهم طاعة أوامره عندما يصدرها لهم.

وفي شهر مارس (1565) يتلقى رسائل أخرى من السلطان والذي يطلب منهم الانطلاق والسير إلى مالطا شهر ماي. والحاصل أنه في منتصفه راحت ثمانية وعشرين سفينة شراعية وسفن أخرى على أحسن تجهيز من مدافع وذخائر تمخر عباب البحر وهو يترك الباقي من السفن لحماية الجزائر.

والأسطول يحمل على ظهره ثلاثة آلاف رجل من العساكر القدامى وذوي التجربة والخبرة. والجميع كان على يقين بالكارثة التي سوف تحل بالأتراك في هذه الحرب. والجزائر العاصمة خصوصا كانت على يقين بذلك[1]. إذ لم يعد من القوة إلا نصف الثلاثة آلاف من الإنكشاريين الذين انطلقوا للمعركة، الآخرون بقوا للهجوم على حصن «سانت إلما»، لأن الأتراك وموالي الجزائر كانوا يعتبرون القوة الضاربة والأكثر طاعة من اللواتي بإمبرطوريته، و«مصطفى باشا» القائد العام للقوات البرية بهذه الحرب كان محل الكثير من الفرص الناكبة. وحسن يؤدي الخدمات الكبيرة طيلة مدة هذه الحملة ،إذ راح يحمله الأميرال «بيالي باشا» حماية الأرمادا[2].

(1) ونرى الكاتب يؤكد على الكارثة والجميع يعلم بها قبل وقوعها. وأنا أتساءل من الذي جر على هؤلاء للذهاب الى حيث يلقون حتفهم ،فهل هل هناك استخبارات محلية تعمل لفائدة الأطراف الأخرى ولا أحد انتبه إليها، ام خيانة من الوزن الثقيل مهدت لها...ذلك ما لم يوافينا به الكاتب ... ام الذين لم يقتلوا في حصار المرسى عليهم أن ينتفوا وهم يسببون همّ أكبر لكل المسيحية وفرنسا ادري بذلك ورسائل جواسيسها حاضرة ناطقة بالزواج والطلاق .... المترجم»).

(2) انظر فارتوت ،تاريخ الفرسان الكنسيين لسانت جون أورشليم (باريس 1726 الحجم 4 الفقرة 4). مج 3 .ص. 144 وما يليها.

وهذا الأخير يأمره على الدوام بالخروج من أجل حمايته واتخاذه موكبا حارسا له.

وفي النهاية ينهزم الأتراك من قبل المسيحيين بعد أن أرسل «دون غارسيا دي توليدا» القائد العام للقوات البحرية لملك اسبانيا ونائب ملك صقيلية، بالنجدة إلى مالطا وفرسانها الكنسيين تحت قيادة «دون آلفارو دي صاند»، و«آسكانيو دي لا كورنيا» و»شابان فيتيلو». والجيش التركي يجد نفسه مجبرا على الانسحاب وحسن يعود إلى الجزائر غير راض تماما وسفنه الثمانية والعشرين مع بداية أكتوبر سنة (1565)[1].

(1) هنا يتضح بوضوح أن القصد من الحملة هو قصم القوة المتنامية لحسن باشا ليس إلا وهو قد فر من فخ وضع له بالمرسى. يجد نفسه مساق إليه بعيدا عن مدينته ونحن نتساءل ما الذي دفع بالسلطان الأعظم إلى هذه النكسة وفرنسا حليفته تعرف ذلك ولم تنصحه، وتتركه يتمرغ لوحده بأرض بعيدة عنه ونحن لم نسمع بان أي سلطان قرر حربا بعيدة عن مقره والذي اخبرنا به الكاتب أو المترجم لأننا لا نملك النسخة الأصلية حتى نكون أوفياء في سردنا والجواب نجده لدى فرنسا من دون شك .... المترجم».

ثالثا

بعد هذه الأحداث راح حسن باشا يستريح إلى غاية (1567)، وفي بداية هذه السنة، ربما يوم 8 جانفي (هذا الشهر وشهر فيفري معرفان عادة ببرودتهما بالجزائر العاصمة).تصل ثمانية سفن شراعية والتي راحت تطلق طلقة مدفع كما سبق وأن قلنا بالواجهة التي عادة ما تستعملها السفن الآتية من القسطنطينية بأمر جديد من السلطان. وحسن باشا يرسل فرقاطة والتي تعلمه بأن هناك مستخلفا ومنها راح يغادر القصر الملكي، ويستقر بالقصر الذي يقيم به الملوك الذي يصلون لأول مرة، ويحمل معه كل أملاكه المنقولة.

ومع وصول الباشا الجديد، يسلمه حكم المدينة والمملكة. ويتهيأ سريعا للمغادرة إلى القسطنطينية.

وهذه المرة لم يكن يأمل في الرجوع إلى الجزائر، ويهدي الحمام الكبير الذي أنشأه لكل الملوك الذين جاءوا من بعده، والذين لازالوا ينتفعون من مداخيله (كما سبق وأن قلنا).

ومنها راح يسلّم للبايلك عدد كبير من الضباط المقبوض عليهم ومعلميّ الأشغال البحرية للتكوين البحري. ويوجد اليوم أيضا الكثير منهم من الذين يستخدمون لخدمة الدولة وتحت أوامر الميليشيا.(التي تتولى الشؤون الداخلية والتي سوف نتحدث عنها إلى البعيد من هنا)[1]. إذ لم يرفق معه ابنة ملك كوكو والتي هي امرأته والتي كان يعيش معها لفترة طويلة ،أين له منها طفل صغير آنذاك. ويغادر الجزائر في نهاية نفس شهر جانفي، ومنها راح يعيش لسنوات عديدة بتركيا ،و القسطنطينية تحت شرف وسمعة طيبة.

ويتوفى سنة (1570) ويدفن بالقبة التي صارت ضريحا له ولأبيه، وهي إلى مسافة خمسة أميال من القسطنطينية.

---

(1) بالطوبوغرافيا الفصل 19 - هنا نلاحظ أن هايدو وهو يستعمل كلمة: اليوم، علينا بقراءتها: من 1578 إلى 1581 الفترة التي كان بها مقبض عليه بالجزائر).

علاوة على أن له شاب أنجبته له ابنة ملك كوكو. إضافة إلى أنه ترك آخرا أكبر منه يدعى "محمد باي" والذي كان له من امرأة تركية من القسطنطينية. والبعض يدّعي أنّها امرأة مولاة كورسيكية جدّ جميلة.

و"محمد" هذا بعد وفاة "دراغوت" رايس والذي قتل بحصار مالطا راح يتزوج ابنته الوحيدة والوريثة الشرعية له.

وفي سنة (1571). عندما راح عظيم النمسا "دون خوان" يقوم بمعركة "نافارين". ويلتقي بسفينة شراعيّة جدّ مسلّحة للأسطول التركي. الماركيز "دي سانتا كروز" القائد العام للسفن الشراعية لـ"نابولي" جاء ليقطع عنه الممرّ. وقبل أن تسنح له الفرصة في الفرار. راح يقتحمه بسفنه. والجذافون المسيحيون للسفينة الشراعية لـ"محمد" والذين كانوا مضطهدين من قساوته راحوا ينقضون عليه وهو بمؤخرة السفينة قبل أن تتمكن قوات الماركيز من الاستيلاء على السفينة. راح الجذافون يقتلونه ويقطعونه إلى قطع بالمساند[1].

حسن باشا وهو ينهي فترة حكمه التي دامت لخمس سنوات. كان له من العمر واحد وخمسين سنة. وقد توفى وسنّه يبلغ الخامسة والخمسين من العمر. كان قصير القامة. ثخن الجسم. وقد بقي هكذا رغم الكثير من العناية والرعاية بنفسه. سحنته كانت جد بيضاء. له عينان كبيرتان وحواجب كثيفة كأبيه. ولحية جدّ سوداء تتموّج على وجهه ببهاء. كان يتقن عدة لغات وكأن كل لسان هو لسانه الذي ولد ونشأ به. وخاصة عندما يتحدث إليك بالاسبانية. يعتقد الجميع أنه ولد بإسبانيا. وقد كان متحررا جدا وذا شعبية والتي أكسبته شهرة كبيرة. والكل من الذين يحيطون به

(1) سيرفانتاس يسرد نفس القصة. ويقول أن الجذافين راحوا يقطعونه بأسنانهم. وهم مربوطين الى مقاعدهم وهم يملكون أسلحة).

(هنا نقف لنظهر للقارئ بعض الأخطاء. لم ينتبه إليها الكاتب ... وهو يقول أن السفينة جد مجهزة وقوية بتسليحها. والجذافين مربوطين إلى مقاعدهم بالسلاسل. فكيف بهم وهم يقطعونه اربا اربا؟! وهل رجال المدفعية. هربوا سباحة حتى يبقى وحده بالمؤخرة .... أم أن الأمر تم بغير ما روي وقيل ...ذلك ما نشك في روايته .....المترجم").

يكنون له محبة ووفاء. والقسم الأكبر من القياد والموالي من الذين لازالوا بالجزائر كانوا ضمن حاشيته وأسرته.

الفصل السابع عشر

محمد باشا الملك الثامن عشر

أولا

وخليفة حسن كان «محمد باشا» ابن «صالح رايس» الذي في السابق مالك على الجزائر كما سبق وأن قلنا. يصل إلى الجزائر بداية جانفي (1567) بمعية ثمانية سفن شراعية ،إذ لم يحكم إلا سنة واحدة وشهرين في الفترة التي حلت بالجزائر مجاعة كبيرة، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها بعنايته. وكان رجلا عادلا. ولكون قبل مجيئه كان هناك الكثير من اللصوص الموريين الذين يقطعون الطرق، راح يتابعهم بهمة ولفترة قصيرة تمكن من توقيفهم أو أنهم افتقدوا. ولا يمرّ يوما أو يومان إلا وتراهم من على الجدران أو إلى فتحات الأسوار، أين كان يقوم بالإعدامات، وها هي قد أصبحت غير مشغولة من طرفهم، وهو ينظر إلى رعيته ويقول «لماذا لم تتغذى الجدران اليوم؟»

وسرعان ما يعلم أن هناك محكوم عليه بالإعدام بالسجن، فيأمر بشنقه وتعليقه في نفس اللحظة.

وكان هاو لصيد الصقور والنسور واالغرانيق، والتي يتشاءم منها عادة الأتراك، ولهذا الغرض كان يقوم بتربية الكثير من الطيور والكلاب والذين يذهب بهم إلى بوادي العاصمة وجبالها في كل يوم، فيصطاد الكثير من الأرانب والحجل والسماين والحمام وفراخ اليمام والخنازير التي تتوفر بكثرة بالبلد والتي لا تؤذى ولا تصطاد.

وكان أول ملك يصالح بين الميليشيا والمشارقة والبحارة. ويأمر القراصنة بأن يؤدوا سباقاتهم كما كانوا يؤدونها من قبل بسفنهم كالعساكر والمشارقة سوى كانوا أتراك أو موالي. ولهم الحق في أن يكونوا انكشاريين حسب طلبهم وبهذه الطريقة وضع حد للنزاع الذي خيّم كثيرا على الجزائر بين الطرفين (ومن الصحيح أن نقول أنه خفف لوقت ما بين التنافس والتنازع ولكن النزاع سوف لن يتوانى في النهوض لكي لا يتوقف بعدها أبدا ...).

وكان أول ملك راح يواصل فكرة تحصين مدينة الجزائر. أين نجد وضعية الأرض ضعيفة. وعلى هذا راح منذ الأشهر الأولى لحكمه وهو يستخدم أحد الموالي الصقليين يدعى «مصطفى» والذي سبق وأن حصن مرفأ «حلق الوادي».

إذ أقام له أسس مشروع والذي يسمى الآن باسم برج «محمد باشا» يقع إلى الخارج من المدينة عند مدخل جبل إلى مسافة خمس مائة خطوة من القصبة وفي موضع جد هام. وقد أعطينا له وصفا جدّ مفصل بـ«طوبوغرافيا أو وصف لمدينة الجزائر» والذي نقدمه إلى القارئ[1].

وطيلة سنة حكمه. لم تكن هناك حروب. ولكن بحلول شهر ماي (1567). سكان مدينة قسنطينة راحوا ينتفضون ضد موقع القايد التركي وقتلوا منهم أربعة أو خمسة. والأخبار التي راحت تسري تفيد أن المورين اغتنموا هذه الفرصة. لأن القايد كان يريد انتهاك عرض أحد البنات الجدّ جميلات من جنسهم.

و«محمد باشا» راح بنفسه ينتقل إلى قسنطينة لمعاقبة السكان عن ثورتهم واصطياد القايد. وبهذا يضعهم جميعا في المزاد العلني. رجالا ونساء

---

(1) طوبوغرافيا، الفصل 9 - حصن الأربع والعشرين ساعة كان أيضا قد انشئ من طرفه وهذا ما تشهد عليه كتابة تركية محفوظة بمتحف الجزائر العاصمة تحت رقم 29. السيدان بربرجار وديفولكس بحثوا بوسائل وحجج أقل أو أكثر قيمة. على أن هذا الحصن كان قد انشئ من العلج علي. وهذه التساهلات كانت قد وضعت لأغراض قضية والتي لا نهتم هنا لمهاجمتها أو الدفاع عنها. ولكن حتى يكون هناك مبرر يثبت العكس والذي نراه يقدم بعد (الكتابة تحفظ للتاريخ). هنا نرى دي غرامون رجل تاريخ لا يريد أن يقدم أشياء على أسس ليست لها قواعد وهذا شيء يحسب له ... المترجم»).

وأطفالا ويحجز كل ممتلكاتهم. ولكن البعض من الموريين استطاع الفرار إلى طرابلس برّا ومنها مرورا إلى تركيا والقسطنطينية، أين راحوا يشتكون السلطان. وهذا الأخير يأمره بإعادة حريتهم ومساكنهم وأملاكهم، ولمعاقبة محمد باشا قام في بداية السنة باستخلافه ب»اوشالي». والذي أصبح فيما بعد أميراله الكبير. و»اوشالي» يصل إلى الجزائر مع بداية مارس (1568).

محمد باشا كان قد حكم لسنة وشهرين، وقد كان عمره في تلك الفترة خمس وثلاثين سنة، كان ذا قامة معتدلة ومتوسط الثخن، وسحنة بيضاء ،ولا يرى جيّدا وبعدها في سنة (1571)، عندما هزم التابع للملك «دون خوان «النمسا الأسطول التركي، كان قد ألقيّ القبض فيها على «محمد باشا» مع العديد من الأتراك من دون تفرقة، وبعدها بسنوات أرسل من طرف «دون خوان» إلى البابا «بي الخامس» بروما مع أولاد الباشا وسجناء آخرين راح يطلق سراحهم في تبادل للأسرى لتابع الملك «غابريال سيبرلوني « وفرسان كنسيين آخرين أخذوا عنوة من حصن تونس سنة (1574).

الفصل الثامن عشر

اوشالي باشا الملك التاسع عشر

أولا

هو واحد من عصرنا والذي حسب التعبير الشاعري أمدّته الأقدار بما يشبع نهم وقوة رغباته، وهو «علج علي» والذي نطلق عليه انتقاصا اسم «اوشالي». و«علج» تعني باللسان الموريسكي الموري الجديد أو المعتنق حديثا للإسلام أو المولى، وهو ليس اسم بل هو لقب يدعى به.

والاسم الحقيقي هو «علي» و«علج علي» تترجم إذا بـ: «المولى علي» واليوم يسمى «علي باشا» باختصار علج ولكن ونحن نقلد ما هو شائع حسب نصيحة «أرسطو»، فنسميه «اوشالي»[1] كان قد ولد بمملكة «نابولي» بـ«ليكاستيلي» وهو تجمع سكاني بمقاطعة «كلابري» إلى القريب من رأس «دي كولون»، من أبوين فقيرين وبائسين، ومنذ طفولته راح يحترف مهنة الصيد وقيادة السفن إلى غاية اللحظة التي أختطف فيها من طرف القرصان الشهير المسمى «علي أحمد» وهو مولى إغريقي الأصل والذي كان لمدة طويلة أميرال الجزائر. وعندما كبر وبلغ سن الرجولة راح يعمل بمصلحة البحرية. و«علي أحمد» يضعه على قيادة سفينته، أين راح يقودها لسنوات، كان أصلع الرأس بالتمام وهذا ما سبب له الكثير من النكران من المسيحيين الآخرين، والذين راحوا يمنعونه من الأكل معهم والجلوس على نفس المقعد معهم وراحوا يدعونه

---

(1) (هو الاسم الأكثر اختلافا عبر كل تاريخ هذه الفترة، ويكتب أيضا اوشلي ،ليسيولي، ليسيالي، لسيوني إلخ. ولكن الاستعمال أوجب لنا كتابة ذلك تحت هذا الشكل العلج علي بعد معركة دي ليبانت، إذ اطلق عليه لقب الشهير «كيليجي» (السيف).

بـ«الفرطاس». وهي كلمة تركية تعني الأصلع. وفي الأخير كان هناك جندي مشرقي راح يعطيه نفخا كبيرا، إذ جعل منه تركي ومولى ليستطيع القدرة على الثأر. وهو الشيء الذي لا يستطيع فعله وهو باق على مسيحيته.

والتركي سيده كان يعلم هذا ويعرف أنه بحار ممتاز يعينه فيما بعد كقرصان. وبهذا المركز الذي وصل إليه راح يربح كمية كبيرة وبسرعة من النقود وبها وبمرافقته لبعض القراصنة راح يسلح فرقاطة بالجزائر العاصمة وبها راح يواصل قرصنته ويتوصل إلى امتلاك سفينة ويصبح واحد من أهم الرياس بالجزائر.

وبعدها يلتحق مع سفينته بـ «دراغوت» رايس والذي كان يقيم بجزر «غالفاس» والذي جعل من نفسه سيد ببلاد البربر، ومنها راح يقدّم له خدمات جليلة.

وعندما قام في سنة (1560) دوق «دي مدينة - سيلي» نائب ملك صقلية بمحاولة أخذ جزر «غالفاس» من «دراغوت» هذا الأخير وهو يخطر بمجيء الأسطول المسيحي. راح طيلة الشتاء والبعض من فصل الربيع بـ«سيكاروس» ومالطا، يرسل بسرعة كبيرة بـ«اوشالي» إلى القسطنطينية لطلب النجدة من الأسطول التركي. ومنها راح يفاوض بذكاء، مما جعل السلطان يقتنع بإرسال أميراله الكبير «بيالي» باشا بمعية مائة سفينة وجيش كبير.

وهو يصل إلى القريب من عشرين ميل من «غالفاس» راح «بيالي» يتخوّف من مهاجمة الأسطول المسيحي. وكان أن جعل «اوشالي» وهو يستطيع إقناع «بيالي» بمهاجمة الأسطول المسيحي ويفلح في تحقيق نصر له، أين استولى على العدد الأكبر من السفن الشراعية المسيحية. وكان قد نجا دوق «دي مدينة» و«جون -أندري دوريا» فرارا مع بقية السفن الأخرى.

والأتراك يستولون بعدها على الحصن الذي أنشأه المسيحيون على جزر «غالفاس». وألقوا القبض على الجنرال «دون ألفارو دي ساند، دون كاستون» ابن «دوق دي لا سيردا»، «دون بيرانجي»، جنرال السفن الشراعية لـ«صقلية»، «دون سانشي دي ليفا»، وجنرال «نابولي» مع أكثر من عشرة

آلاف اسباني وجند قدامى ذوي قيمة، من ضمنهم قبطان وضباط «آلفاريس» وكلهم أشخاص مهمين[1].

ومنذ تلك الفترة راحت شهرة «اوشالي» تتزايد باضطراد و«بيالي» يحفه برعاية خاصة وبعدها راح إلى حرب مالطا سنة (1565) برفقة «دراغوت» الذي قتل في الهجوم على «سانت إلما» بتفجر صخر على رأسه[2].

و«بيالي» وهو على رتبة قبطان باشا البحر والمواقع البحرية يعيّن «اوشالي» والذي يودّه كثيرا ملكا وحاكما لطرابلس مستخلفا «دراغوت» الذي راح يأمره في تأبينه.

اوشالي يغادر مالطا بمعية ثلاث سفن شراعية ومنها يصل إلى طرابلس ويستولي على البنايات والذخائر والبضائع والسلع والكنوز والعبيد وأملاك الذين سبقوه ويحكم طرابلس لسنتين ونصف أين أصبح بها أكثر ثراء وله مواريث أخرى عديدة من التي جمعها وكدّسها بواسطة سباقاته الدائمة ببحار صقلية[3] وكلابري ونابولي.

---

(1) في موضوع استعادة جزر «غالفيس» انظر مفاوضات فرنسا بالمشرق (مج 2 .ص. 610، 616 إلخ) .دون آلفارو دي ساند ودون سونش دي ليفا يقتادون إلى القسطنطينية ويتحصلون على حريتهم سنة 1562. كانوا قد أقيموا لدى سفير فرنسا، والذي راح يعطي عنهم تفاصيل أكثر غرابة: «آلفارو دي ساند وسانشي دي ليفا كانا يبديان حقد أكثر مما يبدون إخوة بينهم وكان أن عوملا على طاولات مختلفة «(ن. م. ص.705) حسب تهو (التاريخ العالمي مج 3. ص. 591 وما يليها). دوريا فقد في هذه الحملة الكثير من سفنه القوية وحتى سفينته أيضا.

(2) تهيو يروي لنا هجوم مالطا الذي جاء بناء على نصيحة من دراغوت وحسن ابن خير الدين والذين اظهروا له قيمتها للسلطان. والعلج علي والذي لوحظ بشجاعته، حسب نفس المؤرخ ،حسن اعترض على رفع الحصار وهو يسير ويقود الهجوم ويتقدم إلى الواجهة بإنكشارييه. والأميرال بيالي باشا راح يعارض، وهو يقول أنه قد فقد الكثير بلا جدوى. (التاريخ العالمي مج 5. ص. 50، 71، 87 وغيرها).

(3) وهنا المؤرخ كان مستعلما جيدا لما حصل. فثورة مور اسبانيا التي راحت تنطلق بعد الأسبوع المقدس. كانت قد اكتشفت قبل أيام بجسارة أحد القواد الرئيسيين والذي استطاع الإمساك بمخزن من الأسلحة التي كانت مهيأة لمدة طويلة. ولكن هنا هايدو يخطأ الخطأ الكبير، وهو الدور الذي سيلعبه العلج علي، والذي يظهره لنا غير متحمس لقضية إخوانه في العقيدة. إذ راح على العكس يجمع أربعة عشر رجل حامل للنبال وستين

وها هو العارف لأساليبه، يستعمل الكثير من حيله لجعل السلطان يقرر تنحية محمد باشا لسوء تصرفه بعد أن صار له واضحا من سوء معاملته لموري قسنطينة ويرسل «اوشالي» ليخلف مكانه بالجزائر.

ويصل كما سبق وأن قلنا في بداية مارس (1568). وفي هذه اللحظة كانت حرب «غرناطة» العنيفة.

موريو هذه المقاطعة راحوا يثورون ويطلبون من «اوشالي» النجدة برسائل وبرقيات. وهذا الأخير راح يقتنع بأن سمح لبعض القراصنة والأتراك أن يلقوا بحتفهم وهلاكهم، ولكنه لم يرسل لا النجدات النظامية ولا القوات.

وهو يرى أن من الحكمة أن يسهر على حفظ الجزائر العاصمة ومملكته أمامه ومنها راح يفرغ بالجزائر الكثير من السهام والنبال وأسلحة أخرى ليرسلها إلى مملكة غرناطة وبيعها للموريين. وكان الوسطاء الرسميين لهذه التجارة هم الموريون الأصليون لأسبانيا والذين كانوا التجئوا في السابق إلى الجزائر وبلاد البربر. و«اوشالي» راح يمنع عنهم هذه التجارة، وهو بذلك لا يريد أن يجعل من الجزائر منقوصة من السلاح الضروري.

ألف من المور. ويرسل بأربع مائة جمل محملة بالبارود إلى مازغران ليقوم بمحاولة مخادعة على وهران وإنزال بسواحل اسبانيا (رسالة من السيد فوكفو نهاية مارس 1568، رسائل اسبانيا ،هارلاي) والأربعاء المقدسة. يرسل أربعين سفينة إلى الأمام من العامرية في انتظار إشارة الانتصار غرناطة لثورة. ولكن المؤامرة اكتشفت والعملية لم تنجح.

هذه الخسارة لم تفقده شجاعته. ففي شهر جانفي 1559 ست سفن شراعية يغادرن الجزائر إلى القريب من العامرية بالمدافع والذخائر والأسلحة والعدد واثنان وثلاثين من السفينة الشراعية محملة بالجند راحت تعبث بها عاصفة في الوقت الذي كانوا فيه باللحظة الثمينة للثورة والتي انطلقت بكل قواها. وفي شهر أكتوبر من نفس السنة، راحت الجزائر العاصمة تبعث للمنتفضين بربعة آلاف رجل يحملون النبال والذخائر ويرسلون إليهم ببعض الإنكشاريين القدامى ليكونون قواد لهم.

ومع بداية سنة 1570 كانت هناك دفعات من الأسلحة والقوات العسكرية، والعلج علي راح ينتقل بنفسه، إلا أن «دون خوان» النمسا منعه من البدء في حملته وكان عليه أن ينهي معركة دي ليبانت (انظر مفاوضات فرنسا بالمشرق مج. 3. ص.26، 28، 32، 42، 46، 94، 129 إلخ). إضافة إلى أن سفير الموروسكيين الذي يدعى بارتال من مدينة ناريلا، راح يقوم بسفريتين إلى الجزائر، أين سحب معه عائلته عندما رأى أن كل أمل قد فقد. (دب تهيو، التاريخ العالمي مج 6. ص. 80).

إذ لم يقرر لهم إلا ما هو للضرورة بهم. أي على كل واحد يملك نوعين اثنين من السلاح أن يتفضل بإرسال واحد منهما إلى موريي «غرناطة» وليس هذا إلا لوجه الله وطاعة لرسوله وليس بيعا.

وأمر بجمع كل السلاح بمسجد صغير والذي يتواجد بسوق البقالين على كل من أراد ذلك. وكان أن جمعت كمية كبيرة اندهش لها الجميع وهم يظهرون كرمهم لهذه القضية الخيرية والمقدسة[1].

للموريين من أصل اسباني، و»اوشالي» راح يحتفظ بالبعض منها للبايلك بمركز إنشاء السفن للمدينة، و يترك الباقي يتجه إلى وجهته. وفي هذه السنة نفسها (1568). بدأ في إنشاء برج إلى الخارج من «باب الواد» كنقطة دفاع للجهة الغربية في حالة حصول اعتداء من الأسطول المسيحي على هذه الناحية، وحتى يمنعهم من النزول على شاطئ صغير مؤكد النزول به والذي هو اقرب من هذه النقطة. وقد وصفنا بدقة التحصين وشكل القص بكتاب «الطوبوغرافيا» أو «وصف الجزائر».

(1) (ما هو معروف والكاتب وهو يستعمل هذه الصفات، يقف بجانب نظرة الجزائريين).

ثانيا

في السنة الموالية (1569) «اوشالي» يفتح للسلطان عاصمة مملكة تونس على النحو التالي: «مولاي حسن»و الذي أعاده له الأمبرطور مملكته سنة (1535) بعد أن طرد منها بربروس. كان له ابن يدعى «حميدة» والذي قام بثورة على أبيه الغائب مساعدا من قبل قسم كبير من السكان والأب كان بـ«نابولي» ليتحادث مع الأمبرطور ويأتيه خبر ما حصل، فيأتي بألف وست مائة من المسيحيين وكانت الأغلبية على حسابه الخاص والقسم الآخر على حساب «دون بيدرو» دي توليدا نائب الملك «نابولي» من أجل استرجاع مملكته التي أخذها منه ابنه المتمرد إذ لم يكن في استطاعته استرجاعها ويهزم بفقدانه لكل جيشه، ويسقط بين يدي ابنه والذي راح يفقئ له عينيه.

ولعدة سنوات راح «حميدة» ينتقم قتلا بأتباع أبيه والذين لم يكن في استطاعتهم تحمّل استبداده ولا استبداد وزرائه المنحطين أكثر من «حميدة» (الاستعمال كان للحط من شرفه ونبله) راحوا يرفعون من كرامتهم بأن راحوا يراسلون ولمرات عديدة «اوشالي»، وهو يصبح ملكا على الجزائر ويطلبون منه المجيء إلى تونس ويعدونه بأن يقدموا له المملكة والمدينة.

والثلاث الأساسيون الذين قدموا هذه المقترحات كانوا: «بن جبارة» قايد الفرسان الذي راح في سريّة ينتفض ضد الملك. والقايد «بوالطيب» والقايد «عبد القادر».

و«اوشالي» راح يتخلف في المجيء، وكانوا قد قرروا بداية (1569) إعادة طلبهم ويترجونه في الإلحاح على المجيء وأنهم سوف يكونون عند رغبته. وهذا ما جعله يقرر قطعا ما طلبوا منه. وينطلق في شهر أكتوبر (1669) تاركا كمساعد له المولى الكورسيكي رئيس ديوانه الذي يدعى «مامي - قورصو».

إذ لم يرسل أسطوله، بل راح يسير برّا بمعية خمسة آلاف تركي وموالي كلهم يحملون بنادق. وهم يمرون بعنابة وقسنطينة أين جمعوا ثلاث مائة وعلى طول خط سيرهم التحقت بهم ستة آلاف من الفرسان الموريين وأتباع

الملك كوكو وملك «بني عباس» والبعض من الزعماء. وعشرة قطع لمدفعية مركبة على جرارات. وبهذه القوة يصل إلى مدينة «باجة» والتي هي إلى أقل من يومين سيرا إلى الأمام من تونس. الملك «حميدة» يتقدم إلى هذا المكان ومعه حوالي ثلاثين ألف من الموريين المشاة والفرسان. وما أن بدأت المعركة والقيّاد الثلاثة الذين تحدثنا عنهم والمتآمرين معهم في السابق يجنحون إلى جيش «اوشالي» كما وعدوه. ومنها راح «حميدة» ينسحب وهو يرى خيانة أتباعه ويدخل تونس من دون أن تحدث له خسائر، معتقدا أن معسكر المدينة يستطع أن يساعده على الدفاع.

و«اوشالي» يصل ويروح يتبعه على مسافة ميلين من تونس. وبـ «باردو» أو حديقة الملك ويتوقف مع الكل. ينتظر ما التونسيين قادمون على فعله. وهؤلاء كانوا على ضغينة وكراهية لحكم ملكهم. وهم على ما نقول من جنس ليس به أمان. يرغبون ويريدون التغيّير راحوا يمرّون رويدا رويدا إلى جانب المنتصر.

«حميدة» وهو يرى هذا، لم يعد يعرف ما العمل؟ ويأخذ زوجتيه وبنيه والدراهم التي أمكن حملها مع الكثير من الجواهر والأثاث ويتجه إلى «حلق الوادي» بمعية خمسة عشر خادما أو صديقا.

وعند سماع هذا الخبر البعض من الموريين راحوا يطلبونه وينهبون الكثير من الحمولة التي ذهب بها. ومنها يحتمي بـ «حلق الوادي» مع أصدقائه وزوجاته وأبنائه وما استطاع تهريبه من الكنوز.

و«اوشالي» يستعلم هروب «حميدة» يسير إلى تونس مع جيشه ويدخلها نهاية ديسمبر (1569).

ومنها يصبح مطاعا من الجميع. وتقدم له كل الاحتياجات والرغبات. ويعيّن بالمهام الرئيسية الوجهاء والقيّاد الذين كانوا سببا في مجيئه والتحاقهم به.

وأعراب البوادي جاءوا يقدّمون له ولاءهم. و«اوشالي» يستقبلهم على طواعية ويبدي لهم وجها حسنا ولكن بعد أيام قلائل، راح يطلب منهم أداء الأتاوات لكونها الطريقة الوحيدة للحفاظ على المملكة. والمدينة وموقع الأتراك

الذين كانت لهم رغبة في تركهم. والأعراب يردّون بحرية تامة إذا أراد الأتاوات فعليه إن يخرج إلى السهل بنباله ومنها سوف يسدّدون وليس كما يعتقد، والمسألة توقفت هنا. و«اوشالي» يقضي كل فصل الشتاء بتونس، مهدئا وضع المملكة ويخضع أغلب المدن ومقاطعاتها. وفي شهر فيفري من السنة المقبلة (1570)، راح يندب للحكم أحد الموالي السردنيين والذي كان يتمتع بعقل راجح والمدعو القايد «رمضان» ويسمى «بيغليار باي» وهو مولى نابولتاني وفي نفس الوقت «رمضان» يعين القايد«محمد»، ويبدأ في السير عائدا نهاية الشهر ويصل إلى الجزائر منتصف أفريل (1570).

ثالثا

وقبل مدة من عودة «اوشالي» إلى الجزائر، كان قد أرسل بأحد الموريين والذي كان عبدا زنجيا عداء جيد والذي كان أسرع من البريد يدعى «بك» لغرض إعلام الرياس ووضع سفنهم الشراعية وسفنهم الأخرى حتى تكون على أهبة الاستعداد وكلها مصانة ومهيأة حال وصوله. ويبلغ رئيس ديوانه «مامي قورصو» والذي تركه بالجزائر كخليفة له (كما قلنا سابقا) بتسليح سفينة شراعية للتمويه والتي سبق وأن صنعها. بحيث وهو يصل إلى الجزائر بعد شهر ونصف من الأتعاب، يغادر الجزائر في شهر جوان على ظهر السفينة المموّهة ذات الثمانية عشر مقعدا ويتجه إلى الشرق بمعية ثلاث وعشرين سفينة أخرى من الحجم الكبير في غاية التموين ولائقة للجميع و كان غرضه هو الذهاب بموكبه إلى القسطنطينية من أجل أن يطلب من السلطان مدّه بأسطول مسلح للاستيلاء على «حلق الوادي». وهو يعتقد أن الأتراك لن يصبحوا أسيادا حقيقة على تونس العاصمة مادام المسيحيين بهذا الحصن وهو يصل إلى الأمام من رأس «باسارو» بصقيلية. يعلمه أحد الشبان الصغار المقبوض عليه من سفنه الشراعية أن أربع سفن مالطية تتواجد بـ«ليكاتا» وهي مدينة بحرية على ساحل «صقيلية» لتمر من هنا إلى مالطا[1].

ولهذا الخبر راح «اوشالي» يأمر كل سفنه بأن تأخذ عرض البحر بطريقة لا يمكن بها كشف أمره، وانتظار هذه السفن الشراعية بالقناة الرابطة بين مالطا وصقيلية، وحدث ما كان والأربع والعشرين من السفن تطوي أشرعتها، وتبحر بالمجاديف وهي تنتظر السفن الشراعية المالطية

---

(1) هنا نجد أنفسنا أمام مسرحية غير مكتملة الفصول ومنتقصة من الكثير من الحبك والخيال. و الأمر قد ركب على زيارة يقوم بها اوشالي إلى القسطنطينية وهل يحتاج طلب المساعدة كل هذا الإجراء وهو عائد من حملة مضنية ،يتحرك إلى الشرق وهذا ما لم يحدث إطلاقا بهذه الصورة، ولكن خيال الكاتب ذهب إلى أشياء غاص بها ولم يستطيع الخروج منها وهو يحاول تدارك التناقض ولكنه لا يجد سبيلا. والسفن تعترض والأسرى لا وجود لهم وسفينة تنجو والأخيرتان تنجوان ولكن تغرقان، فهل يجب أن ننظر إلى التي نجت ام تلك التي غرقت والسفن الجزائرية تستطيع أن توقف كل حركة لهم الأربع ويستسلموا جميعهم ولكن ذلك لن يحصل ولن يزيد الكاتب في الماعية لـ«اوشالي» وينقله من محارب كبير إلى فار وهذا شيء لا يستساغ ... والحقيقة أن هناك شكوك في الحملة ذاتها أن لم تكن حصلت بطريقة أخرى تسيء للمسيحية .... ولنا عودة ...المترجم»).

وعندما تراءوا لبعضهم، راحوا ينطلقون بسرعة. والفرسان الذين وجدوا أنفسهم مهاجمين من طرف عدد كبير من السفن راحوا يتشاورون ويأخذون بآراء مختلفة، البعض كان يريد المجيء إليهم وهم يقولون أن الله سيعينهم وآخرون كانوا على العكس راحوا من دون انتظار يبحثون عن وسيلة يهربون بها من هؤلاء. وجنرال هذه السفن كان على هذا الرأي الأخير والثلاث سفن فرّت نحو صقيلية. وواحدة منهم فقط تدعى «سانتا - آنا» راحت تأخذ رأسا برأس الأتراك ومنها هوجمت بأربعة من السفن والتي راحت تقاتل بشراسة لمدة ساعتين وبعدها استولي عليها. وكل الفرسان كانوا بين جريح وقتيل. ومن الثلاث اللواتي هربت وعادت إلى رأس «باسارو» وهي بطريقها تستولي على زورق تركي وحيث أنها وهي هكذا تمرّ بالقرب منها صدفة سفينة مسيحية كانت متجهة إلى كورسيكا، فانضمتا إلى بعضهما وراحتا في مجابهة اثنتان من الزوارق التركية والتي استولتا عليهما. ومن السفينتين الأخيرتين، واحدة لم تفلح في الهروب وقد غرقت بالقرب من «ليكاتا» والأخرى إلى القريب من حصن كان على الشاطئ. وهؤلاء الفرسان الكنسيين من أجل ألاّ يستولي الأتراك على سفنهم راحوا يقتنعون بتخريبهم وإغراقهم والمغادرة بزورق. وكان عليهم أن يستطيعوا فعل ذلك، لكن الجنرال[1] الذي اعترض وهو على اليابسة أنه يستطيع منع الأتراك من الاستيلاء على السفن. ولكن ما حصل هو العكس ويستولون على السفينتين الأخيرتين مع زورق كبير للأتراك والموريين. والكثير من العتاد وكمية كبيرة من الغنائم التي يحملونها والكثير من قال أن هذه سوف تعود عليهم بتكاليف غالية. إذ أن «اوشالي» غيّر من رأيه بعد هذه الحادثة ولم يتقدم إلى الأمام ويعود إلى الجزائر أين راح يدخلها يوم 20 جويلية 1570 بسفنه وكلها على تمام الهيئة، تجر من ورائها السفن المالطية وتخليدا لهذه الذكرى، راح يعلّق أمام «باب البحرية» الكثير من الخرص والحبال التي وجدت بالثلاث سفن شراعية والصلائب البيضاء لمالطا والتي زينت بها حسب عادة الفرسان في أوقات الحرب، وهاته الغنائم لا زالت إلى الآن (سنة 1578-1581) بنفس المكان .ثم وضعت بوسط نصب «دي سانت جان - بابتيست» الذي يزيّن السفينة القائدة .ولكن في سنة(1578) «حسن باشا» المولى

(1) كان قائد سانت كليمون، الذي قتل بالمعركة (فيرتوت، تاريخ فرسان سانت جان دي ارشليم مج 4، ص108).

الفينيسي ملك الجزائر تحت إلحاح المرابطين والذين راسلوه عن طريق المرابطين، راح يعطي الأمر بإنزالها وحرقها على باب قصره[1] مع بعض الأعلام والرايات التي استولي عليها فيما بعد من قبل القراصنة ببعض السفن الشراعية والتي كانت معلقة بنفس المكان.

(1) حلال علينا حرام عليكم، هذا منطق الدراويش وهم يعلقون أعلامهم المقدسة والتي تخرج لفصول طلب الغيث فقط لأن بركتها تجعل السماء تدر بشحيح مطرها... فكم كانت التفاهة ضاربة وكيف هؤلاء متمكنين من جهلة لا تعرف إلا الاقتتال وهم لم يشيدوا بيتا يحميهم لا من قر الشتاء ولا من حر الصيف ..المترجم.

رابعـا

ويعود «اوشالي» إلى الجزائر وهو على خلاف بينه وبين ألإنكشاريين طيلة هذه السنة والمدة التي سوف يبقى فيها بالجزائر.. والسبب الحقيقي كان في تسليمهم رواتبهم منقوصة. وهم يهدّدون بقتله لمرات وفي مرّة من المرّات وهم على أهبة القيام بذلك بداية السنة (1571) راح يبحر بحذر شديد بمعية ما أمكن من السفن في بداية شهر أفريل ويغادر الجزائر وكأنه هارب بمعية عشرين سفينة شراعية. ولكن البحر كان شديد الهيجان فلم يستطيع الخروج حتى من الميناء ليتحرر من المليشيا التي راحت تمنعه من الذهاب والاتجاه إلى رأس «ماتيفو». وقد وضع على سفينته جذافين مسيحيين بعدد كاف.

الإنكشاريون كانوا يعتقدون أنه سيتوقف ب»ماتيفو» راحوا يرسلون عن طريق البرّ عشرين من «بولوك . باشي» ليعيدوه وفي حالة إذا ما رفض عليهم بالقضاء على العساكر والإنكشاريين المتواجدين بالسفن ولكن»اوشالي» راح يغادر برغم الأحوال الجوية التي لم تكن على ما يرام. وعند وصول «بولوك . باشي» إلى المرفأ لم يجدوه. إذ راح يترك قيادة مهامه للقايد «مامي قورصو» وهذا الشخص هو نفسه الذي عينه خليفة له في السنوات السابقة، ورغم كل ما حصل إلا أن الجميع راح مطيعا لأوامره.

و«اوشالي» وهو في طريقه يلتقي بسفينة كانت تحمل له أمر من السلطان (البعض يقول أن هذا الأمر كان منذ مدة). يحثه على المجيء للقسطنطينية وتجميع للأسلحة ضد المسيحية ومنها يأمره بالالتحاق بما استطاع من السفن وخاصة وأن الفينسيين الذين هم في حرب متواصلة ضد الأتراك بجزيرة «قبرص» قد راحوا يتحالفون مع البابا «بي الخامس» ومع هارلاي «فليب» ملك اسبانيا وقد جهزوا مجتمعين أرمادا قوية للاعتداء على السلطان الأعظم[1].

---

(1) هذا الخلاف يرجع إلى البعيد من الزمن والسيد فوركفو يراسل الملك بتاريخ 7 افريل 1569: «يشد إلى حبال الرسو الأربعة عشر سفينة القوية ويحمل على ظهرها كل ما يليق به ورجاله الأوفياء وهو على مزاجه لا يترك أحد من القراصنة يقرب إلى هذه السفن طالب منهم إن أرادوا السباق فعليهم الاعتماد على وسائلهم الخاصة» (المراسلات الاسبانية).

وبناءا على الأوامر راح «اوشالي» يغادر سريعا الجزائر بسفنه العشرين (رسالة الفارس الكنسي دي روميغاس والذي حضر المعركة لم يشير إلا لسبع سفن شراعية للعلج علي ويضيف بأنه تولى القيادة في عملية الانسحاب ومنها استطاع إنقاذ ثلاثين سفينة).

بمرفأ «كورون» بـ «مرمرة» والذي يغادره للالتحاق بالأسطول التركي، أين كان الأميرال جد مبتهج وهو يراه يصل. وهم على فرحتهم بتدعيم جيشهم بواحد من البحارة كـ«اوشالي» ورياس أتراك وأتراك أتى بهم معه. وطيلة فصل الربيع كان الأسطول التركي قد تلقى خسائر بجزر «كوندي» و«سيياغو» والتي تعود ملكيتهما للفينسيين. وفي اليوم الذي حصلت به المعركة بين الأسطولين، كان «اوشالي» يقود جناح الميسرة وقد أظهر قدرات بحّار قوّي، لا تستطيع السفن المسيحية الاقتراب منه والالتحام به وهو على مقدرة في المناورة في أيّ حالة يراها صالحة. وبعدها وهو يرى السفن المالطية تأتي إلى الأمام منه، راح يجهد نفسه في اقتحامها ويقتل بضربات سهام ونبال عدد كبير من الفرسان الكنسيين، ويحمل عليهم لدرجة أن العساكر راحوا يستولون على القبطان المالطي[1] ولكن فيما بعد لم يكن ليشك في أن النصر سيكون للمسيحيين إذ راح«بيالي» ينسحب[2].

---

(1) فيما يخص معركة دي ليبانت، والدور المشرف الذي قام به العلج علي انظر إلى مفاوضات فرنسا بالمشرق (مج 3، ص. 186 وما يليها. و243). و(التاريخ العالمي لدي تهيو.(مج 6 ،ص. 233، 244 إلخ .). علي لم يكن يريد ان يبقى الأسطول التركي بعرض البحر، وقد نصح باستشاره لتجنب الكارثة ولكن الأميرال راح يرى عكس ذلك إذ أقحم الجزائريين وقد تميزوا بخصوصيتهم في المعركة).

ولكن هناك إرادة الله والأمور المهيأة من جلالته وقدرته وحكمته التي لا تعرف حدود! (نرى هنا الكاتب على أكمل وجه في معرفة الله أكثر بكثير منا ....المترجم).

(2) رسالة من السيد دي نواليس، السفير بالقسطنطينية والمؤرخة بتاريخ 23 مارس 1572، تعلم الملك بهذه التسمية، ويوضح له أن العلج قد له زيارة مجاملة وقد أكد له إرادته في إسداء خدمات لفرنسا .(مفاوضات فرنسا بالمشرق مج 3 ،ص.251)ورسالة أخرى بتاريخ 18 جوان، تتحدث عن النشاط والحيوية والتي راح الأميرال الكبير يسلح بها الأسطول، وأنه بات يرمي بفكرة استعمال القوس وتسليح كل الطواقم بالنبال (ن. م ص. 272) حسب تيهو، اسبانيا كانت تبحث بأن تتصالح مع القبطان باشا، بعد معركة دي ليبانت، البابا «بي الخامس» وبوساطة من الكاردينال الكسندري، الذي نصح فليب الثاني أن يبحث فيما يجلب فخر

يجر وراءه القبطان المالطي وراية الديانة المسيحية. وهو لا يستطيع التوقف. بـ «ليبانت» عندما تأكد أن الهزيمة التامة للأسطول التركي باتت واضحة، راح يتوجه إلى القسطنطينية. ولولا صديقه «بيالي» والذي لازال حيًا والعلم المالطي الذي عرضه على السلطان. ولكن بعد أشهر (راح يطلب بشجاعة. قيادة أسطول ليس لحماية شواطئ الأمبرطورية ولكن لمحاربة الجيوش المسيحية إن هي خرجت في السنة الموالية). ومنها أصبح الأميرال الكبير على رأي وفي سنة (1572) يغادر القسطنطينية في شهر جوان على رأس أسطول من مائتي سفينة شراعية (كان هذا التسرع الذي باتت تعرفه تركيا بالعمل طيلة الشتاء وتسليح سفن جديدة!).

وهنا لا أحد انتصر. و«اوشالي» ربح شرف الاستظهار وكأنه أنتصر وسمعته وشهرته باتت كبيرة لدى السلطان.

وقد جاء بها إلى «مرمرة» وراح يتظاهر للمسيحيين وكأنه يريد الحرب. وهذا الاستعراض لم يتبع بحدث لخطأ قواد الأرمادا. والذين كان باستطاعتهم الانتصار عليه إن هم هاجموه. وقد سمعت من الأتراك الذين كانوا مع «اوشالي» أن المسيحيين كانوا أقوى إذا أرادوا تدمير أو وضع الأسطول العثماني موضع الفرار.

وإعجاب علي العلج بأن يعطيه حكم لمقاطعة اسبانية أو صقيلية» وهو يقول إننا لم نفلح فهذا ما يراه غير مفيد، إذ أننا سوف نحرض شكوك السلطان سليم. والعلج علي هو الشخص الوحيد. القادر بقيمته وسداده بأن يدعم شؤون الباب العالي» (التاريخ لعالمي. مج 6، ص. 254).

خامسا

وفي سنة (1573) «دون خوان «النمسا» يأتي إلى تونس ويغزو المدينة والمملكة لفائدة التاج الاسباني[1]. وعند سماع هذا الخبر الذي أحدث حزنا كبيرا لدى «اوشالي» والذي راح يطلب من السلطان من دون توقف إرساله لأسطول إلى تونس، وهو يعده ليس فقط باستعادة المدينة والحصن من أيدي المسيحيين الذين أنشئوه ولكن أيضا «حلق الوادي». ومهما يكن فإنها أصبحت عصية عليه والسلطان الأعظم الذي راح يوافق على طلبه ويرفق ذلك بأن يقوم بعمليات على الأرض بجدية كبيرة (لغرض أن لا ينفصل عن الأسطول) مع مولى بوسني يدعى «حسن باشا».

و«اوشالي» يصل إلى تونس في شهر جويلية (1574)[2]. إذ بمائتين وخمسين من السفن الشراعية وعشرة عبّارات وثلاثين ناقلة للجند والمدفعية والذخائر والمؤن يقوم بالانضمام إلى ملك الجزائر «أعراب أحمد» والذي استخلفه بأمر من السلطان، قبل سنوات من هذه ومع ملك طرابلس وقايد القيروان.قايد الأتراك الذين انسحبوا من تونس العاصمة معه بوصول «دون خوان» وجيشه إذ راح يجمع عدد كبير من الموريين وأعراب الداخل للبلاد أو الذين جاءوا تحت قيادته. وهم على عاطفة وشوق للتغيير وبهذا الجمع الكبير، راح ينشئ أربع بطاريات اثنان موجهة إلى الحصن الجديد الذي

---

(1) وقد كان ما توقعه العلج علي، والذي بعد سقوط تونس راح على الدوام يطالب بطرد المسيحيين من حصن حلق الوادي، التي تعطي نقطة إسناد طبيعية قوية، والتي استغلها دون خوان بسداد في الوقت الذي كان فيه الأسطول التركي قد عصفت به عاصفتين متتاليتين وكان عليه العودة للتهيؤ مرة أخرى. ومهما يكن فإن غضب السلطان كان كبيرا وقد كادت رأس الأميرال أن تسقط. واستطاع بثمن جد غال إنقاذ نفسه: «وهو يقدم مئات الدوكات للمايسترو، وإذا أنا اعتقد أن خمرة فالي لم تكن لتنسى «رسالة من السيد دي نواليس إلى كاترينا دي مسيس. (مفاوضات فرنسا بالمشرق مج. 3 ص. 452).

(2) يوم 13 جويلية 1574 ،الأسبان لم يكونوا انهوا أشغال الدفاع، ويوم 23 أوت، حلق الوادي يسقط وكل الموقع تقريبا يقتل، ويوم 13 سبتمبر حصن تونس يهدم تبعا لحصار مخيف ودفاع بطولي. (148) الشيخ حيدر – إذ يظهر أن دون خوان لم يلقى مقاومة جدية بتونس، ورمضان قد راح يفر من لحظة سماعه بإنزال الأسبان. (دي تيهو، التاريخ العالمي ،مج. 6، ص. 561 الخ على مرتفعات. والاقتصاص منهم اقتصاصا كبيرا حتى يبقى ذلك عبرة لكل متطاول.

أنشأه «غابليار سيربوليني» بناء على أوامر من ملك اسبانيا. وملك طرابلس وهو يقود واحدة منهن، وقايد القيروان الأخرى والاثنان تحت أوامر «حسن باشا». وقد استعمل لتهديم حلق الوادي بيطريتان أكثر قوة من الأخريات، واحدة إلى جانب «العرايس» والأخرى من ناحية «قرطاج» تحت أوامر «أعراب أحمد». وقام هو نفسه بقيادة الأخرى، وفي أقل من أربعين يوما، وبعطاءاته وعنايته الحصنان يسقطان ومنها يعود إلى القسطنطينية منتصرا ومغتبطا مع الكثير من الشرف وعدد كبير من الأسرى[1].

وفي السنة المقبلة (1575) راح ياخذ راحته بالقسطنطينية. وفي سنة (1576) يخرج بشهر جويلية برفقة ستين سفينة شراعية ورغم أن الأجواء كانت جد رديئة وقد رمت به مرتين من «كلابري» إلى «مرمرة». ولكنه تمكن من هدفه الذي رسمه. ومنها راح ينزل الجموع إلى القريب من «سيكيلاص»، وراح يجتاح ويحطم العديد من القرى إلى غاية رأس «كولون» المكان الذي ولد به ومن هنا عاد إلى القسطنطينية. وتمر كل سنة (1577) وفي سنة (1578) المليشيا التي هي تحت تصرف سلطان جزيرة قبرص راح تقتل «أعراب أحمد» ملك وحاكم هذه المقاطعة لأنه لم يسدد على انتظام رواتبها[2].

والسلطان وهو يسمع هذا الخبر يرسل «اوشالي» بمعية خمسين سفينة شراعية لمعاقبة المتردين، ويعطيه أمر بقطع رؤوس البعض منهم وتعليق البعض ورمي الباقي من علا. وهذا اقتصاص على ما أقدموا عليه.

---

(1) انظر علاقات الحصار .للكونت غابريو سيربيلوني الذي كان يحكم تونس، ودون خوان دي زاموغيرا المكلف بالدفاع عن جزيرة شقلي. (المجلة الإفريقية، 1877، ص. 294 - 298 و361 - 379 وغيرها. انظر أيضا دييغو دي توريس ،كورينا دي غيرا (سراقوسا ،15579). هذا الكاتب حارب بحلق الوادي والذي كان من الأحياء القلائل.

(2) وكذلك تم قتله بسب قسوته عليهم، وقد عوقب اشد العقوبات وقد قاموا بتقطيع جسمه أجزاء وتوزيعه بينهم. (هامر، تاريخ الأمبرطورية العثمانية مج 3. ص.57 ترجمة هيلارت).

سادسا

في سنة (1579) فترة الحروب الكبرى التي راحت تدور رحاها بين السلطان الأعظم و»الصوفي» ملك الفرس، وملوك آخرون للمشرق، والسلطان يجد نفسه مضطرا (وهو يخسر الكثير من جيشه في حروب ثلاثة كبدها إياه «الصوفي») من أن يطلب المساعدة من «التتار الكبير» الذي يدعى «خان الأكبر». وهذا الأخير يرسل إليه أحد أخوته بمعية مائة وخمسين فارس.

السلطان وهو يصله هذا الخبر أراد أن يمنع «الجورجيين» حلفاء «الصوفي» (والذين هم قدامى الهبرس والاولان وكلهم مسيحيين اليوم). على اعتراض مرور التتار والذين كانوا مرغمين على المرور بأراضيهم.

يأمر «اوشالي» باجتياز البحر الأسود وإنشاء حصن كبير على ضفاف نهر "تريبزوند" الذي يقطع بلاد الجورجيين. و«اوشالي» يغادر القسطنطينية لهذا الغرض نهاية ماي (1579) بصحبة الأربعين سفينة شراعية، ومنها راح ينشئ القلعة بالمكان المختار[1]. وبعد زمن قليل من هذا راح الجورجيون يتبعونهم ويرغمونهم على الانسحاب ويقطعون رؤوس كل الأتراك الذين كانوا بالقلعة والذين أفنوهم. و»اوشالي» وهو على أشد غضبه يعود إلى القسطنطينية. وبعد أيام هؤلاء الجورجيون وهم على إتحاد بينهم وبين قوات الملك «الصوفي» بعد أن أرغموا الأتراك على الانسحاب، يغلقون الطريق على التتار الذين بدأوا في التوافد من أعالي(جبال كوربيوس) ويقطعون رؤوس أكثر من نصف عددهم ويرغمون الباقي على الفرار. اوشالي الذي كان يتمتع بسمعة كبيرة لدى الأتراك وكان السيد المطلق في كل ما يخص الأمور البحرية ولشواطئ

(1) هي التحصينات المنيعة لـ»خرسان» التي اخطأ هايدو فيها وهو يقول أن الجورجيين آخذوها من العلج علي، وهو لم يكتمل بعد إنشائها، أي اتمام بنائها كان على يد كيراسكيا مصطفى باشا. (انظر مفاوضات فرنسا بالمشرق .مج. 3 ص.808) وقد يبدو أنه لم يكن على دراية بمشروع قناة سويس، والتي بدا علي في انجازها، ونهاية أشغالها قادت لشح من سليم. (ن.م مج 4 .ص. 536).

الإمبرطورية العثمانية وبسلطات لم تكن لأحد من سابقيه من الأميرالات الكبار[1].

إذ يقيم مجالس مستقلة عن مجالس الباشاوات الآخرين، وهو الوحيد الذي يعطي الأوامر، والتي لم يقم بها الأميرالات السابقين. وقد كان له طبع استثنائي، ففي الأيام التي لا يكون بها على راحته ولا يريد أن يتحدّث في أمر من الأمور يلبس سوادا. ويلبس لباسا بألوان زاهية، كإشارة على التحدث لأيّ كان. وقد انشأ قصرا فخما ليسكنه إلى البعيد بخمسة أميال من القسطنطينية على ضفة المضيق الذي ينطلق من هذه المدينة إلى البحر الأسود.

وبعدها بقليل راح يقيم مسجدا كبيرا وفاخرا وثريا زينه على الطابع التركي على شاطئ نفس البحر. وبه تمّ دفنه بعد وفاته. لم يخلف لا ابن ولا ابنة، ولكنه كان يملك بمسكنه أكثر من خمس مائة مولى. والذين كان يدعوهم بأبنائي ويعاملهم وكأنهم أبناءه. وفي سنة (1580) كان عمره 72 سنة[2]. لحيته لم يعرف لها الشيب موطئا. ذو قامة طويلة. قوي العضلات.

(1) وليس هذا بالقليل: إذ أن سلطات القبطان باشا كانت كبيرة فيما يتعلق بالبحرية التي هي تحت أوامره المطلقة: من مستخدمين، جزر موانئ مواقع وميليشيا. إذ كان له الحق في تجهيز الجيوش وفرض الضرائب، وخارج مضيق الدردنيل. هو الماسك بالديوان. وله يرجع الرأي الخير، من دون الرجوع إلى سلطة أخرى. يسلم المهام والمراتب البحرية، التي يعود إليه تسييرها المباشر من إنشاء وتحصين وإصلاح. والكثير من المداخيل التي تعود للأرخبيل والأناضول. وهناك ثلاث كتائب من الانكشاريين مخصصة لحراسته، مستقلة عن ضباطه وسكنه العسكري واخبرا له خمس الاستيلاءات البحرية .(المختصر الكرولونوجي للتاريخ العثماني ،دي لا كروا، باريس 1768 2 مج فق 12 مج 1. ص 402).

(2) يموت يوم 27 جوان 1587 وهو على غاية الشرف والثراء. ولكنه لم يستطيع أن يحقق أماله لأولئك الباشاوات الكبار للجزائر منذ بربروس ،أي بمعنى تأسيس دولة موحدة تشمل كل ممالك افريقيا الشمالية و تحقيق هذا الحلم الكبير والذي ربما يعطي البحر المتوسط للإسلام. كان دائما مخترقا من تخوفات الديوان الكبير. ونحن لا نرى من الفائدة ملاحظة ذلك وحتى وفاته على انه برتبة ملك للجزائر إلا من خلال رسائل ومذكرات السفراء الأوروبيين. اين نرى خلفائه ما هم إلا حكام مستخلفين (انظر (باسيم) المفاوضات التي ذكرناها سابقا وبعد المؤسسين للأيالة. العلج علي كان من اشهر مشاهير باشاوات الجزائر. وأيضا من الذين لهم الحق التام في هذه المرتبة نظرا لقيمته الشخصية وبعده لم نعد نرى زعماء للحروب ولا سياسيون كبار. وهؤلاء ما هم إلا مبعوثين مجرورين. والذين لم يكن همهم الحكم، بل كان همهم الثراء، ولكن بالمحافظة على رؤوسهم

أسمر السحنة، له صوت خافت، لا يسمعه إلا من كان قريبا منه، ورأسه (كما سبق وقلنا على حاله) أصلع. حكم وأدار الجزائر شخصيا لثلاث سنوات وشهر، ابتداء من شهر مارس (1568) إلى شهر أفريل (1571). أين غادرها إلى القسطنطينية للانضمام إلى الأسطول التركي. ومنها بقي ملكا على الجزائر لغياب طال لأكثر من سنة إلى غاية تعيين «أعراب أحمد «سنة (1572)[1].

في هذه الفترة كان قد ترك مساعدا له بالجزائر، رئيس ديوانه القايد المولى «مامي قورصو».

من القطع والانشاء أمام طلبات ونزوات انكشاريهم والطائفة. ووفاة العلج علي راحت تطبع فترات من التاريخ للأيالة. وبعدها جاء تتابع الإهمال والحماية الحقيقية من الباب العالي للجزائر، وبالتوافق المضاد، وقطع روابط الطاعة التي تربط هذه المدينة بزعيم الإسلام. وسوف نرى إلى البعيد، كيف أنه وبرغم أوامر الديوان الأكبر، الميليشيا والرياس يعلنون الحرب على أمم صديقة لسيدهم وهم يقيمون بالفعل دولة مستقلة. وفرنسا على الخصوص راحت تغير من علاقاتها كلية وحتى المشاعر القلبية. والتي بها العلج علي كان يتواصل معنا (ن. م . مج 3 .ص. 251، 799، 848، 854، 876، إلخ ..).

(1) الواقع أن أعراب أحمد، ورمضان، وحسن الفينيسي، لم يكونوا إلا خلفاء للعلج علي والذي راح يواصل حكمه لأفريقيا ومنها راح يعين الباشاوات حسب إرادته إلى غاية حصول مكيدة بالسراي جاءت بحكومة مستخلفة لجعفر والذي كان مساعدا لعلي هذا ما هو موجود برسائل سفرائنا.



الفصل التاسع عشر

أعراب أحمد باشا الملك التاسع عشر

أولا

في اللحظة التي عيّن فيها «اوشالي» قائد الأساطيل التركية، «أعراب أحمد» راح يتسلم قيادة الجزائر. وهو من أصل موري أو عربي، ولد بالإسكندرية بمصر. واسمه الحقيقي «أحمد» وكونه كان عربيا أو موريا ،راح يسمى «أحمد أعراب» لتفريقه عن أحمد الآخرين. تربىّ وهو في شبابه على يديّ الأتراك ومنها انتقل إلى القسطنطينية أين كان حارسا على عبيد السلطان، وهذه المهمة كانت ذات نفع كبير له ،لأن ما كان يسلم إليه لإطعام العبيد المسيحيين المساكين يخصم منه القسط الأكبر. ولكونه كان ذكيا ومتميزا، راح يكسب أصدقاء أوفياء له، منهم «اوشالي» الذي راح يعيّنه «باشا البحر». وهو يغادر حكومة الجزائر، راح يترك له منصبه. وقد وصل في شهر مارس (1572) بمعية سفن شراعية، والتي ردها بسرعة لغرض أن سابقه بحاجة إليها، ولأنه بهذه السنة وقعت معركة «نافارين»، وقد شارك في محاربة الأسطول المسيحي[1].

---

(1) ما توصلنا لمعرفته من خلال رسالة السيد دي فيريي إلى الملك بشهر جويلية 1572، أن موريي الداخل قد ثاروا ضد الأتراك (مفاوضات فرنسا بالمشرق مج 3 ص. 282) (156) شارل التاسع راح يكشف مشاريع اسبانيا ضد الجزائر عن طريق حاكم مرسيليا انظر إلى رسالته المذكورة بمفاوضات فرنسا ،مج 3، ص. 388).

وبما أنه في هذه الفترة كان التخوف من هذا الأسطول وارد للجزائر راح أحمد يهتمّ بتحصين المدينة قدر الإمكان[1].

أين الآن بعض الآثار والجدران، ثم حطم الباب نفسه وأعاد بناءه من جديد بمنحدر إلى الأمام، وأجري توسيع للخندق وهي نفس التوسعة المتواجد عليها الآن والتي تحدثنا عنها بـ"طوبوغرافيا الجزائر"[2].

ومن نفس الجانب للمدينة والتي قد يكون بها الهجوم من عدوّ محتمل. وأقام حصن كبير إلى القريب من الجدران المحاذية للبحر. وأنجز إلى الخارج من هذا الباب عينا جارية للماء، ومنها راح يولي عنايته إلى الجزيرة التي التحمت بالمدينة عن طريق المنارة والتي راحت تشكل الميناء (كما اشرنا إليها سابقا. ثم راح يقيم جدار كبير كحاجز محصن والذي لا يستطيع منه العدو المهاجم إسقاط المدينة ومنها راح ينشئ قلعة «الفنال» والقلعة الأخرى والتي هي في مقدمة الجزيرة من أجل حراسة الميناء ليلا. ومنها راح ينشئ عينا معتبرة أخرى للماء إلى الخارج من باب الواد. بعد أن جمع العديد من الينابيع والتي تأخذ منابعها من الجبال الصغيرة المجاورة للجزائر. وكانت مياهها صافية ومنعشة وقوية صحيا. وكان جد مهتم بهذه الأشغال طيلة فترة حكمه الذي دام سنتين وشهرين وكان متواجد على الدوام بين العمال اليدويين والمسئولين الموجهين ماسكا عصا بيده.

ولكن لا شيء ملاحظ حدث فترة حكمه[3]. إلا أن هناك وباء الطاعون الذي مكث لسنتين ومنها أمات ثلث سكان المدينة .إذ راح يقيم بينهم عدالة صارمة ومؤاخذ عدد كبير من الموريين عن أخطاء صغيرة. وكان ذو طبع قاس، ولكونه كان حارسا للرهائن المقبوض عليهم، كانت بيده دائما عصا يضرب

(1) وكان أول ما فعل هو هدم التجمع السكني الكبير والثري القريب من باب عزون. وبالتالي ملك الجزائر راح يبعث إلى حليفه هدايا من جياد وأسود ونمور وأوعال (والتي راح السيد مانيون يسميه البقرة الأكثر من غريبة) (ن.م. ص. 552).

(2) (الفصل التاسع).

(3) هايدو لم يكن على علم بالخطوات التي حصلت سنة(1572) لجعل أمير فرنسي على كرسي الحكم بالجزائر. فقد نستطيع قراءة كل الرسائل المتعلقة بهذه الخطوة الفريدة من نوعها بالمجلد 3 للمفاوضات (ص 231 و291 – 348).

بها الموالي والعبيد وإن أحد المسيحيين حاول الهروب (وهذا ما كان يحدث يوميا) يقوم هو بنفسه بمهمة السياف رغم أنه ملك ويضربهم بقسوة بيدهو كان يرعى مصالح ورغبات الميليشيا التي كانت تثير غضب سابقه في الحكم «اوشالي» كان غير راض عن تصرفهم ومنها راح يعرف معهم تمرد وخلافات وهذه السيرة معهم جلبت له عاطفة الأتراك[1].

وكان عليه أن يحكم سوى كان موريا أو عربيا، وهو الشيء الذي عادة ما ينكره الأتراك ويعتبرون كل الموريين كالهوام المنفرّة.

---

(1) - كل هذا غير دقيق. الأتراك لم يتركوا أحمد يحكم هادئا كما يقول هائدو. وحزب الرياس الذي يقوده مامي آرنؤوط، راح يظهر ثورته المفتوحة ويربح قضيته. في نفس الوقت شارل التاسع كان يشكو للباب العالي من التجاوزات الغير معاقب عليها من أحمد (الذي راح يفقد كرسيه من جراء شكاوي الأسقف دي اسكس: «لمدة أكثر من شهرين لم يسدد الرواتب والإجازات، وقد عين أحد الأتراك المسمى قايد رمضان مكانه، إلخ» رسالة السيد الأسقف دي اسكس إلى الملك، مفاوضات، مج 3 ص.553 و554).

ثانيــا

في سنة (1574) عندما هاجم «اوشالي» حلق الوادي وحصن تونس «أعراب أحمد» وهو يستعلم وصوله، يغادر الجزائر نهاية ماي تاركا المهمة لخليفته «رمضان باشا». ويأخذ سفنه الثلاث وأربع أخرى لرياس أصدقاء له. ويتوقف لبعض الوقت ببجاية، إلى حين وصول «اوشالي» إلى حلق الوادي ومنها راح يلتحق به. والأميرال يسلمه قيادة إحدى البطاريات المصوبة لحلق الوادي من جانب «العرائس» و«أعراب أحمد» راح يظهر بمظهر الحذر وصاحب المقدرة. وهذا ليس لكونه قائد ولكن في المعركة التي راح يخوضها وكأنه جندي بسيط. وبعد الاستيلاء على حلق الوادي والحصن يعود بمعية «اوشالي» إلى القسطنطينية. وفي سنة (1577) يسلمه السلطان تسيير شؤون جزيرة قبرص، والتي راح يحكمها طيلة السنة.

وفي سنة (1578) الإنكشاريون راحوا يتمردون عليه بـ«فرماغوستا» أين راح لا يسدد لهم رواتبهم في الوقت المناسب، ومنها يجتاحون قصره ويقطعون رأسه[1]. وقد كان ملكا للجزائر لسنتين وشهرين. وبجزيرة قبرص أقل من سنة وأثناء مغادرته للجزائر بدأت تظهر عليه علامات الضعف وهو على مشارف الخمسينات من العمر وعند وفاته كان عمره أربع وخمسين سنة كان رجل قوي البنية وثخين الجثة، ذو سمرة داكنة، وشعور البشرة، وملتحي وشعره كان أسود اللون، قامته متوسطة وطبعه صاخب وقاس وفي فترة حكمه ساد وباء الطاعون بالجزائر. والملوك كما قلنا سابقا يرثون الذي يتوفى من دون أن يترك أبناء والموريين حتى وإن كان لهم أولاد إلا إذا كانوا بالغين إضافة إلى هذا يأخذون قسطا. هذا الوباء الذي به أستولي على الكثير من الثروات الكبيرة والتي راح ابنه يرثها من بعده والذي أصبح قائد بـ«الفنال» ويمتلك سفينتين جد مسلحتين وهذا الابن يسمى «محمد» وقد سبق أن سكن القسطنطينية.

---

(1) أنظر ص 150 مذكرة رقم 2.

الفصل العشرون

رمضان باشا الملك الواحد والعشرون

أولا

في نهاية شهر ماي (1574) «رمضان باشا» مولى ساردي[1]. تسلم مقاليد حكم البايلك. وقد أختطف وهو شاب ب»سردينيا» في يوم كان يرعى فيه قطيعه الصغير من الماعز الذي يعود إلى أبيه. وسيده التاجر التركي بالجزائر الذي اشتراه وهو يراه طفل موهوب وذكيّ أرسله للمدرسة لحفظ اللغات التركية والعربية وكذا قراءة وكتابة هاتين اللغتين.و منها راح يعيش لمدة طويلة مع سيده وهو يصبح بالغا يتزوج بمولاة «كورسيكية» ويهتم بالتجارة وبعدها راح يعين قايد بمختلف مناطق البلاد. ولعدة سنوات راح يتقلد هذه المهام ومنها اكتسب الكثير من الثروة. من خلال مصداقيته وشهرته. راح الجميع يعرفه كرجل عادل ومنصف ورحيم ومحبوب وهذا ما كان عليه حقيقة. إذ كانت به نباهة وحذر ملاحظ من تركي. وهذا الأخير لم يكن إلا «اوشالي» الذي راح يرفقه بموكبه في سنة (1569) عندما بدأ في حملته على مملكة تونس. وفي سنة (1570) وهو يعود إلى الجزائر. يترك له قيادة تونس وهو يقول أنه بحذره وعدله وهدوئه أصبح به محبوبا من الجميع. وقد راح يتوافق ويهدئ من مشاعر الموريين لهذه المملكة الجديدة المفتوحة، وتوقعات «اوشالي» كانت مؤكدة. ومنها راح «رمضان» يحكم في سلام إلى اللحظة التي استولى فيها «دون خوان» النمسا على تونس سنة (1573). وأجبره على الانسحاب إلى القيروان مع كل الأتراك.

---

(1) حسب سفيرنا بالقسطنطينية (رسالة من السيد دي نواليس إلى شارل التاسع) رمضان من جنسية تركية وليس مولى ساردي كما يقول هايدو (مفاوضات مج 3 ص 554).

وفي تلك الفترة لم يكن هناك في حكمه ما يلفت الانتباه، إلا بعض المناوشات ضد المسيحيين الذين كانوا يحتلون «حلق الوادي». وبعد انسحابه إلى القيروان راح يحارب جيشا للموريين مدعما من طرف خمسة مائة جندي من المسيحيين أرسلهم قائد «حلق الوادي» إلى غاية «الحمامات» التي تقع بين تونس العاصمة والقيروان. وقد أحدث بهم خسارة كبيرة وألقي القبض على بعض المسيحيين.

وفي سنة 1573، الموريون وسكان الجزائر، راحوا يطلبون من السلطان استبدال «أعراب أحمد»[1] وإرسال رمضان ملكا عليهم والذي كان معروفا منذ صغره وكان جد محبوب ومبجل لكرمه. ولكي يضمنوا نجاح طلبهم أرسلوا إلى القسطنطينية واحدا من المرابطين الأساسيين يدعى «سيدي بوالطيب» على ظهر سفينة «مامي آرنؤوط» قائد البحر والذي راح يشتكي «أعراب أحمد» الذي أعفاه من مهامه وراح يقدمها إلى أحد الموالي المدعو «مراد رايس» الكبير. وعلى ظهر هذه السفينة كان هناك «مولاي مليك» أخ ملك فاس «مولاي عبد الله» وعمّ «مولاي محمد» (إذ سوف نجده إلى الأمام من حديثنا يقوم بحرب هذا الأخير ويقتل بنفس المعركة مع ملك البرتغال «دون سيباستيان» في شهر أوت (1578). و«مولاي مليك» كان ذاهبا إلى تركيا طالبا مساعدة الملك في استعادة مملكة فاس والتي طرد منها لسنوات أين راح يقيم بالجزائر العاصمة وهو يتخوف تخوفا كبيرا من أخيه «مولاي عبد الله». والسلطان يوافق الجميع على طلباتهم، أي بمعنى سكان الجزائر، رمضان ملك ولمولاي عبد الله توليته مملكة فاس. ومنها راح يراسل «رمضان» بأن يساعد «مولاي عبد الله» على توليته عرشه. ويحمّل القبطان «مامي آرنؤوط» بحمل بريده (بأن يعيد له مهامه التي أعفاه منها «أعراب احمد»). وهذا الأخير ينطلق من القسطنطينية يوم 2 مارس وهو يترك من ورائه «اوشالي» يحضر وسائله للذهاب إلى «حلق الوادي»[2].

---

(1) حسب رسالة وجهها السيد مونيون إلى شارل التاسع. أحمد كان يرد أن يسلم بعض العبيد الذين قبضوا من طرف القرصان. ومامي آرنؤوط قام بتحريض شغب الطائفة. والباشا لم يكن بصفه أحد، ومنها لم يعد قادرا على فعل شيء. (المفاوضات مج 3 ،ص. 553).

(2) انظر رسالة السيد دي نواليس لشهر أفريل 1574 (المفاوضات مج 3 ص. 488 إلخ).

في هذه اللحظة كان «رمضان» كان قد انسحب من القيروان (كما قلنا من قبل) وقد راح يفرّ من وجه «دون خوان». ومنها جاء القبطان «مامي آرنؤوط) إلى سوسة وهي ميناء لمملكة تونس ومنها أطلع

رمضان على تسميته لحكم الجزائر. وبالتالي يعرض عليه المغادرة وهذا الأخير لم يتوانى في ذلك ومنها ترك مكانه لأحد مواليه. والذي كان «بيغلير باي» جيشه. ويسلمه قيادة الأتراك إلى غاية وصول «اوشالي». وهو بالبحر على مستوى رأس «بون» (والذي يسمى سالمبولو). رآه «دون خوان» دي كوردونا قائد السفن الشراعية لصقيلية. فيقوم بإرسال ستة أو سبعة آلاف جندي فقط. ولكنه يفلت منه وذلك بعد أن أعطى إشارات والتي راحت توهم «دون خوان» دي كوردونا من وراء قمة مجاورة راح يرسو وينزل إلى الأرض. وقد كان «دون خوان» يعرف أن هناك سفن صديقة تفعل نفس الإشارات لنجدتها. وما دام وهو وحده إلى الأمام من السفن الصقيلية وليس بمقدوره التقدم إلى الأمام واستطاعته المطاردة.

ولو أنه تقدم مقدار ميلين أو أكثر لكان تمكن منهم. خاصة وأن «رمضان» و«مولاي مليك» وصهره «الحاج مراد» والقبطان «مامي آرنؤوط» والآخرين راحوا ينزعون ثيابهم ويلقون بأنفسهم بالبحر وهم يسبحون إلى غاية الساحل[1] والباشا الجديد يصل نهاية ماي بارتياح من الجميع. ومنها راح يهتم أساسا بالتحضيرات الكبيرة للحرب لاستعادة فاس مع «المولاي ملك» وفق أوامر السلطان وإرسال جموع إلى «حلق الوادي» لمساعدة «اوشالي» عند قدومه وهذا ما أمره به السلطان الأعظم.

وفي نهاية جويلية وهو يعلم بوصوله. يرسل إليه بنفس قبطان البحر «مامي آرنؤوط» بمعية تسعة سفن شراعية كبيرة ووسفن لنقل القوات والمدفعية والذخائر والتي كانت ذات نفع كبير لـ«اوشالي». وفي شهر ديسمبر (1575) راح يغادر الجزائر إلى فاس رغبة منه في وضع «مولاي ملك» على كرسي العرش. وكان معه ستة آلاف من الرجال الحاملين للبنادق من الأتراك، وألف من مور «أزواغ» التابعين لملك كوكو مسلحين بالبنادق وشجعان (كان

(1) هذه القصة ترجع إلى الترك المتسرع لتونس عند هجوم دون خوان النمسا وهي لا تظهر لنا بوجه ما عدوانية رمضان.

ملوك الجزائر يستعملونهم لسنوات مضت في حروبهم وفصائلهم التي تخصص لجمع الضرائب عبر لبلاد)، ثمانية مائة من الصبايحية على الجياد واثنى عشر من المدافع والكثير من القذائف والبارود والذخائر. وهم في طريقهم، راح ينظم إليهم حوالي ستة آلاف من الفرسان أرسلهم إليهم أتباعهم الموريين أو أعراب أصدقاء لهم.

ويصل منتصف جانفي (1576) إلى ميلين من فاس. أين «مولاي محمد» الزنجي ابن أخ «مولاي ملك» كان ينتظره برفقة حوالي ثلاثين ألف من الفرسان الموريين والكثير من المشاة، من بينهم ثلاثة آلاف من العلج والأندلسيين الحاملين للبنادق أو موريي اسبانيا.

إذ في الفترة التي مكث فيها «مولاي ملك» بالجزائر، بعد فراره وغيابه عن فاس، لم يوقف فيها التحادث إلى القياد الأساسيين لفاس والمغرب، والذين راح يطمئنون على رؤيتهم له فوق كرسي العرش ومنذ مجيئه من القسطنطينية راح يواصل خطوات وبالكثير من النشاط ويعلم أتباعه أن ملك الجزائر وكل الأتراك سوف يأتون وهم على أتم الاستعداد لقضيته سرعان ما يدخلون أرض المملكة.

والحاصل وكما هو معروف عن «مولاي ملك «بأنه رجل حذر (وكما سمعت من الكثير من الأشخاص المقربين منه).أكثر صرامة وبليغ في كلامه ويعرف كيف يفاوض وما أن وصل ملك الجزائر إلى فاس، والقيّاد الأساسيين وكل العلوج والأندلسيون الحاملون لبنادق المحسوبين عليه راحوا ينظمون إلى صفه. وما أن بدأت المعركة حتى انسحبوا ومروا إلى جانبه. و»مولاي محمد» كان عليه أن يفرّ من المعركة ويلتجئ إلى المغرب مع القليل من القياد والذين أتبعوه وكانوا له أوفياء، بحيث أن «رمضان باشا» ملك الجزائر وجيشه لم يجدوا من يحاربون، ويدخلون كلهم إلى فاس من دون شروط، ومنها يستقبلون أحسن استقبال، وما كان من «مولاي ملك « وهو يرى نفسه مطاع من الجميع وبلا شروط، فأغلبية قيّاد وأتباع ابن أخيه جاءوا يقبلون يده. ومنها ارتأى «رمضان» العودة إلى الجزائر، و»مولاي ملك» يكافئه على مساعدته ويسلمه ثلاث مائة ألف (ملكة من الذهب)، والكثير من الثروات ومائة مسيحي عبيد كانت لأبن أخيه من الذين كانوا بفاس.

بينما الأتراك راح يضيف إلى رواتبهم الكثير من الهدايا ويدفع إليهم كمية كبيرة من النقود التي أستلفها من موريّي ويهود فاس. والكل عاد فرحا مستبشرا. ولكي يهنأ كلية بكرسي عرشه الذي أسترجعه حديثا. راح يتلقى من «رمضان باشا» ألفا من» أزواغ» الذين أتى بهم وحوالي ثلاث مائة تركي. وإضافة إلى هذا. هناك من الأتراك الأساسيين والذين قدمت إليهم هدايا قيّمة بقوا معه برضى منهم وطلب منه. وبمساعدتهم له أستطاع فيما بعد أن يقود مملكة المغرب والمقاطعات الأخرى ويطرد «مولاي محمد» إلى الجبال ويجبره فيما بعد إلى الفرار إلى طنجة. أين راح على يأسه يطلب الحماية من الملك البرتغالي «دون سيبستيان»، وبمساعدة أتباعه استطاع التخلص من هذا الملك خصمه في المعركة التي دارت يوم 5 أوت 1578 إلى القريب من مدينة «القصر». أين لقي حتفه من برتغالي بطلقة بندقية أصابته في بطنه عند بداية المعركة. و«رمضان» يعود إلى الجزائر في منتصف مارس (1576). ويوم *29* جوان يوم (سانت بيار وسانت بول) يصل إلى الجزائر «حسن باشا» الفينيسي مولى «اوشالي» والذي أرسله السلطان كخليفة له. «رمضان باشا» حكم الجزائر ثلاث سنوات وشهر. وخلال هذا الوقت عرفت الجزائر هدوء لم يسبق لها أن عرفت مثله[1].

ولأن «رمضان» كان يحكم بعدالة وقسط كبيرين. ولم يكن أحد اشتكى منه ومنها نستطيع أن نقول كم كان السكان الموريين والأتراك يحبونه. وعندما جاءت اللحظة التي سيغادرهم فيها، راح الحزن الكبير يضرب بهم. وخلال فترة حكمه كان قد أقام حصن قويّ إلى الأسفل من باب الواد عند نهاية الجدران المحاذية للبحر وسنقدم إلى البعيد من هنا شكله وأبعاده[2].

---

(1) في ربيع سنة 1576، دون الفاريز دي بازان ماركيز سانت كروز راح ينزل بجزيرة كركنة واجتاحها بقوة (دي تهو .التاريخ العالمي .مج 7، ص. 350).

(2) طوبوغرافيا الفصل العاشر.

ثانيـا

في شهر أوت القادم واليوم 19 منه غادر الجزائر متجها إلى القسطنطينية في سفينة «سانت بول» مالطا والتي استولى عليها القراصنة في 1 أفريل من نفس السنة بجزيرة «سانت بيار» إلى القريب من سردينيا. وتعود ملكيتها إليه لأن ملوك الجزائر يقبضون أقساطهم من كل الاستيلاءات التي يقوم بها القراصنة وما حوت من متاع وأثاث. ومنها راح يغادرها بمعية خمس سفن شراعية تركية والتي جاءت في موكب مع «حسن باشا» الآتي من القسطنطينية، وكان حسنا وتقديرا له. والسلطان وهو يعلم بخدماته وحكمه العادل. راح يسلم له باشا ليك مدينة ومملكة تونس ويصلها منتصف أكتوبر وكل السكان الذين عرفوا عدله وكرمه استقبلوه بفرحة، ومنها راح يحكم هذه المملكة في سلام وأمن وكل الموريين والأتراك والأعراب يرون فيه رجلا عادلا. وفي أكتوبر (1579) راح السلطان يبعث بخلف له، ومنها سوف يحتفظ بحكم تلمسان والتي سلمت له في تلك الفترة. ولم يبقى اسمه مختصرا في قايد كما حصل للآخرين ولا هو تحت تصرف الباشاوات. ولكنه حظي هو نفسه بلقب «باشا» وراح يخصم من قوانين الجزائر العاصمة. وفي هذه الفترة السلطان راح يعلم أن ملك فاس أخ «مولاي ملك» راح يذهب ليبحث على تحالف وصداقة مع ملك اسبانيا «فليب الثاني». وهو لا يرضى بأن يكون تابعا للسلطان الأعظم. ومنذ المعركة التي قتل فيها الملوك الثلاث، «دون سيبستيان» و«مولاي ملك» و«مولاي محمد» أين ربح الكثير من الغنائم ولم يرسل له لا هدايا ولا مبعوثين. بينما أرسل هو من القسطنطينية بمبعوث جاء يهنئه بانتصاراته ويرحب بمجيئه ملكا ويقدم له سيفا ثريا ويعلمه أنه سمع بقتله لبقية الأتراك الذين كانوا بمملكته، وقد كان يشك في الأخبار التي وصلته (إذ في هذه الفترة راح خبر قتلهم ينتشر بين الرعية) أن ملك فاس على أهبة الاستعداد لإعلان الحرب على الجزائر وذلك بتحالفه مع ملك اسبانيا[1] إذ يرسل بأمر لـ«رمضان» يسبر فيه نوايا ملك فاس، وإعلان الحرب عليه وطرده من

(1) ما هو مؤكد أنه بهذه الفترة ملوك المغرب يبحثون عن تحالف مع اسبانيا: علي العلج كان يراقب بحذر اتصالاتهم والتي كان يبعث بها له السفراء الفرنسيين ولم يكن يتوقف على تحريض السلطان بأن ينهي علاقته مع هؤلاء الأتباع الثائرين وجعل الأمبرطورية موحدة، أين الجزائر تكون هي العاصمة .(المفاوضات التي اشرنا إليها مج 3 ص. 241، 266، 517 إلخ).

مملكته إن كانت المعلومات تؤكد الشكوك، ويأمر في نفس الوقت ملك الجزائر وكذلك ملوك تونس وطرابلس توفير كل الجيوش والمدفعية والذخائر الضرورية لهذا الفرض وأن يعمد كل حسب قدرته في فعل ذلك بناء على المعلومات التي تصله من«رمضان». وهذا الأخير انطلق إلى تونس بنية تطبيق الأوامر ومنها يذهب إلى «بنزرت» ليغادرها على ظهر سفينته «سانت بول» التي كانت راسية هناك ومنها يتجه إلى الجزائر وتلمسان.

وفي أواخر نوفمبر وهو لا يزال بـ«بنزرت»، يقطن تحت خيمة مع كل مرافقيه في انتظار سفينته والسفن الأخرى التي سوف ترافقها، وتصل سفينته الشراعية من الجزائر، والتي أرسلها إلى السلطان لتحمل شكاوي واتهامات ضد «حسن باشا» المولى الفينيسي الذي راح يحكم الجزائر وبهذه السفينة نجد الإنكشاريين الأساسيين و«البولوك باشي» وموربي مقاطعة الجزائر الذين أرسلتهم الميليشيا نفسها إلى القسطنطينية لإعلام السلطان عن الانتهاكات والنزوات المؤكدة ضد «حسن باشا». ومن سكان مدينة الجزائر ولنفس الغرض (المرابو) «سيدي أبو الطيب كسيز»[1].

للمسجد الرئيسي للجزائر، وكلهم ومن كل أرجاء المملكة راحوا يشكلون هذه اللجنة .التي كان مطلبها أن يعيد السلطان «رمضان باشا» ملكا عليهم. وهو يسمع هذا الخبر لم يدع السفينة تمر ويراسل الميليشيا، على إن كان لهم ودّ له أن يتركوا أحقادهم لـ «حسن باشا» وكان تصرفه لسببين: الأولى بأن يقوم بخطوته اتجاه «اوشالي» سيد وقائد حسن والذي سلمه مملكة الجزائر. والثانية تخوفه من «اوشالي» الذي قد يعتقد أنه هو الذي حرض الميليشيا على الملك. وخصوصا وأن «اوشالي» يحظى برضى الجميع لقوته وسلطته! ولكن ميليشيا الجزائر لم تكن لترضى بإلحاح «رمضان» وقد أرسلت على العكس وبسرعة وبنفس الطريق «بولوك باشي» آخرين إلى «بنزرت» والذين عليهم أن يوقفوا الأوائل. بأن لا يواصلون طريقهم ويرسلونهم مكبلين إلى الجزائر ويذهبون عوضهم إلى القسطنطينية، وهؤلاء وهم على خوفهم من غضب الميليشيا أن لا يعصوا ولا ينتظروا أمرا آخرا. وهم يترجونهم أن يبقى رمضان باشا ملكا على الجزائر. وهو يقيم بـ«بنزرت»، أين لم يغادرها إلا يوم 15 مارس 1580 يتوجه إلى الجزائر، أين يصلها يوم 4

---

(1) هذا الاسم يكتب من هايدو تارة هكذا وأخرى شاسيز.

أفريل وكان في تلك الفترة جفاف كبير[1] وضع المحاصيل في خطر لمدة طويلة لم تسقط بها أمطار. وقد حصل أن يوم وصول "رمضان" وقبل أن ينزل من ظهر السفينة سقطت أمطار غزيرة.

وهذا ما جعل المدينة تروح تنادي بأنها سقطت ترحيبا برمضان وأنه رجل صالح ومرابط. والله أرسل هذه الأمطار ترحيبا لمجيئه.

وبها لم يمكث إلا لثلاث أيام، ولكنه وهو يملك ثلاثة قصور جميلة راح يقيم بإحدى مزارعه الواقعة إلى مسافة أربعة أميال من الجزائر أين راح يسكن مع الكثير من الموالي والعبيد مع مرافقيه بمنازل صغيرة أو تحت الخيمة. وينشر صدى خبر أنه ذاهب سريعا إلى تلمسان حتى لا يثير ظنون "حسن باشا" الذي كان يشك في أمر يخفيه.

وأخيرا وهو لا يرى وصول سفينة صهره القايد قسنطينة "خذير". والذي كان بحاجة إليه في ركوب البحر، وينتظر كاهيته أو رئيس ديوانه والذي راح ذاهبا إلى السلطان مع بعض اللجان الخاصة بالسفينة الشراعية للإنكشاريين والذين تحدثنا عنهم، راح ماكثا بمكانه منتظرهم دائما، وهو ينتظر تسمية ملكا للجزائر. ومنها راح يقيم إلى غاية 29 أوت لليوم الذي وصل فيه المولى "جعفر باشا" والذي جاء لتسلم مهام الحكم[2].

ورمضان راح يقرر الذهاب شخصيا إلى القسطنطينية بمرافقة "حسن" الذي لم يعد ملكا وينطلق بسفينته "سانت بول مالطا" يوم 19 سبتمبر 1580. وقد كان رجلا يبلغ من العمر الخمسينات، ذو قامة قصيرة، وسحنة سمراء مع لحية كثيفة وسوداء وجسم ثخين وعيناه كانتا حولاء. وقد كان كما قلنا

---

(1) في فصل شتاء 1579 - 1580 كانت بالجزائر العاصمة مجاعة خطيرة، والإنكشاريون انتفضوا ونهبوا المخازن العمومية والخاصة.

(2) في رسائل سفراء فرنسا، جعفر كان مساعدا للعلج علي. (رسائل السيد دي ميرجيمني إلى الملك، (المفاوضات ....مج3 ص. 85، 86 إلخ).

حاكما ممتازا، عادلا، غير ذا طمع، هاوي لقراءة الكتب الدينية بالعربية والتركية وكان هذا شغله الشاغل إن لم يكن له شيء ما يؤديه[1].

لم تكن له من النساء إلا واحدة وهي مولاة من كورسيكا والتي أنجبت له طفلا كان حينها يبلغ من العمر واحد وعشرين سنة وبنتان، أين واحدة تزوجت مولى اسباني ثري، يدعى «القايد مامي» والثانية «القايد خذير» ابن احد الموالي النابوليتانيين.

---

(1) رمضان يعود إلى الجزائر كباشا أفريل 1582 ولكن الميليشيا رفضت الاعتراف به وطالبت بحسن الفينيسي والذي يجعل من تأكيدات في غير محلها. ويغادر الجزائر في أوت 1584. تهو يقول أنه قتل من طرف الميليشيا وهو في حرب مع ملك القيروان (التاريخ العالمي مج 9 ص.226) حسب رسالة من السيد دي ميس إلى الملك وكانت تؤكد موته مسموما (المفاوضات، مج 4 ص. 315). وأرملته كانت ضحية قسوة الطبيب آمو، أين كانت النهاية المأسوية التي كادت أن تشعل حربا بين الباب العالي وفنيس (المفاوضات مج 4 ص. 313 – 327، 358، 551 إلخ ..).

الفصل الواحد والعشرون

حسن باشا الملك الفينيسي، الملك الثاني والعشرين

أولا

حسن باشا مولى فينيسي، خلف «رمضان باشا» وهو شاب، كان يبحر على سفينة «اسكلافونية» أو «راغيسونية» أين كان يستخدم بائعا للكتب لأحد الأدباء. ومنها يؤخذ زورقه في معركة من قبل «دراغوت رايس» ملك طرابلس. وحسن يصبح مولى للأتراك ويؤتى به إلى هذه المدينة. واسمه المسيحي كان «آندرياتا». ومنها يسقط لدى القرعة من نصيب أحد الأتراك المشارقة، والذي راح لا يهتمّ به وقد لبث معه لمدة طويلة. وبعدها مات من دون أن يترك أولاد وكل أملاكه تعود إلى «آندرياتا» أو «حسن» والذي يصبح مولى لـ «دراغوت» وعند مقتل هذا الأخير بـ«مالطا» في سنة (1556) يستخلف من طرف «اوشالي» الذي راح يستولي على كل ميراثه.

حسن يصبح مولى للباشا الجديد، ولكونه دائما شجاعا، يعرف كيف يفعل من شجاعته وخفته، يربح الكثير من هذه الطباع أكثر من طباع الحطة والنذالة[1] المتعارف عليها بين الأتراك وقد كسب رضى «اوشالي» عندما عيّن هذا الأخير ملكا وحاكما للجزائر. إذ راح يصيّره أمينه أي مسيّر خزينته أو مقتصدا عاما. ومنها راح يشغل هذه الوظائف لديه، وعندما أصبح الأميرال الكبير لتركيا، ولكونه ذا طبع طموح ونشط، راح يتولى كل المهام لسيده، وحتى قيادة العبيد الأسرى والذين كانوا يخشونه كما يخشون الشيطان لقساوته ونزواته التي يعاملهم بها.

(1) فيلاكيريا – هذه الكلمة لا نستطيع ترجمتها إلى الفرنسية، وهي عبارة بها سوء وتترك لسامعها ادنى الهبوط للأعمال الغير مشرفة به.

وبعدها يسلم له «اوشالي» قيادة سفينة شراعية. وهو يركب البحر مع سيِّده، كان دائما يعتني بتشكيلة جذافين مهرة من الذين هم بمعتقل الأشغال الشاقة. وقد كانوا من الذين لا يعرفون انهزاما. والذين يضربون ضربا مبرحا عن سائر الذين هم بالأسطول، بحيث نجد أن سفينته تكون دائما متقدمة عن الآخرين وقد كان متواجدا مع «اوشالي» ساعة الاستيلاء على حلق الوادي. وفي سنة (1577) يتسلم من غير رضى حكم الجزائر و«اوشالي» يقول دائما ذلك عن نفسه، بأنه يخشى طبع حسن والذي كان بميليشيا الجزائر، جنس لا يعرف الترويض، ونفس المشاعر التي كان يحس بها نفسه. ومنها راح يتسلم الحكم و«اوشالي» يعطيه واحدة من سفنه الشراعية وخمس أخرى من السفن الشراعية التركية الأكثر تسليحا والتي انطلق بها من القسطنطينية نهاية ماي سنة (1577) يرافقه في ذلك «مصطفى كسيلو» مولى من نفس الجزيرة لقيادة الأسطول عبر السفر.

ثانيــا

ومـا أن تعـيّن إلا وبعـض المـوالي لـ»اوشـالي» مـن الـذين رافقـوه والـذين يمقتونه بسبب قساوته وحطة تعامله. راحوا ينسجون مكيدة له لقتله أثناء طريقهم ومنها يفرون بالسفينة إلى أراضي المسيحية. وهم إلى القريب من «ملافاسيا» مدينة تقع بمرمرة. ثلاثة من هؤلاء الموالي يتصارعون مع شاب فينيسي نادل يسمى "كسافان" والذي كان هو المدبر الرئيسي لهذه المكيدة. وهذا الأخير راح يكشف المؤامرة ويدلي بأسماء شركائه. وحسن وهو يصل إلى «ملافاسيا» يربط اليد اليسرى لأحد مواليه المدعو "يوسف" من جنس إغريقي إلى مقدمة عمود السفينة الشراعية ومنها راح يقذفه بالسهام، ثم أحد آخر من جنس إغريقي يدعى "عموسة" ينزع عنه ثيابه ويلقيه على سطح لوحة منزل خشبي انتزعها ويربطه من قدميه ويديه بأربعة حبال شدها إلى سفينة شراعية راحت تزيد في سرعتها ومنها قطع جسده إلى أربع قطع. وبعدها وهو يصل إلى "كورون" مدينة ب "مرمرة" تقع إلى البعيد منها بمائة ميل، راح يربط الساعد الأيمن لأحد الموالى إلى عمود سفينته ومنها يرميه بالسهام ويكبّل الباقي بالسلاسل بعد أن تركهم لمدة يترجونه في إبقائهم على الحياة لهذه المرة.

ثالثا

ويصل إلى الجزائر يوم 29 جوان 1577، اليوم نفسه لـ (رسل سانت بيار وسانت بول). وبدأ أولا (على عكس كل عدالة) بالاستيلاء على كل العبيد القادرين على دفع ديّات كبيرة، والذين هم موالي للرياس وللأتراك والموريين ورمضان باشا نفسه، وهذه كانت أحسن وسيلة ممكنة لجلب الدراهم. ولا أحد استطاع مقاومة إرادته، إلا القايد «محمد» اليهودي[1].

والذي لم يكن على قناعة بأن يؤخذ منه فارس كنسي مالطي واثنان من القساوسة والذين كانوا عبيد، والذي كان جزاؤهم أن بقوا لأربعة سنوات ونصف ذاقوا فيها الذل الكبير الذي لم ينله غيرهم من بالجزائر وبلاد البربر. وعلاوة على هذا راح يجبر الرياس والقراصنة والذين كانوا لا يسدّدون للملوك إلا السبع من استيلاءاتهم بدفع الخمس، ولم يسمح لأي أحد منهم بأن يسلح سفينته من دون أن يكون له قسط خاص به في عمليته.

ومنها راح يشتري كمية كبيرة من القمح، في الوقت الذي كانت به مجاعة بالجزائر والمملكة، راح يصنع الخبز ويبيعه، ونفس الشيء كذلك للزبد والزيت والعسل والخضروات، وراح الإنكشاريون يقولون فيما بعد وهم يرون ما يباع بالسوق أن هذه كلها له باستثناء القرنبيط والخز. وزاد في الضرائب على الموريين والأعراب، ولفترة حكمه التي كانت محددة بثلاث سنوات، كانت مجاعة كبيرة بالجزائر العاصمة، راح يجبرهم على دفعها قمحا وشعيرا. ومنها يبيعه بسائر المدن والقرى للمملكة لنفس هؤلاء الموريين والأعراب، وبها يضاعف السعر الذي سعرت به يوم تسديدهم لضرائبهم. ثم أنه راح يقوم بتجارة اللحوم، وهو يستحوذ على عدد كبير من الأغنام التي يبيعها للجزارين بوساطة من الموريين، أعوانه المتعطشين لكسب الحرام. ثم أنه راح يجمع كل السيولة من الدراهم أي (النقود المتداولة بالجزائر) ومنها راح يصك عملته الجديدة من قبل صاغة عبيد مسيحيين صاكين للنقود وحول هذه الدراهم إلى نقود تركية بالقسطنطينية أين أصبحت السيولة

---

(1) هنا أذكر القارئ أن الكاتب كان مخطئا ونحن لم نسمع يوما أن هناك يهودي يسمى باسم محمد.

غير متوفرة. والذي بقي عنده أمزجه بالكثير من المعادن المحولة ومنها صنع نقود الجزائر.

إضافة إلى أنه لم يكن يسمح ببيع الرهائن للعامة ولا بالتراضي ولا أحد يستطيع أن تسترد حريته بدفع النقود من دون أن يؤتى به إليه وإن كان يبدو له أنه لا يساوي أكثر من ثلاثين أوقية يشتريه من سيده[1]. وبعدها هؤلاء البؤساء من الرهائن لهم الحق في شراء حريتهم بآلاف من الأوقيات. وحسب ما هو متعارف عليه فإن الملوك يوافقون على لجان بيع الجلود التي يشتريها المسيحيون من الجزائر العاصمة من تركي أو موري له الحق وحده في شرائها من الأهالي وبيعها إلى المسيحيين، وهو بذلك يربح قوته ومنها يستولي على هذه المهمة بشراء أو بيع من طرف موال أو خدمه الموريين.

والعادة المعروفة أن التجار المسيحيين يستطيعون البيع بحرية بعد أن يدفعوا الحقوق. وعلى الملك إن كان يريد شراء شيء ما عليه أن يسدده بنفس القيمة التي اشترى بها الآخرون، وإن كان يريد أن تعرض عليه السلع قبل دفع مستلزماتها، له الحق في اختيار ما يريد وبالثمن الذي يناسبه وله الحق في الدفع متأخرا بعد ألف مماطلة، وتقديم كتسديد جلود سيئة والتي لا أحد يقبلها وإذا التاجر رفض ذلك فعليه أن يحجز منه كل ما يكسب.

وبهذا الطمع يفرض على الأتراك كالموريين تسديد حقوق التركة والتي كانوا غير مطالبين بها إلى حد الآن أو يتخلون عن الميراث وإلا يتركون تسديداتهم التي تمسهم جميعهم، ولكنه لا يستطيع أخذ هذا لأنهم سوف ينتفضون كلهم ضده. بينما في العدالة فتجعل منه حيوان كاسر وخاصة اتجاه المسيحيين البؤساء، خاصة إذا ضبط مسيحي يريد الفرار، فيأخذ من طرف عبيده ويحرق حيّا أمامهم، ويجلد الآخرين بالعصا إلى حد الموت. وتجدع أنوفهم وآذانهم ويجرى هذا العذاب أمامه[2]. وهو على رغبته الجامحة في الاستحواذ على زورق كتالوني والاستيلاء على طاقم بحارته المسيحيين

---

(1) حق الكفالة وأخذ الرهائن كان دائما للباشاوات، وواحد من حقوقهم اللذيذة وهايدو يتطرق إليه في الكثير من مقاطع كتابه حوار الشهداء).

(2) سرفتاس الذي كان سيده هذا الشخص المرعب رسم لنا بورتري مشابه لما رواه هايدو.

السبع، إذ راح يرسل (وهذا ما يعرفه الجميع) أتراك قاموا بإخفاء اثنين من المسيحيين الكتالونيين لهذا الزورق والذي كان «سايتي» جميل.

ومنه أرسل من يزور هذه السفينة وعند ما وجدوا الرهائن راح يستولي عليه وطاقمه ووضعهم في خدمة سفينته. وقد شنق بيديه وفي قصره وفي غرفته الخاصة واحد من عبيده الزنوج والذي قام بسرقة داخل القصر. وفي عصره وصلت سفينة «لا ليموزينا» البرتغالية إلى الجزائر مع (الأباء تيآنتا) والذين جاءوا ليسددوا حقوق حرية عبيدهم. ولكونهم كانوا يحملون معهم أربعة عشر ألف أوقية ومن قطع أربعة وثمانية ريالات، إذ يستولي من دون سبب ويبيعهم الآباء كيفما أراد، وهم لا يساوون أكثر من هذا في البلاد. وأخيرا كان بعهده الكثير من الظلم والتعذيب والأعناف والسرقات التي يشهد فيها الأتراك والموريون الله ضده. واحد من المرابوات أو «كسيس» في صلاة يقوم فيها المور لطلب الغيث والذي لم يسقط منذ عشرة أشهر (أفريل 1578 إلى غاية فيفري 1579) وهو يقول له مواجهة أن السبب يعود إلى آثامه ولذا لم يرزقنا الله بماء مطر(1).

في هذه الفترة كان بالجزائر المولى «مراد رايس» من أصل ارنؤوطي (والذين نسميهم اليوم الألبان) ابن واحد من المسيحيين سقط رهينة وعمره اثنى عشر بيدي أحد القرصان المسمى «كراكس علي» وهو واحد من مشاهير القباطنة بالجزائر(2).

---

(1) نتوقف قليلا أمام هذا الاستبداد الكبير الذي به نزكي دولة الخلافة على ما أعطت ووهبت من شياطين أبالسة. زرعوا شرورهم كيفما شاءوا وأرادوا ولا رادع يردعهم ولا خوف يستوقفهم. وأهل الديار على ذلهم وهم وان عوقبوا من رب كريم أراد لهم عزا فاستبدلوه بذل. شحت له سماء وقاسوا الأمرين من العذاب عذاب الله وتسليط مجرم عربيد عليهم لم يعرفوا له خير أو مع ذلك لم ينتفضوا ضده وكأن أرواحهم لاصقة ملتصقة به إن هو ذهب ذهبوا ..فلا خير فيهم ...و هم نيام وأعينهم صاحية....فطوبى لهم من كرماء سلموا انفسهم لكواسر بشرية تحسن النهش و النبش والقوم على بلادتهم آمون لصلاة: ..وبهم رب قطع عنهم كل تفكير وصال وجال بينهم قاطعا لرقاب وأرزاق ويأتيك من يقول أن الخلافة بقت والسلطان لا يحرك ساكنا لهذا الظلم، وأنت تراها ضحك على أذقان بهت يجادلوك في خلافة الزيف والخداع التي بها نسعد ونهنأ ....المترجم».

(2) وتهو يلقبه بـ كراسيولي أو كراجيالي، ويوم معركة دي ليبانته راح وحده يستطلع الأسطول المسيحي، وعد السفن ومنها استقرا قواتهم. هذا الحدث الشجاع منه راح يسمو به

ومراد هذا كان ولدا جد موهوب، وسيده أعطاه سفينة شراعية بها تسعة مقاعد.

من أجل مرافقته في سباقاته ولعدة مرات، أعطى البراهين على سداده وقيمته وشجاعته. وهذه الطباع كانت واضحة في سنة (1565) عندما هاجم الأسطول التركي مالطا وكان انفصل عن سيده للذهاب إلى كورسيكا بسفينته التي أعطيت له وهو يصل إلى «بيانوزا» القريبة جدا من جزيرة «إلبا»، والغير بعيدة عن «بيومبينو»، وسفينته راحت تتحطم على صخر، وهو لا يجد الوسيلة في أن لا يفقد إلا الهيكل وينقذ كل بحارته وأجهزته مما حوته سفينته الشراعية، يأمل في غنيمة كبيرة راحت تحتفظ له. إذ يخبئ بمغارة رهائنه وأشرعة سفينته ومجاذفه وأسلحته، ويقضي أربعين يوما بالجزيرة، إلى غاية وصول أربع سفن تركية لم يكن يتوقع مرورها متجهة إلى «كورسيكا» والتي عليها حمل ما أخفى ويعود إلى الجزائر أين يتواجد سيده «كراكس علي» والذي من أجل معاقبته راح يتركه لأنه لم يكن معه في الهجوم على مالطا، ويأخذ منه كل المسيحيين الذين أتى بهم. وقد كانت سببا لـ «مراد رايس» الغير مطمئن لسيده، ومنها يغادره وهو على رغبة كبيرة في إجراء السباق لحسابه، من أجل النهوض وإصلاح خسارته.

إذ يروح ينشئ سفينة من خمسة عشر مقعدا مكتملة بكل ما هو ضروري ومنها راح يجول شواطئ اسبانيا أين استولى على ثلاثة مراكب كانوا في وجهتهم إلى وهران وبهم أربع مائة مسيحي. هذا الانتصار زاد سرعة عودته إلى الجزائر وهو على فرحة كبيرة بعدما غادرها لسبعة أيام فقط. وكانت له عاطفة كبيرة من القراصنة والسكان وسيده يسلح له سفينة من تسعة عشر مقعدا ليواصل سباقه الذي راح يدر عليه بانتصارات.

وأول سفر قام به «مراد» بهذه السفينة كان برفقة «اوشالي» ملك الجزائر والذي راح في سباق بمعية أربعة عشر سفينة يستولي على أربع سفن شراعية لمالطا بالقرب من «ليكانا» بصقيلية (كما سبق وأن ذكرنا) وبعدها بقليل «اوشالي» يقتل «مراد» وبهذه المناسبة كان هذا الأخير يقود

إلى الأفق، ففي سنة 1568 عندما أراد الأمير بيومبينو الاستيلاء على بونة، كراكس علي القائد للأسطول الجزائري يهاجمه ويرغمه على الانسحاب بعد معركة شرسة .(دي تهو التاريخ العالمي مج 5 ص.509 ومج 4. ص 233).

الأسطول مع أحد القراصنة المسمى «قارة خوجة» والذي يقود سفينة من أربعة وعشرين مقعدا ويهاجمون معا السفينة المالطية «سانت آن» والتي راحت وحدها تنتظر الالتحام بالأتراك. و»اوشالي» وهو يرى نفسه غير مطاع في سباقهم وأخذ شرف الاستيلاء على هذه الغنيمة وهو قادر على ذلك بسفينته من غير تدخل «مراد». كاد أن يعاقبه بشدة ولكنه كتم غضبه. لوجه «كراكس علي» وبعد مغادرة هذا الأخير الجزائر إلى القسطنطينية. و»مراد رايس» القاطن بالجزائر راح يذهب دوما إلى سباقاته، ومنها حصل على الكثير من ما هو مفيد وغير مفيد من المسيحيين. وهاته الاستيلاءات جعلت منه ثريًا ومن كبار قراصنة الجزائر وواحد من الذين عاقبونا بشدة عن أخطائنا وذلك لم يكن لنا إلا تجربة حزينة لسنة (1578)[1]. عندما كان يخرج من الجزائر بصحبة ثمانية سفن له وقسم آخر من خمس سفن لرياس أصدقاء له. وهو يبحر محاذيا لشواطئ بلاد البربر إلى غاية «بورتو - فرينا» وهو مكان يقع إلى أربعين ميل من تونس. أين بقي لأكثر من شهرين بسبب الأحوال الجوية وممون من طرف ملك هذه المدينة إلى غاية أن تسمح لهم أحوال الطقس بمواصلة حملتهم. ومنها يمر إلى «كلابرا» بسفنه. وهو على مكوثه لمدة طويلة (حسب عادات القراصنة) بالشواطئ الصغيرة على السواحل إلى غاية صبيحة وهو يجد نفسه إلى القريب من «بوليكاسترو» أين اكتشف سفينتان لصقيلية واللتان كانتا في طريقهما إلى اسبانيا، والدوق «تيرانوفا» رئيس قبطان عام والذي يحكم «كلابرا» و»مراد» ينطلق بسرعة كبيرة في مطاردة هاته السفن الشراعية، بسفنه الثمانية وست منهن يصلن إلى واحدة منهن وواحدة كانت تسمى «سانت - اونج» والتي راحت تصل عرض البحر راح يستولي عليها بسهولة من دون أن يستطيع أحد الهرب. و»مراد» بسفينته وواحدة أخرى تتبعه يهاجم سفينة قبطان صقيلية التي يتواجد بها «تيرانوفا» وهو يرى نفسه أقل قوة من عدوه راح يتجه إلى جزيرة «كابري» والتي تبعد بثلاثين ميل عن «نابولي». وهو يصل راح يسرع في النزول إلى الأرض وينقذ الكثير من الركاب والطاقم ويترك السفينة والأجهزة المرافقة لها ليسيطر عليها الأتراك والذين راحوا يهاجمون «آف - ماريا» مساء. هذه العملية المغامراتية زادت من رصيد وشهرة هذا المولى

---

(1) في هذا السباق أخذ هايدو، ونحن هنا أقل تأكد من نفس التاريخ والعبارات الشخصية الذي يأخذ بها الكاتب هي دليل على تواجده والتي تزيد في قيمته.

والذي عاد جدَ مرتاح من دون أن يقوم بأي شيء في هذه اللحظة[1] وعندما وصل إلى الجزائر في شهر جوان الملك حسن الفينيسي يأخذ منه سفينة الدوق التي استولى عليها والتي راح يسحبها إلى اليابسة لإصلاحها واستعمالها فيما بعد والتي راح يستعملها منذ تلك الفترة إلى الوقت الحاضر.

ونعود إلى سردنا ومع ما الذي فعله «حسن» فترة حكمه. قبل كل شيء والأمل في أن يكون مخيفا للمسيحية على أساس أنه قرصان كبير، وقد راح يخرج من الجزائر يوم 20 جويلية 1578 بصحبته خمسة عشر سفينة شراعية وأخرى غير شراعية وينطلق إلى رأس «ماتيفو» أين غادره يوم 30 من نفس الشهر، يرفق معه كل السفن التي جاءت للانضمام إليه. أي اثنان وعشرين سفينة شراعية وأخرى غير شراعية وأربع فرقاطات.

ويصل إلى غاية جزيرة «مايوركا» أين قام بإنزال قواته يوم *1* أوت للاستيلاء على قرية صغيرة قريبا منها. وما أن بدأ الأتراك في نهبهم حتى وصل فرسان ورجال يحملون سهاما لجزيرة «مايوركا» ومن مناطق أخرى وقد راحوا يرغمونهم على الركوب. بعد آن اختطفوا على أي حال ثلاثين شخصا، اغلبهم نساء وأطفال. ومن هنا راح يصل إلى «إفيسا» أين قام بالإنزال. ويصل الأتراك إلى غاية تحصينات المدينة أين فقدوا ستين رجل وأرغموا على الانسحاب. ومنها اتجه بعدها إلى «آليكانت» ويلتقي بالقرب من هذه المدينة سفينة من عيار ستة آلاف «سالاما» والتي آتت من «جنوة». ويستولي عليها بسرعة ومعها طاقمها. ومنها يستحوذ على بضائع جد ثرية كانت بها ومن دون آن يواصل سباقه يعود إلى الجزائر ويصلها يوم 11 آوت. إذ ونحن نعد اليوم الذي انطلق فيه من «ماتيفو» يوم 30 جويلية إذ لم يبقى إلا إثنى عشر يوما

---

(1) مراد رايس كان واحد من الأوائل، الذين على رغم ما نصت عليه الاتفاقيات وأوامر السلطان الأعظم، هاجم السفن الفرنسية. وراسه كانت مطلوبة من سفرائنا. ولم يكن له ما يمنعه إلا تغيير إقامته. ونقرأ رسالة أخرى للسيد دي جيرميني إلى هنري الثالث: «توصية سريعة كانت قد أعطيت لتوقيف ووضع الحديد لهذا المتغطرس والمسمى مراد رايس قرصان كبير لساحل بلاد البربر والذي كان المسئول الأول عن الاستيلاءات والسرقات مع الاستيلاء على أملاك وأغراض وسلع وعبيد يتواجدون بين أيدينا. «المفاوضات، مج 4، ص 124.

للذهاب والإياب من هذا السفر. وكان هذا السفر هو الأول والأخير لفترة حكمه.

رابعا

وفي الشتاء القادم (الملك البرتغالي دون سيبستيان كان قد مات). والملك «فليب الثاني» لإسبانيا كانت لديه الرغبة في الاستيلاء على البرتغال بعد وفاة الكاردينال «دون هنري» خليفة «دون سيبستيان». وهو يعرف الانقسامات التي هي بالمملكة حول موضوع خلافة العرش و» فليب» يحضر ويعدّ التحضيرات الكبيرة للحرب لإعطاء مصداقية لطرفه. وربيع (1579) كان قد جمع الكثير من القوات والسفن بكل الأندلس. وبميناء «كاديكس» والأماكن الأخرى. وعندما علمت الجزائر بهذه الحشود والوصول الدائم للقوات إلى اسبانيا والتي تحصل بجموع من الزوارق والسفن الشراعية محملة برجال المشاة والذخائر والتي يلتقي بها القراصنة يوميا وبكل الجهات. أخذ الجزائريون بهلع كبير وعام[1]. إذ اعتقدوا أن هذه التحضيرات تنظم ضدهم، ومنها حسن باشا راح يسارع في تحصين القلعة التي بناها حسن ابن بربروس والتي تبعد بميل واحد على العاصمة على المرتفع الذي به نصب به (كما قلنا سابقا) «شارل كانت» علمه عندما جاء لمهاجمة الجزائر في سنة (1541). وقد فصلنا ذلك بكتاب (طبوغرافيا الجزائر) الذي نقدم فيه للقارئ هذا التحصين الكبير بقصره الدائري وقلاعه الأربعة المربعة وسطحه المفروش وحصونه التي تشكل مشروعا قائما بذاته. لا ننسى بهذا الإنشاء الذي تواصل قرابة سنة (1579) والبعض من سنة (1580) وحسن راح يظهر عنايته وحيويته، وقد تواجد منذ الصباح إلى غاية الليل يحث فيه المسيحيين والمور واليهود على العمل بجد، وهو يحدد لهم كذا من الأشغال يوميا. وفي نفس هذه الفترة أي بين سنة (1579) و(1580) كانت هناك مجاعة جعلت من الناس يتساقطون كالذباب كبير وصغير وعدد غير محدد من فقراء المور وأعراب العاصمة. وكان لـ»حسن» أن يتصدق لكل الموتى بكفن من القماش المزدوج أو قماش ثخين لدفنهم. إذ نسجل أنه من تاريخ 17 جانفي 1580 (يوم عيد المور والذي يسمى لديهم بعيد الكبش) إلى غاية 17 فيفري مات بأنهج الجزائر من جراء المجاعة خمسة آلاف وست مائة وخمسين موري أو عربي فقير. وخلال هذه السنة والمنتصف من الأخرى، كان يتلقى أخبار القوات التي راح يحشدها الملك الإسباني والتي

---

(1) انظر المفاوضات التي أشرنا إليها مج 3، ص. 756، 764 إلخ.

راحت تجمع بـ «كاديكس» ومناطق أخرى ورغم كل الآراء التي يستقبلها، الأتراك والميليشيا لم يكن يعلمون ضد من هذه القوات تجمعت، وهذا ما أوقع هلعا كبيرا بالعاصمة. و«حسن باشا» لم يتوقف في إرسال عدد كبير من السفن الشراعية والغير شراعية والفرقطات تراقب السواحل الاسبانية، وعندما يجيئونه بمسيحيين كان يبدو له ذلك برهان لا غبار عليه، إذ يغلق الأبواب عليه معهم بغرفته ويروح يتعبهم بطلباته، ولا يتوانى في فعل أي شيء للحصول على الحقيقة ولم يكن أبدا مطلعا عليها إلى لحظة توغل الجيش الاسباني في الأراضي البرتغالية.

وبينما كان هذا الخوف الكبير يملك القلوب، راح حسن ينبه السلطان و«اوشالي» بالمخاوف التي هو عليها من الأسبان ويطلب لذلك نجدات[1].

وكما سبق وأن قلنا أن ملك فاس تحالف مع المسيحيين ضده وقد أرسل أحد مرابطي الجزائر لإقناعه بأن لا يفعل ذلك. ومن جهة أخرى فإن طمعه لم ينتقص وأن تجاوزاته التي كان محلها القرى الداخلية كانت جد خطيرة ومتواصلة على الدوام. والإنكشاريين لم يكونوا يستطيعون إخفاء شكاويهم الموجهة ضده. وهم على هذا يكتبون مذكرة طويلة حول أخطائه وسوء إدارته ويبعثون بها إلى السلطان على ظهر سفينة شراعية أين أرسلوا بها بعض أشخاصهم الأساسيين من مور الداخل و«سيدي الطيب» المرابط و«كيس»[2]. المسجد الكبير مصحوبا بثلاثة «بولوك باشي» الأكثر أقدمية كلهم مكلفون بإعلام السلطان بما يجري ويطلبون الاقتصاص من حسن ويرسل إليهم بملك جديد.

---

(1) إذن راح يطلب النجدة من فرنسا. والسيد دي جيي يراسل من القسطنطينية السيد فيلروي يوم 19 ماي 1579 ليعلمه بأن العلج علي كان قد طلب منه وبناء على رغبة حسن من أن يطلب من الملك السماح بإقتناء ذخائر الحرب وتجهيزاته من مرسيليا. والسفير يعلم لجدوى لذلك فالملك قد قدم طلبا رسميا وكان حسن ينظر إلى الفرنسيين بنظرة بها سيرة حسنة فأننا نستطيع أن نحصل له ما أراد. (المفاوضات مج 3 ص. 800).

(2) هذا اللقب الذي أعطاه الكاتب أرهق فكري وقد رحت أجد له مخرجا صحيحا وهو أنه كان يقصد إمام المسجد الكبير والذي في كل مرة يكتب بشكل مغاير للأول ...المترجم).

خامسا

هذه السفينة الشراعية تنطلق بالمندوبين وشكواهم المكتوبة ضد حسن. يوم 16 نوفمبر 1759 ومكثت بنزرت لبعض الوقت في انتظار «رمضان باشا» والذي وهو يسمع الخبر ويعرف الورطة التي سوف يكون عليها مولاه والذي عيّنه هو ملكا على الجزائر. راح يبحث عن طريقة يردع بها المندوبين من الأتراك والمور أن لا يقدموا شكاويهم إلى السلطان. ولكن وهم جدّ مهاجمين باستبداد حسن لم يستكينوا له. والسفير يأتي إلى السلطان والذي وهو يعلم بتجاوزات الباشا يعدهم بعقابه عقابا لا مثيل له.

و«اوشالي» ولكي يعطي لهم رجلا قادرا على معاقبة حسن وحكم الجزائر. وكان «جعفر باشا» مولى مجري وعبد والذي كان يخدم الملك وقد حمله الملك بين يديه أيام طفولته وهو يملك من السمعة الطيبة ما جعلته عادلا. وفي هذه الأثناء راح يزيح بالجزائر بعض القياد ووجهاء أتراك والمور الذين تعسفوا وقدموا ذكرى سيئة وهم يواجهون تلك التي هي للميليشيا ويرسلون إلى «اوشالي» قبل أن يصل «جعفر باشا» إلى القسطنطينية. والقبطان باشا راح بهذه الذكرى يرتب لقاء له بأم السلطان وهو يقدم إليها هدية بقيمة ثلاثين ألف أوقية. وتتعهد له بأن تتحدث لإبنها بأن يخفض من غيظه. وفي هذه الأثناء يصل «جعفر باشا» ويحمل من الملك بأن يقوم بتحقيق بالجزائر حول تأكيدات متناقضة. ففي حالة أن كان حسن متهم فعلا عليه بأن يقطع رأسه فورا. ولكن «اوشالي» راح يتوافق مع أم السلطان التي أمرت «جعفر» بأن يكون طيبا على أي حال بحسن وفي نفس الوقت «اوشالي» سلم لـ«جعفر» ألف أوقية كعلاوات لسفره حتى يكون تصرفه هادئ.

وفي شهر أفريل لهذه السنة يخرج «مراد رايس» مع أحد القراصنة والذين راحا يأخذان وجهة الشواطئ الرومانية. ويصلان إلى مكان يدعى «جناتي» (مرفأ توسكان). وهنا يريان سفينتين شراعيتين للبابا واللتين راحتا تسيران على طول الساحل في رحلة استجمامية مع قائدهما الذي عيّن حديثا من طرف «غريغوار 13» و«مراد» الذي لم يكن يملك إلا سفينتين، ولم يكن قادرا على مهاجمة السفينتين المسيحيتين كان مترددا ولكن جاء الحظ، وهو يرى وصول القرصانان «عمورة رايس» و«فيري رايس» على ظهر سفينتين

أخيرتين. ومنها راح يظهر لهما مشروعه وهم الأربعة يتوصلون إلى مهاجمة سفن البابا والتي جاءت لتتوقف بمرفأ «سانت إيتيان»، ولا يشكون فيما سوف يكون حالهما، بحيث أن الجنرال والقسم الأكبر من العساكر نزلوا أرضا للقيام بالصيد والآخرون للهو و«مراد» ورفقائه وهم يجدون السفن الشراعية متروكة لحالها يأخذونها من دون صعوبة ومقاومة ومنها يقتادونها وقد كان بهما الكثير من القساوسة ورجال الدين المعاقبين على أخطائهم. والحقيقة أن الأتراك كانوا قد ألقوا القبض على القليل من الرهائن لأن الباقي من الطاقم المتواجد استطاع الفرار بنزولهم على الأرض بواسطة مراكب لحظات قصيرة عندما استطاعوا ذلك. «مراد رايس» يعود إلى الجزائر بهذه الاستيلاءات. ويصل في شهر جوان ويقتسم الغنائم مع شركائه ويعطي من قسمته لكل واحد يلتقي به. وقد أستقبل بحفاوة كبيرة من سكان المدينة. «حسن باشا» يأخذ له سفينة قبطان البابا ويعمد إلى غلق الممر بين المنارة واليابسة.

«جعفر باشا» يصل إلى الجزائر يوم 29 أوت 1580 ولا يهتم بأمور حسن ويتركه حرا طليقا. وهذا الأخير ينطلق من الجزائر يوم 19 سبتمبر متبوعا بإحدى عشر سفينة. أربعة تعود ملكيتها له ولرئيس ديوانه. وكلها مليئة بعبيده ومواليه وسبعة للقسطنطينية والتي كانت مواكبة لـ«جعفر».

وعند مغادرته كان رجلا لسن خمسة وثلاثين. ذو قامة طويلة وعينان تلمعان بخبث. مع أنف حاد وخياشيم واسعة. وشفاه رقيقة ولحية غير كثيفة تميل إلى الحمرة. وكل سحنته تظهر طبعه الشرير. كان له من مولاة عبدة طفل مات في سنته الأولى. ودفن (مع أحد من أبناء أخوته الذي جاء من «فينسيا» لرؤيته. وقد جعل من نفسه تركيا بطلب منه وقد مات عام بعده) بقبة جميلة بنقوشها والتي نجدها هي الأولى ونحن نخرج من باب الواد. وكان له بنت لثلاث سنوات والتي ولدت بالجزائر. وهو يصل إلى القسطنطينية راح يأخذ الحماية من «اوشالي» صاحب النفوذ القويّ. وخاصة حماية أم السلطان، ونسيان كل الأعمال القاسية التي ارتكبها زمن حكمه للجزائر.

الفصل الثاني والعشرون

جعفر باشا، الملك الثالث والعشرين

أولا

جعفر باشا الذي راح يحكم الجزائر في هذه اللحظة (1581) كما قلنا كان هنغاري[1] وقد أخذ وهو صغير ومعه أمه، وأخ كبير وأخت في اجتياح للأتراك لهنغاريا. ونظرا لكونهم جميعا ذووا طلعة بهية، راحوا يقدمون إلى أم السلطان التي تحكم الآن. وقد أصبحوا خدما بقصرها وزمن صغر الملك الأعظم «جعفر» الذي كان مولى وعبدا يحمله دائما بين يديه. وهذا ما أعطى له عاطفة خاصة من الملك الذي لا يتأفف من أفعاله، وهو يتولى العديد من الحكومات ومن بينها «باشا ليك» جد هام بهنغاريا. وكان يظهر دائما بمظهر العادل والمنصف، والهادي والمحبوبِ وفي نفس الوقت القاضي العادل والمخيف للصوص. والحاصل أن زمن تسلم السلطان (كما سبق وأن أشرنا) لشكاوي آتية من الجزائر، راح يرسله لمعاقبة «حسن باشا» الفينيسي الذي مارس الكثير من الاستبداد ويختاره كقادر على بسط العدل واستقرار المملكة التي قربت على الضياع. ويصل إلى الجزائر كما سبق وأن قلنا يوم 24 أوت 1580 ورضى الجميع كان كبيرا للأسباب التي كنّا سردناها. والواقع أنه عمد إلى سجن بعض القياد الأتراك مثل القايد «داوود» والقايد «بن دالي» والذين أتهما بالتواطؤ في بعض الأخطاء التي ارتكبها حسن

---

(1) السيد دي مايس يكتب إلى هنري الثالث في شهر مارس 1586: «إننا نشك في موت جعفر باشا والذي كن مولى للملك، ولد بدياب وكان محببا بينهم وهو رجل شجاع «مفاوضا فرنسا مج 3 ص.373). بعد وصوله إلى الجزائر، كان قد عين باشا بطروس لقياد الجيش الذي سيحارب الفرس.

ولكن بعد أيام أطلق سراحهم وهو لا يجد الدلائل. ومنها راح يهدّئ كل أتراك ومور الجزائر والمملكة واعدا بالسلم والعدل والقسط ويقول أنه لم يأتي إلى الجزائر للثراء، وهو يرى أن له ما يكفيه إلى آخر أيامه، إذ لم يكن له أبناء ليترك لهم الميراث إذ جلب معه أمه والتي كما يؤكدون سكان إقامة الملك على أنها كانت حدثا له سمعته بالجزائر وقد كانت عاشت على مسيحيتها كتركية أو مولاة.

والذي يحمل معه أخاه الصغير عبدا ومولى مثله إلى غاية 8 مارس 1581 التي توافق ثمانية أشهر من حكمه وفي اللحظة التي كنت أكتب هذه السطور[1]. لم نلحظ به أي رغبة أو شرور، ولا نعلم أنه فعل شرا بأحد.كان جد عطوف على المسيحيين.

وإذا أوتي له بواحد أراد الفرار (وهذه عادة في الذهاب به إلى الملك) أو أراد الاستيلاء على زورق للهروب يطلق سراحه بعد أن يجلد لعشر أو اثنى عشر أو خمس عشر من الجلدات بالعصا.

بينما عبيده فقد أعطى الأوامر لحظة توليه أن لا توضع عليهم السلاسل وأن لا يضربون إلا من أمر عاجل منه، وقد راح يزودهم بالجديد من الثياب والطعام الطيب.

وكل الخمر الذي يعود إليه في حقوقه من السفن المسيحية لا يبيعه بالجزائر بل يوزعه على العبيد عوض أن تسدد له أثمانه كما كان يفعل سابقوه. وراح يعلم كل التجار المسيحيين وأباء «لا ليموسن» الذين يتواجدون بالجزائر أن يراسلوا اسبانيا وكل المسيحية بأن يأتوا بحرية للتجارة أو لشراء العبيد وهو يعدهم بالأفعال وليس كما كان يفعل «حسن باشا» لكونه لم يأتي إلى الجزائر للثراء ولكن لإقامة العدل بين الجميع و الخليفة

---

(1) من الأحسن ذكر هذه الجملة التي تؤكد لنا بوضوح أن هايدو كان يكتب كتابه التاريخي زمن القبض عليه بينما الكتاب لم يصدر إلا في سنة 1612 وانطلاقا من هذه اللحظة لم يكن يتحدث إلا بقول وعلينا بأن نتأكد بأن أقواله صحيحة والتي غالبا ما تكون بثت إليه من أناس استعلموا خطأ هم أنفسهم وهذا ما يفسر لنا بعض الأخطاء الدائمة والتي نتعقبها منذ تاريخ 1582.

الذي أتى به من القسطنطينية كان قد قام إحداث شكاوي من طرف نزلاء مسكنه لخفته ومكائده طرده وعوضه بآخر .

وبعض الإنكشاريين الذين راحوا يشتكون من أغاهم (والذي جاء من القسطنطينية مع جعفر) كان قد أحدث بعض التجاوزات بأن حرمهم من تسديد رواتبهم وطالب من آخرين الدراهم والهدايا، راح يخصم من رتبه بعد أن تشاور وتوافق مع الميليشيا، وهذا الإجراء لم يكن أحد من الملوك أحدثه وذلك في بداية شهر أفريل من سنة (1581).

ثانيا

والحاصل أن هذه الإجراءات المتخذة ضد الأغا والخليفة والتي بها طردهم وتحادثه مع القايد التركي «بن دالي» والذي كما سبق وأن قلنا سجن من طرف الملك يوم وصوله من القسطنطينية وكذا القايد «داوود» بعد أن حشروا في أخطاء حسن باشا. و«بن دالي» في لحظة مغادرته الجزائر برفقة «مهالة» بعدد أربعمائة تركي والتي كان على رأسها كان قد راح يعاقب أعراب منتفضون. والمتآمرون راحوا يأخذون العفو منه (إذ راح يخصص تجمعا كبيرا لاعتقاله). ومنها راح يدفع ثمنا غاليا للإنكشاريين والعساكر المؤتمرين بأمره ويقال أن أحد موريي الجزائر كان جد غنيّ يدعى «كاكسيس» كان قد قدم هذه الدراهم. من أجل أن يأتون إلى الجزائر لقتل الملك وكانوا قد توافقوا على أن يأخذ الأغا مكانه والخليفة يخلفه في غيابه، أي بمعنى نائب الملك و«بن دالي» يكون بغليار بايه أو القبطان العام للميليشيا. وكانوا قد وعدوا «كاكسيس» القيادة ومكافأة كبيرة.

ولنجاح هذا المخطط، الأغا والخليفة والذين كانا ولمدة طويلة انكشاريين كانوا قد حافظوا لأنفسهم أصدقاء كثيرين ومطيعين بالميليشيا وخاصة بـ«المهالة» التي يقودها «بن دالي» يقومون ببث تصوراتهم ورغباتهم لأتباعهم ويرغبونهم بعطاءاتهم ووعودهم بحيث أن الكثير منهم أنظم إلى مجموعة المتآمرين، ومنها راحوا يوعدونهم بجلب آخرين إلى صفوفهم أثناء الحملة. و«بن دالي «راح يتحمل مسؤولية قرارهم وهو على بعد ستة أيام من الجزائر وبه رغبة الانتهاء، إذ راح يقدم تسبيقات لأغلبية هؤلاء الجند والذين أصبحوا ناهمين بوعوده والأمل في الثراء (هذا ما كان هؤلاء البرابرة يطلبونه) ينظمون إلى حزبه.

ولكنه وهو الذي أعطى أمره لأربعة من العساكر القدامى (بلوك باشي)، هؤلاء كان ردهم أنه: حتى وإن كانت حياتهم في خطر فإنهم لن يوافقوا على الخيانة الشريرة إتجاه السلطان. هذا الوفاء أعاد الأمور إلى نصابها ومنها يوضع الحديد للقايد «بن دالي» ويعلمون الملك بما سوف يجري. وهذه المذكرة وصلت إلى الجزائر يوم 30 أفريل، والملك وهو يستقبلهم راح بسرعة وفي سرية تامة يوقف الأغا والخليفة والذين سجنوا بسجن آمن بقصره. وكبلهم بسلاسل ثقيلة إلى سواعدهم وأعناقهم وعزل الواحد عن الآخر. ومنها أعلن

أمام الجميع سبب سجنهم وأظهر الرسائل التي كتبها الإنكشاريون في هذا الموضوع. ويرسل بسرعة شاوش محملا برسالة منه إلى هؤلاء بها أمر بالقضاء على «بن دالي» بقطع رأسه. وفي الليلة المقبلة والتي كانت الفاتح من شهر ماي وبمنتصف الليل الملك يخرج من السجن الخليفة والأغا ويقطع رأسيهما تحت نفق ومنها يقوم بدفنهم بالحديقة (الجنينة) والتي تحاذي قصره ومع مجيء الصباح راح يبث خبر فرارهم وينشر أمرا بأنه سوف يقدم يسلم مائة مضاعفة لكل راتب شهري وألف مضاعفة مكافأة لكل من يجيئه بهما أو يأتيه يحدثه عن المكان الذي هم به.

ويوم 8 ماي يصل بعض الإنكشاريين المبعوثين من طرف أصدقائهم «المهالة» على رأسهم «بن دالي» والذي حجز الملك كل ممتلكاته، وهو ما فعله قبل ثلاث أيام من قبل لكنوز وعبيد الأغا والخليفة. و«كاكسيس» راح يختفي لبعض الوقت ويجد بعدها بعض الوسطاء الذين احترزوا له على العفو عن هذه الجريمة وذلك بأن سلموا للملك «جعفر» كمية كبيرة والتي حسب ما أكد لي تصل إلى ثلاثين ألف دوكة.

ثالثا

وفي نهاية شهر ماي يصل إلى الجزائر «اوشالي» وبمعيته ستين سفينة شراعية إلى «الفنال»، كان ذاهبا إلى غزو مملكة فاس وهو يريد أن يطرد الشريف عقابا على إرادته السيئة اتجاه الباب العالي (كما سبق وأن قلنا في الفصل 20).

اوشالي الذي يمقت جعفر باشا لأنه لم يتعامل جيدا مع ما طلبه حسن الفينيسي يأخذ فرصة تواجده الضروري، والمكان الذي هو به بأن يتصور الأشياء الضرورية لعمليته هذه، وغرضه أن يسلبه من الكثير من عبيده ودراهمه. وهذا ما سبب للملك حرجا وعدم رضى وهو مجبر على الرضوخ. واوشالي كان أكثر شأنا من كل الحكام مقاطعات الأمبرطورية، والسيد المطلق في كل ما يخص الشؤون الحربية. وهو يريد أن يأخذ معه ميليشيا الجزائر في حالة الحاجة لحملته ولغرض الانتقام والثأر منهم للشتيمة والسبة التي تلقاها عندما كان يحكم الجزائر، أين كان مجبرا على الهروب من أمام الموت (كما سبق وأن قلنا).

وعندما أعطى أوامره لهم بالصعود، هؤلاء كانوا لحظتها يخافون حقده ومنها راحوا يرفضون وهم يصرحون بأنهم لا يأتمرون إلا بأمر السلطان ويضيفون بأنه من الغير صحيح إعلان الحرب على ملك عادل مثل شريف فاس والذي لم يقم بأي سوء ضدهم وأنهم لا يرون أي شكوك مستقبلا. ويطلبون من «اوشالي» أن يرسل بسرعة خمس سفن شراعية لإعلام السلطان بما يحصل.

وهذا الأخير يقبل بهذا الاقتراح ويرسل بهاته السفن بسرعة تحت قيادة مولاه «مراد أغا».

وبهذه السفن إنكشاريين يبعثون بـ«مرابو» عيّن من طرفهم ويدعى «سيد بوتيكا» مع رسائل إلى السلطان، أين راحوا يبدون له أسباب سيرته هاته ويترجونه بأن لا يسمح لـ «اوشالي» الأكثر حدّة وجسارة بأن يستولي على فاس، لأنه إن هو غزا هذه المملكة، سوف يجد لنفسه قوة مسلحة قويّة وهو الآن سيدا على طرابلس، أين يحكم أحد مواليه ومنها سوف ينتفض بسهولة

ويصبح سيدا لكل بلاد البربر[1]. والسفن الشراعية تغادر الجزائر نهاية شهر ماي وتصل بسرعة إلى القسطنطينية وهي لم تتوقف إلا ب «مادون» و«غاليبيا».

ومع بداية نفس الشهر كان «مراد رايس» الذي راح يغادر الجزائر برفقة ثمانية سفن شراعية متتبعا سواحل بلاد البربر انطلاقا من «بينون» إلى غاية المضيق. ومنه يصل إلى «لاغوس» أين التقى بسفينتين لـ «البروتان» والعائدة محملة بالملح وبها أكثر من مليون من قطع أربعة وثمانية ريالات. ومنها حاصر هاتين السفينتين بأسطوله وأطلق نيرانه الكثيفة من مدفعيته ورمي بالنبال ولكن رغم الدفاع المستميت لـ«البروتان» الذين ردوا على الأتراك بإطلاق نيران كثيفة (خاصة وأنهم جد مسلحين) وبعد معركة شرسة بين الجانبين استطاع الأتراك أن يغرقوا واحدة من سفنهم والتي لم يسلم منها إلا أربعة عشر فردا والذين ألقي عليهم القبض. والأخرى راحت تقاوم ولكنها في الأخير أجبرت على الاستسلام وتسقط بيد «مراد رايس» والذي بهذا الاستيلاء الثريّ نقودا وأشخاصا يعود إلى الجزائر ويصلها يوم 24 أوت. أين وجد «اوشالي» ومنها وجد نفسه مضطرا إلى تسليمه قسط كبير من النقود والاستيلاء لغرض كفايته بنفقات التسليح. وفي هذا الوقت «آرنؤوط مامي» قبطان الجزائر يروح في سباق بمعية أربعة عشر سفينة شراعية، وبعد شهرين من إرساليته، لم يتمكن من الاستيلاء إلا على واحدة لمسيحي أعمى بجزيرة «تيرسيا» ومنها يعود إلى الجزائر نهاية جويلية، ويجد أن الخمس سفن التي كانت بالقسطنطينية مع المرابو «سيد بوتيكة» المرسلة من طرف الميليشيا.

وهذه السفرية لم تدم أكثر من شهر والسلطان «أحمد» كان قد أرسل أمره إلى «اوشالي» بأن يتخلى عن مشروعه والذي راح يصرح به خارج عن إرادته، ويهدده بجز رأسه إن هو تطاول ولم يؤتمر بأوامره.

---

(1) هنا هايدو يظهر لنا بوضوح المعارضة التي تبديها الميليشيا لمشروع تجمع واتحاد كل المماليك لأفريقيا الشمالية. وهي تتقاسم تخوفاتها التي بها الغيرة والحسد والباب العالي يفقد فرصة تأمين توسعه بالبحر الأبيض المتوسط وتترك الباشا ليك للسواحل البربر سك ضحية خلاف وعدم الطاعة واللانظام. وبعدها وهذه الولايات ترى نفسها تتقلص واحدة واحدة من طاعتها. هنا تتأسف للماضي.

و»اوشـالي» يغـادر الجزائـر بنـاءا علـى أوامـر السـلطان الأعظـم. ويصـل إلـى القسطنطينية مع أسطوله فـي شـهر أكتوبر[1]. ويهتم بنشـاط وبكـل الوسـائل المتاحة من أجل تعيّين الحاكم الجديد مولاه حسن الفينيسي[2] وتحقيق هذه النتيجة في أيام معدودات. و»جعفر باشا» كان قد حكم لمدة عشرين شهرا تقريبا من شهر أوت 1580 إلى ماي 1582. وذهب في شهر جوان برفقة ست سـفن، اثنتـان كانتـا لـه والأربـع هـي التـي رافقـت «حسـن باشـا» خليفتـه فـي مجيئه. وعند مغادرة «جعفر باشا» الجزائر كان يبلغ من العمـر السـتين سـنة. وهو ذو قامة طويلة وقوي البنية وعبد، عادل ومنصف وأكثر رفقا بالرهائن المسيحيين أكثر من كل الذين سبقوه.

(1) الأهالي راحوا ينتفضون والبلد تسقط ضحية الفوضى التامة.(انظر المفاوضات، مج 4 ص. 85).

(2) حسب رسالة من السيد دي جرمنيا وإلى كاترين دي مديسيس أنه كان رمضان الذي سمّي حاكما للجزائر: «والقيادة كانت أعطيت وأوصيت إلى رمضان باشا الذي غادرها برتبة نائب ملك الجزائر والذي كثيرا ما راسل السلطان للقبض وقيادة ما يسمى الرايس مراد القرصان الكبير وتكبيله بالحديد وغيرها..» (ن. م مج 4 ص. 124).

الفصل الثالث والعشرون

حسن باشا الفينيسي الملك الرابع والعشرين

أولا

باشا حسن يعين لثاني مرّة بعد الإلحاح الكبيرة الذي فعله سيده «اوشالي». إذ يغادر القسطنطينية برفقة إحدى عشر سفينة منها ستة له وأربع لسيده في شهر أفريل 1582 ويصل إلى الجزائر في شهر ماي[1]. وقبل مجيئه في شهر مارس «مراد رايس» خرج بمعية تسع سفن شراعية يبحر بمحاذاة السواحل الإسبانية من دون أن يستولي على استيلاءات. وبعد أن تجاوز رأس «سانت فانسان» راح يلتقي سفينة شراعية تدعى «المتجددة» كانت قد انفصلت عن التسع سفن التي كانت تحفظها من عاصفة فجائية حدثت مساء. والسفينة الشراعية المسيحية وهي ترى أن التسع سفن التركية، ظنت أنها المرافق لها ومنها سقطت بسهولة بأيدي العدو. «مراد» يضع على استيلاءه بعض الانكشاريين ومنها ينطلق إلى «تنس» المدينة الواقعة إلى غرب الجزائر على مسافة مائة وعشرين ميلا، ومن هنا يأمر بتوجيهها إلى العاصمة، ويتجه إلى «آلكانت» بسفنه. وخلال الإبحار واحد من الرهائن المسيحيين يقدم له عرضا مقابل حريته، وذلك بأن يساعده على الاستيلاء على تجمع يقع بين «آلكانت» وجزيرة «بندورني» وهو في طريقه

---

(1) انظر إلى المذكرة السابقة. الأشياء لم تكن جرت كما وصفها هايدو: رمضان يعيّن ويأتي إلى الجزائر أين السكان راحوا يتظاهرون ضده، وهذا ما تؤكده رسالة من السيد مايس إلى الملك بتاريخ 30 أوت 1584.

حسن آغا يغادر الجزائر وسكان البلد راحوا يسمعون السلطان الأكبر على أنهم يودونه أكبر ولا يريدون حاكما عليهم غيره. وكانت هناك انتفاضة كبيرة بينهم. (ن. م. مج 4 ص 213).

إلى مسافة ثلاثين ميلا شرق «آلكانت». «مراد» يقبل المقايضة ويبحر ليلا برفقة ستة مائة رجل يحملون البنادق ويتوغلون لعدة أميال داخل الأراضي، ويعمدون إلى اجتياح ونهب هذا التجمع السكاني، ومنها يلقون القبض على أكثر من ستة مائة شخص كبار وصغار. هذا مثل لما ينطوي عليه القبض من مآسي كبيرة لكون الذين هم على سدة حكم هؤلاء اللصوص المارقين، يجعلون منهم مصباح لكي يضايقوننا!.

ومنها يعود إلى الجزائر برفقة رهائنه وغنيمته ويصل في جو هادئ يوم 1 جوان. و«حسن باشا» يتوعد بحدة كل الرياس لكونهم أصبحوا يخجلون ولا يقومون بواجباتهم وتوقفوا عن إجراء السباقات (باستثناء مراد رايس). ويصرح لهم بأنه ابتداء من الآن، عليهم أن يكونوا كالعهد السابق، ويأمرهم بإصلاح سفنهم ويجمعهم بميناء الجزائر أين يوجد اثنان وعشرين سفينة شراعية وسفن أخرى وأن ينطلقوا دون تأخر وهم معهم ويتجه نحو جزر «سانت بيار» بـ «سردينيا» على الشواطئ الصغيرة أين راحوا يختبئون مع عقد نيتهم بمهاجمة تجمع صغير يسمى «إغليسيا». ولكن سكان الجزر يكتشفونهم وراحوا يصدونهم بقوة السلاح. ومنها يغيّرون وجهتهم ويأتون إلى شاطئ «اوريستان» بالمملكة وهناك ينزل ألف وخمسة مائة رجل حاملين لبنادق وهم يمسكون بأحد الرهائن دليلا لهم ويتوغلون إلى مسافة أربعين ميلا إلى الداخل ويجتاحون تجمع سكاني يسمى «بلودونيا» أين يلقون القبض على سبع مائة شخص. وبما أنهم كانوا يحلمون ألف وخمس مائة فارس والكثير من المشاة، فقد راحوا يغادرون وقد خسروا حوالي ثلاثين تركي والذين قتلوا أثناء مرورهم بخناق. و«حسن» ويركب وسجنائه يمر إلى جزيرة «مال دي فاتر» المقابلة لـ» اوريستان» ويرفع علم المقايضة والبيع والذي جعل من سكان المملكة يسارعون للمفاوضة باستعادة مخطوفيهم الذين استوقفوا، ويطلب منهم ثلاثين ألف دوكة ولكن السردنيين لم يكونوا ليدفعوا له إلا خمس وعشرين ألف دوكة، ومنها يوقف السوم وينطلق وهو على غضب كبير إلى جزيرة «لا آزيرانا» أين راح يقتسم السبع مائة رهينة بين الذين استوقفوهم وراح يصلح سفنه. ومنها يجتمع برياسه ويطلعهم على ما هو قادم على فعله، وقبل الانتهاء من الجلسة، جاء رهينة كورسيكي يعرض عليه مقابل لحريته بأن يتصرف كي يمكنه من الاستيلاء على تجمع سكاني كورسيكي ثري يسمى«مونسيلو» ووعده

بطلاق سراح هذا المسيحي إن كان عرضه صحيح، ومنها ينطلق حالا، وهو ينزل ليلا ألف رجل من الحاملين للبنادق ويجتاح وينهب التجمع ويلقي القبض على أربعة مائة شخص ومنها يركب من دون مقاومة ويتجه بسفنه آخذا طريق «جنوة» وجاء صباح يوم أحد وقد راح يجتاح تجمعا آخر يسمى «صوري» الواقع إلى مسافة سبعة أميال إلى الشرق من «جنوة» ويتمكن من ثلاث مائة شخص، ومن دون خسائر عدا أربعة أتراك قتلوا رميا بالحجارة من على النوافذ. والليلة المقلبة الأمير «جون أندري دوريا» كان قد وصل من اسبانيا بسفنه الشراعية السبعة عشر وهو يعلم باجتياح الأسطول التركي، يخرج من الميناء باكرا، ولكن ملك الجزائر يعلم جيدا أن سفن «دوريا» لن تستطيع اكتشافه راح يواصل سباقاته على ساحل «لا برفانس» والأمير يرى أن من الأفضل العودة إلى الميناء.

ثانيـا

وبعد أيام قلائل من هذه الأحداث، نائب ملك صقيلية «مارك أنطوان كولونا» والذي ذهب إلى اسبانيا بمعية اثنى عشر سفينة شراعية، كان قد طلب حضوره الملك «فليب الثاني» وهو يمرّ برأس «نولي» يلتقي بالسفن الجنوية الآتية من اسبانيا وهو لا يريد تخفيض راية سفينة القبطان والتي ترفع أمام سفينة «لا ريال» للأميرال «جون أندري» وهذا ما عليه أن يفعله وفق العادة، رغم أنه كان واحد كبار الأمراء القدامى لإيطاليا. ولكن عزته وأنفته لم تجعله يخضع لهذا الإلتزام وهذا ما حرض غضب «دوريا» والذين يتبعه بسفنه لعدة أميال وهو لا يستطيع الالتحاق بسفينة القبطان راح يطلق طلقة مدفع ودون تردد «دون بيدرو دي ليفا» جنرال هذه السفن الشراعية يركب فرقاطته، وجاء إلى الأمير الذي يقود السفن الإحدى عشر وهو يؤكد له أنه منع من أداء التحية بقرار من نائب الملك. هذا التفسير لم يكن ليرضي «جون أندري» والذي راح يترك السفن تتبع سفينة القبطان التي راحوا يتبعونها إلى «فيلافرانكا» لـ«نيس» ويعود مباشرة إلى «جنوة».

والإثني وعشرون سفينة للجزائر وهي على الساحل الفرنسي[1] تتلقى المعلومات حول الإثني عشر سفينة شراعية التي راحت تتبعه انطلاقا من «كوبوروجو» إلى غاية «مرسيليا» من دون أن يستطيع اكتشافهم. ومنها راح يواصل طريقه إلى ساحل «برشلونة» ويصل صباح يوم قبل طلوع الشمس إلى «كداكس» وينزل البعض من جمعه ومدفعية لغرض حصار هذه المدينة ونهبها والأتراك يدخلون إلى بعض المزارع أين القوا القبض على خمسة من المسيحيين والذين راحوا يقدمون لهم بعض المعلومات عن الاثنى عشر سفينة شراعية ويؤكدون لهم أنها بـ«بالاموس» ومن دون شك، وهم على استطاعة في الاستيلاء عليهم، ويرون علاوة على هذا أن «كاداكس» ستقاوم أكثر مما كانوا يتوقعون، وإذا انهزموا فسوف يجنون على أنفسهم

---

(1) رسالة من هنري الثالث إلى السيد دي مايس بتاريخ 4 أوت تعطي لما بعض التفاصيل حول هذه الإرسالية: «حسن أغا ملك الجزائر قد أقام ثمانية أيام بجزر ماسيليا بعد ان كان متابعا لدوريا إلى غاية ثلاثة أميال وقد كاد ان يلتقي بمارك انتونيو كولونا أن هو لم يترك حق المرور والمساعدة من وزرائي والذي أعطى له الوسيلة للهروب وعدم الالتقاء بهذا الأخير». (المفاوضات مج 4 ص.300).

الخطأ الأكبر. ويتجهون إلى «بالاموس» لمهاجمة السفن الصقيلية. ولكن حدسهم لم يوفقهم لأنهم لم يستطيعوا الإنزال بسبب ظلمة الليل، وعوض أن يدخلوا إلى «بلاموس» راحوا يهيمون غربا إلى البعيد منها وصوب مدينة تسمى «سانت فيليكس دي ريجوليس» الواقعة إلى القريب بأربعة عشر ميل من «برشلونة» ومنها يجدون مراكب «السايتي». وهم يعتقدون أنهم وجدوا السفن الشراعية التي يبحثون عنها ويهاجمونها ولكنهم لم يفلحوا في ذلك. ولم يعد يأملون في إلحاق أي أذى بسفننا. ومنها يتقدمون إلى الأمام ويجتاحون تجمع سكاني يسمى «بينيدا» يقع إلى ثمانية فراسخ من «برشلونة» أين ألقوا القبض على خمسين شخص. بعدها وهم يرون أن كل الساحل أصبح على علم بوصولهم والسكان جميعهم راحوا يرفعون السلاح بوجوههم.

ومنها لم يعودوا يبحثون عن القيام بعمليات أخرى ويتجهون نحو مصب نهر «آلثيا» القريب من «آليكونت» والتي منها راحوا ينزلون. وحسن راح يقول لهؤلاء الموريسكيين الذين راسلوه منذ أربعة أشهر سبقت بأنه سوف يأتي للبحث عنهم بسفنه ونقلهم إلى الجزائر) بأن ينقلهم وعائلاتهم ومن أجل تسهيل هذه العملية راح يبعث بألفين من الرجال الأتراك المسلحين بالبنادق لضمان إبحارهم. وكان قد غادر حوالي ألفان من الموريسكيين بهم الكثير من الرجال والنساء. ومنها راح حسن يعود معهم إلى الجزائر، وهو في طريقه يصادف سفينة «راغيسان» من خمس آلاف «سالاما» والتي أتت من «بيلا» ذاهبة إلى «كاديكس» بها حمولة من القمح، ويستولي عليها من دون صعوبة. ومالكها المسمى القبطان «كاسبارد دي فيساسيو» يدفع فدية تسع آلاف أوقية من الذهب ومعها قائدها الكاتب وحمولتها. وكان على القبطان أن يدفع الفدية في أجل ثلاثة أشهر. وهذا السباق دام حوالي ثلاثة أشهر أي من شهر جوان إلى منتصف أوت 1582[1] وحسن يعود إلى الجزائر منتصرا وثريّ بالغنائم والرهائن ومنها راح يهتم بمزارعه وحدائقه (كما كانت عادته). وطيلة أوقاته التي كانت يوليها لحكمه إلى غاية

(1) هذا التاريخ خطأ. انظر إلى المذكرة السابقة.

وصول خليفته «مامي آرنؤوط» والذي كان بشهر مارس لسنة (1853)[1]. حسن الفينيسي يغادر الجزائر في شهر ماي وقد حكم لمدة سنة. وركب البحر بمرافقة اثنى عشر من السفن ثمانية تعود ملكيتها له وأربعة من التي رافقت «مامي». ومنها راح باشا على طرابلس ببلاد البربر أين مكث بها لمدة سنتين[2] ومنها جعله السلطان الأميرال الكبير. والتي اظهر فيها سداد وقيمة كسيده «اوشالي» ونقول أيضا أنه أحدث الكثير من الأتعاب للمسيحية، وقد غادر الجزائر وهو غاضب لكونه حرم بسرعة كبيرة من الفوائد التي قدمها له حكمه للجزائر[3]. وهذا ما سمع منه ويموت بعدها بالقسطنطينية مسموما كما حدث لسيده من طرف «سيغالا»[4] والذي كان يمقته ويأمل في استخلافه في مهامه وهذا ما حدث فعلا بعد موته.

---

(1) نفس الملاحظة التي قلنا عنها بالمذكرة السابقة إفريقيا) (انظر المفاوضات ..) عندما كان حسن نفسه يحكم الجزائر بشهر نوفمبر 1587 (المفاوضات المذكورة سابقا مج 4 ص. 619).

(2) في جويلية (1588)، سنة واحدة بعد وفاة العلج علي. الحقيقة ان حسن لم يكن إلا خليفة لهذا الباشا والذي احتفظ بها إلى غاية وفاته بمرتبة (بيغليار باي).

(3) وقبل أن نطوي حياة هذا الباشا نعود بالقارئ إلى أشياء سربت وأخطاء لم يتفطن إليها المترجم الفرنسي وهو يظهر لنا حسن الفينيسي المولى لـ«اوشالي» الذي راح يشفع له عند السلطانة الحاكمة الحقيقية بلا موارية للأمبرطورية والمحاطة بالسفراء الفرنسيين الذين يحكمون أو يشاركون في حكم الأمبرطورية التركية. يعيدون حسن الفينيسي إلى حكم الجزائر تحديا واستظهارا للقوة مع وعد بأن يكون ذلك مؤقتا والكاتب يوهمنا أن الأمر لا غبار عليه ويتناسى حملته وفضحه لأساليب حسن البينة حقا من دون أن يضيف لنا شرحا ونحن ندرك أن للسياسة وجهان وجه قبيح ووجه حسن وذلك توظيف العارفين. ولكن ما نراه غير دقيق أنه يعود بنا إلى مذكرات بها مغالطات فهو يظهر لنا حسن في صورة رمضان المرغوب، ويخلط بينهما ويعطى الأمر لحسن ليضرب ويقوم بالقرصنة على شواطئ فرنسا وفرنسا تحميه بعد أن كانت لا تريد رؤية وجهه وعند انتهاء الأجل المتفق عليه يذهب إلى طرابلس حاكما ومنها يرتقي إلى أميرال وتكون الوراثة واضحة وضوح شمس الصيف ولكن الأمر لن يستقر له ثبوت ففرنسا سوف تتدخل وهذا اعتراف منها وعلى لسان سفرائها، وعندما تأتي لحظة التخلص تأتي متتالية ومترادفة وينتهي حكم عرش استنفذ أغراضه وجاء عرش آخر ليواصل المسيرة الظافرة لإنكشاريين جدد ومن دم آخر ليقدموا الدليل على أن حكم الخلافة خدعة لا يصدقها الصبي الصغير .. ولنا نحن من يؤرخ لها، وكأننا سقطنا من كواكب أخرى لا نفهم لسانا ولا بيانا ....المترجم».

(4) سيغالا هذا كان ابن الفيكونت سيبيان سيغالا الجنوي. والذي قبض عليه وهو شاب صغير من طرف الأتراك ومعه أبوه بمعركة «غالفاس» ومنها أشهر إسلامه. وقد أصبح باشا وراح يعرف بسنان باشا. ومنها تزوج ابنة من بنات السلطان أحمد ومنها ارتقى إلى أعلى مراتب النفوذ بالأمبرطورية.

الفصل الرابع والعشرون

مامي باشا آرنؤوط الملك الخامس والعشرين

أولا

مامي باشا كان ألبانيًا أو آرنؤوطيا وهو نفس الاسم لألبانيا. وهو طفل صغير كان من الذين يسددون الأتاوات بانتظام إلى السلطان بمقاطعات «ايبيريا» لألبانيا واليونان ومنها راح ينتمي إلى «كراكس علي» قرصان وقبطان الجزائر والذي كان مولى له هو و«مراد رايس» والذين تحدثنا عن قرصنتهم. ومع مرور الأيام راح يتميز بمميزاته وقدراته وبمساندة من «اوشالي» ترك السلطان يقرر تسليمه حكم الجزائر[1]. هذا اختيار الملك كان جيدا، لأن «مامي»[2] راح يهتم دائما بالصالح العام، ويحكم في هدوء ويرضي الجميع ممن بالمملكة، أين كل واحد يشهد له بادرته الحسنة وعدله وفي شهر ماي (1582) خرج «مراد رايس» من الجزائر بثلاثة سفن وهو يصل إلى أحد الموانئ لبلاد البربر تعود ملكيته لملك فاس المدعو «صالي»، أين قام بإنشاء ثلاث فرقطات ذات الأربعة عشر مقعد وبعدها استطاع أن يعثر على طاقم بحري يقوم بالإبحار بالمحيط الأطلسي. ومنها ينطلق وكل سفينة تجر وراءها فرقاطاتها ويسير باتجاه جزر «الكناري» وهو يصل إلى السواحل الطاقم يخبر من ربانه بأنه تقدم كثيرا وأخطأ الطريق. ومراد يرد عليه بأن ذلك مستحيل، ويواصلون إبحارهم ومنها

---

(1) هذا خطأ، مامي ارنؤوط لم يكن يوما باشا للجزائر إذ لم يحكم إلا حكما استثنائيا لم يدم إلا قليلا من الزمن بعد الرفض الذي أظهره سكان الجزائر لاستقبال رمضان.

(2) انظر الفصل 19 – كان قائد الطائفة للرياس وكان على رأس الثورة زمن حكم أعراب أحمد.

يكتشفون جزيرة «لونسلوت» ومنها طووا الأشرعة وتوقفوا عن التجديف إلى غاية نزول الليل، حتى لا يَرون من على الشاطئ وهذا اللص راح يغتنم جيدا ظلام الليل إلى طلوع الصباح مع اثنين وخمسين من الأتراك الحاملين للبنادق ومنها راحوا ينهبون الجزيرة، ويستولون على أكثر من ثلاثة مائة رجل من بينهم أم وابنة الحاكم وغنائم كبيرة إذ لم يجدوا أدنى مقاومة .ويركب مع استيلاءاته وينسحب قليلا .ومنها يرفع راية البيع والكونت ينفلت من أيدي الأتراك بمغامرة ويسارع إلى فدية أسرته وأشخاص آخرين يحمل لهم عاطفة. ويتمّ هذا الفعل، ويعود من حيث أتى. و«دون مارتان دي باديلا»، كبير مقاطعة (دي كاستيلا) وجنرال السفن الشراعية. وهو يعلم بما حدث راح يترصد له بمعية ثمانية عشر من السفن بالمضيق، مقررا ألا يترك له فرصة المرور وبالتالي لا يظهر له أي بلاء يوقع به نفسه وهو الذي ذهب إلى حيث لا أحد من قراصنة الجزائر وصل إليه. ومنها انسحب إلى «العريش» وهذا الخوف جعله يمكث حوالي شهر. وفي ليلة جد مظلمة وعاصفة قرر التقدم إلى الأمام وهو يعتقد (وذلك ما حدث) أنه في هذه الليلة نفسها الزعيم الكبير سينسحب إلى الميناء حتى لا يعرض نفسه للعاصفة. ويجتاز «مراد رايس» المضيق ومنها راح يطلق قذيفة مدفع ليعلم المحاصرين له أنه اجتاز المضيق والمتابعة أصبحت غير ذات فائدة. ومنها يصل إلى «رأس القط» ويلتقي آرنؤوط بسفنه الثلاث وهذا الأخير يعلمه بأن ابنه قد توفى وهذا ما جعله لا يستمر في حملته.

وطيلة فترة حكم الملك «مامي» لم يحدث بالجزائر شيء قد يسجله التاريخ، إذ راح يمارس حكمه ولفترة أكثر من ثلاث سنوات، ولكن منذ ماي (1583) إلى غاية جويلية[1] أين أرسل إليه من يخلفه. وكان هذا «أحمد باشا»[2] الذي راح مجرورا برغبته الغير طبيعية يطلب من «مامي» ثلاثين

(1) في شهر أوت دوريا يلقي بكارثة على الجزائريين. إذ يحطم أسطولهم ويستولي على ثمانية عشر سفينة بالقرب من كورسيكا. (المفاوضات. مج 4. ص 395).

(2) هناك برهان قاطع عن الأخطاء التاريخية نراها في سرد تحكلم عنه السيد دي لونكوسم في حفل استقبال لأحمد الثالث (15 أفريل 1586): «أين راح يشكو التصرفات الغير لائقة والاعتقالات التي قام بها حسن باشا لنائب القنصل الفرنسي بيئونو سنة 1586، ومنها نعرف ان حسن كان باشا للجزائر .(المفاوضات مج .4 ص 498).

ألف أوقية قبل أن يغادر الجزائر. وهذا الأخير لم يكن يملك هذه الكمية فراح يهرب بواسطة أحد سفنه المتواجدة برأس «ماتيفو»، أين كلف واحد من الرياس ليقوم بجلب أطفاله له، وهو يتظاهر بأنه تركهم أحرارا، ومنها يعمد إلى إرسال إلى مستخلفه تعهّد بأن يدفع له خمس وعشرين ألف أوقية[1] تقدم له من «مراد رايس» مع اثنتين من سفنه.

ومنها راح يحكم باشا ليك تونس، أين مكث بها ثلاث سنوات، وبعدها لفترتين مختلفتين باشا ليك طرابلس وهو بطيبته وحسن تسييره يؤمن السلم والهدوء للجميع. وقد كان يوم مغادرته الجزائر يبلغ من السن أربعين سنة، وهو رجل طويل القامة بلحية سوداء، محبوب من الجميع ولم يكن قاسيا على المسيحيين.

(1) إن أردنا اخذ هذا السرد بدقة، قد يكون هناك مامي أرنؤوط آخر. وهذا ممكن. ولكن لأزيد وأوضح مع قليل من اليقين لكل الفصل والذي لم يؤكد أحد من الذين نعرف - وكرونولوجيا روسو تشير إلينا أن سنة 1585 وفي نفس السنة في شهر محرم في الفترة التي استخلف في سنة 1585 دالي أحمد وهو نفسه الذي يسميه هايدو أحمد ولكن هذه الكرونولوجيا بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

الفصل الخامس والعشرون

عماد باشا الملك السادس والعشرين

أولا

عماد باشا تركي الأصل من عائلة كبيرة، كان له نفوذا كبيرا لدى ديوان السلطان مما جعله يستلم حكم الجزائر والذي كان يريده منذ مدة. ويصل في شهر جويلية (1586)، ومنها راح يمنع كل القراصنة من الخروج من الميناء[1]. لأنه كان يريد أن يكون هو القائد لهم في النهب والإساءة للمسيحية كما كان يفعل «حسن الفينيسي». إن لم نقل انه أقل منه ولكن سيّده وهذا ما سوف يكون عليه واقعا.

إذ راح يجمع إحدى عشر من السفن الشراعية والغير شراعية المسلحة جيدا ومنها إنطلق بها في شهر جوان من السنة القادمة إلى جزيرة «غاليت» الواقعة إلى مسافة ثلاثين ميل من «طبرقة» ومن «بنزرت» كان قد استولي على سفينة من ألف وخمس مائة «سالاما» محملة بأخشاب للتجهيز، ومنها اتجه إلى جزيرة «ليستريكا» أين راح يصلح سفنه ويجهزها بكل ما هو ضروري وينطلق صباح يوم إلى خليج «نابولي». ويصل إلى شاطئ «ميلفي» ومنها إلى مدينة تدعى «برايا» أين راح يجتاحها وينهب بعض مخازنها للسلع والبضائع ويستولي على أشخاص. ومنها ينطلق في سرّية تامة وبسرعة قدر

---

(1) سبب هذا المنع والذي كان، لم يكن من عماد أحمد ولكن من العلج علي وهذا ما أطلعتنا عليه رسالة من السيد دي لونكوسم: «ونحن نعرف أن هذا الموضوع كان لغرض محاولة تصورتها رغباته والذي أصبح يملك اليد الطويلة أن يكون باشا كل بلاد البربر وهو بذلك لا يترك أحد يكون ذا وزن،... ونحن ننتظر هل يستطيع تحقيق ذلك». (المفاوضات مج 4 ص. 517).

الإمكان إلى السواحل الرومانية ،أين راح ينزل بعض رجال البنادق الأتراك للنهب وإحداث أكبر الضرر، ولكنه يرغم على العودة من دون نتيجة، وأمره ينكشف من قبل الأميرال «خوان أندري دوريا» الذي كان يقود زوجته إلى «نابولي» بمعية سبعة سفن شراعية وهو يرى السفن التركية راح يطاردهم من منتصف النهار إلى غاية الليل، والظلام كان لفائدة الجزائريين. لأن التحام سفن الأمير بهم (كما حصل خلال النهار. على افتراض أن النهار يكون طويلا) كان سيجلب عليهم خطرا كبيرا بإلقاء عليهم القبض. وقد كان قد وضع يده على واحدة من سفنهم ذات العشرين مقعدا ولكنها أنقذت من طرف «آرنؤوط مامي» والذي راح يجرها أين كانت سفينته مسلحة جيدا ولكن الليل حان وقته و»دوريا» يتوقف عن مطاردته. والكل راح يواصل سفره[1].

(1) هناك اعتراف ضمني تظهره هذه الرسالة من دون أن نعود إلى العلج علي الذي نصب من أسياد وقد فاقت شهرته حدها. وها نحن أمام نهاية عهده وسطوته قربت. والرسالة توضح ما كان خفي وهي تشكك هزوا، فنجاحه لن يكون من الان وما عليه إلا أن يرحل ..تلك هي سطوة فرنسا لمن لا يعرف قدرها ......المترجم».

ثانيـا

بعد أن قام بهذه المغامرة، «الباشا عماد» يأخذ إبحاره إلى «مونت كريستو» من دون توقف. ومنها يتوجه إلى «كورسيكا» بخليج «سانت فلورون» أين اجتاح تجمع سكني يسمى» فارينغولا» ومنه يختطف مائتين وأربعين من الأشخاص وينتقل بهم إلى جزيرة «روزا» والتي منها تبدأ بلاد «الجنويين». أين راح ينزل وجنوده ليلا ويحرق منازل تجمع سكني صغير يسمى»برا» يبعد عن «جنوة» بستة أميال، ويخطف امرأة ورجلا. ومن دون يحدث ضررا بهذا الساحل، ومنها إتجه إلى جزر «هيار» الفرنسية، ويستولي على فرقاطة كانت قادمة من اسبانيا بها أربعة عشر ألف أوقية، قام بتوزيعها على القراصنة المرافقين له. ومنها إنطلق إلى السواحل الاسبانية من دون أن يستطيع إلحاق أي ضرر لكون السكان انتبهوا إلى وصوله.

وهو يرى الأمر على تيقن وحذر، راح يقرر العودة بأسطوله إلى الجزائر وينزل البحر في نهاية أوت، بعد أن دامت رحلته شهرين ونصف من القرصنة[1].

و كان أول وآخر سفر طيلة فترة حكمه والتي دامت أكثر من ثلاث سنوات أي من شهر جوان (1586) إلى شهر أوت (1589)[2]، إذ لم يتوقف عن إرسال سفنه في سباقات وكانت دائما تعود محمّلة بالغنائم والرهائن. وبعد ثلاثة سنوات من حكمه راح يرسل له بمستخلف، وقد غادر الجزائر بمعية تسعة سفن ليذهب حاكما لطرابلس أين قتل في إغارة حصلت بين الأتراك والمور لهذه المملكة نذكرها هنا. وساعة مغادرته للجزائر كان سنّه في حدود الستين، كان أكثر عدلا وفخرا لكونه حكم بطريقة مرضية.

---

(1) هنا الكاتب لم ينتبه إلى خطئه، وهو يذكرنا بأن «مامي» استرجع السفينة وقد كان له شك في أنه مامي آخر والواقع أنه موجود في كتابته فهذا قرصان يدعي «آرنؤوط مامي» والأخر الذي أوقع لديه التباس يدعى «مامي آرنؤوط » وبالمقارنة نجد حتما أن هناك إشان، إضافة إلى أنه يدعي أن دوريا قادر على الإيقاع بهم والواقع أنه فقد سفينة استولى عليها فكيف يفسر ذلك؟ أعتقد أن المعركة لم تحصل وإلا فالتصوير والتشويق أكثر بكثير من هذه الملاحظة ....المترجم».

(2) أنظر الفصل العشرين.



الفصل السادس والعشرون

حيدر باشا الملك السابع والعشرين

أولا

حيدر باشا كان تركيا، وقد تسلم حكم الجزائر بوسائل يستعملها المور والأتراك لكسب التبعات أي بمعنى الدراهم والهدايا. قد وصل شهر أوت (1589)[1]. بأربعة سفن شراعية أعطاها إياه الأميرال.

وفي نفس الوقت كان قد عاد «مراد رايس» إلى الجزائر وكان قد ذهب في سباق في شهر أفريل بصحبة «آرنؤوط مامي» و«علي مامي» بأربعة سفن جد مسلحة كانت تبحر بمحاذاة سواحل بلاد البربر. وقد أتوا من جزيرة «غاليت» الواقعة إلى البعيد من «طبرقة» ومنها اتجهوا جميعهم بعد أن قاموا بجولتهم المعهودة إلى «سردينيا» ومنها راحوا يتجاوزونها إلى غاية «مونت كريسو» وهنا رأوا أربع سفن شراعية للبابا «سيكس كانت»[2]. مراد كان يريد المهاجمة، ولكن «آرنؤوط مامي» كان على عكس رأيه وهم يعتقدون أن السفن الشراعية أقوى من السفن الأخرى وبها الكثير من المحاربين. ولم يكن هناك ما يثير الدهشة أن يكونا على خلاف في الرأي لأنه و«مراد» مغامر شجاع معتاد على مواجهة الصعوبات بينما «آرنؤوط »

---

(1) حصل بهذه الفترة حدث قليلا ما معروفا. السلطان المعظم سمح لقراصنة الجزائر بالتعرض لسفن مرسيليا لمعاقبة هذه المدينة بعد أن أخذت بالطرف المناوئ لملك فرنسا حليفه. ولكن لسوء الحظ العادة لا تكون دائما سهلة المنال من فقدانها. وحيدر نفسه سوف يكون له يوما يسدد قطع رأسه، بمواصله التيه الذي علموه إياه يوم نصبوه.

(2) هذا البابا كان قد أنشأ سلاحا له من عشرة سفن شراعية «سيفيتا-فيسيا» لحماية شواطئ الولايات البابوية الأكثر عراقة في المسيحية من القراصنة (دي تهو التاريخ العالمي مج 11 ص. 265).

حذر ومنتبه. وهذا ما جعل «مراد» ينطلق لوحده بسفنه وهو جدّ غاضب وساخط على زملائه. ويذهب إلى منارة «مسين» ومن هنا إلى شاطئ «بولا» أين استولى على سفينة لخمسة مائة «سالاما» بها ثلاثين مدفع، ويهاجمها بشجاعة اليائس، وهو بهذا يظهر مقته لهؤلاء الرفقاء. ولكنه راح يتخلى عن استيلائه الذي كان خاليا من البضائع، ويستولي على الطاقم والمدافع التي كانت جيدة للاستعمال. ومن هنا راح يعترض بقناة مالطا، أين التقى بـ«سياتي»[1] فرنسية كانت آتية من تلك الجزيرة. ومنها يتلقى مذكرة بأن هناك سفينة شراعية ذات ثلاثة وعشرين مقعدا تسمى «سيرينا» والتي أرسلها السيد الكبير للاستعلام عن بعض أصداء ثورة ضد الأتراك راحت تبث بطرابلس. وهو يتلقى هذه المذكرة يتوجه نحو «لامبدوس» رغبة منه في مهاجمة هذه السفينة الشراعية، إن هو التقى بها. ولهذا راح ينتظرها لعدة أيام بين «لا مبدوس» و«ليزونا» وهما جزيرتان تقعان إلى البعيد من مالطا بأربعين ميل وهو في هذه الفترة نفسها يقوم بحساباته على دفتره كما هي عادته (أوهام شيطانية حقا!) يبقى هنا إلى غاية ذات صباح، أين راح يخرج من «ليزونا» للذهاب للاستكشاف، حسب عادات القراصنة ويرى أن السفينة المالطية التي ينتظرها باتت على قرب منه بحوالي عشرة أميال، تجر وراءها سفينة استولت عليها من السواحل بلاد البربر معها رهائن وغنائم. و«مراد» وهو يراها يستدير إلى انكشارييه ومشارقته ويقول لهم بكلمات تشجيعية هكذا: «إخواني ها هو اليوم الذي علينا إظهار به شجاعتنا ووزننا ومنها يشار إلينا على أننا جند أوفياء، من دون خوف من هلاك ونحن بهذه الفرصة

---

(1) نرى أن دي غرامو قد أفصح بكثير من الشفافية، وهو مؤرخ له وزنه. ويحسن وضع النقاط على الحروف. وهو يقدم لنا دليلا آخر على تورط فرنسا وسياستها التي لا تعرف استقرار وهي تطلب المساعدة ولو بأساليب لا يقبلها العقل وهي تعاقب مواطنيها بقراصنة لا يعرفون لا إيمانا ولا قانونا. ونسأل نحن أنفسنا أي غباء أجراه حكام الإسلام على أنفسهم وفرنسا تعطيهم الدليل الذي لا يقبل التأويل، والمنفذ للأوامر سوف يحاسب على خطئه لا يقبل المهمة التي لا يقبلها أي عاقل. ونسأل بعدها أين الحل والغزو بدأ التحضير له منذ قرون ويأتيك فكاهي في الروايات والمسرحيات من يضع لحروفه نقاط وهي أصلا لا تحتاج نقاط فنطقها ليس به عجم ......المترجم».

السعيدة، وهكذا يجب أن تكون مهنة العسكرية، إذن كونوا على استعداد لكسب الشرف والغنيمة في سبيل نبينا محمد»[1].

وبهذه العبارات الجميع راح يقتحم وبسرعة وبأي كيفية هذا الخطر، وهو يقول لهم أن عليهم أن لا يشكوا في قدراتهم ومهاجمة سفينة هؤلاء الكلاب الحاملين للصليب، وهو يقدر شجاعتهم. راح الجميع يرفع السلاح و«مراد» يقول للجذافين للمسيحيين والذين راحوا يبقون ساكنين، إن أراد الله منحكم الحرية بهذا اليوم فإنه لا يعارض[2].

ومنها راح يتوجه إلى «سيرينا» ويطاردها وهو يظن أنه أمام العديد من سفن العدو إلى القريب من الجزيرة. وقبطان السفينة المالطية يأمر مرصد السفينة بأن يعطيه عدد سفن الأتراك التي يراها وهذا الأخير يخبره بأن لا يرى إلا واحدة، وقبطان السفينة يعده بمائتي أوقية إن كان الذي يراه حقاوعندما أيقن رجالنا (يقول الكاتب)راحوا يمسكون بالنصر المؤكد، ومنها حولوا الاتجاه إلى سفينة «مراد رايس» والذي راح يطلق نيرانه من مدافعه وعند الالتحام، كان الحظ سيئا وأول من سقط من القتلى كان رجال المدفعية والذي سبب لها الخسارة لنقص في الدفاع المهم لتلك اللحظة. كانت هناك تقتيل للجنود الآخرين الذين دافعوا بقوة، وأخيرا النصر كان حليف هذا الكلب «مراد» والذين قبض على القليل من المسيحيين الذين بقوا أحياء وأعطى الحرية لموري وأتراك هذه السفينة الحربية. ومنها يرجع إلى بلاد البربر وقد سقط الكثير من انكشارييه بين قتيل وجريح وإلى القريب من اتجاه آخر من «القل» استولى على فرقاطة من أربعة عشر مقعدا والتي كانت آتية من «مايوركا»بطاقم يتكون من خمسة عشر شخصا، ومنها ولمسافة يومين يتجه إلى الجزائر يجر معه السفينة التعيسة الحظ «سيرينا» والفرقاطة المايوركية وهما تجران من ورائهما أعلامهم وراياتهم، كما هي عادة القراصنة، عندما يستحوذون على استيلاء

---

(1) اعتقد أن ما قاله الكاتب به نوع من الذاتية والتصور الغير اللائق وهو يؤرخ لأحداث ولكن ان يدعي بأن محمد يود مثل هذه الأفعال فهذا خطأ ومغالطة كبرى وتبقى القرصنة وإيذاء الآخر من دون سبب شيء منبوذ من كل عقل سوي ...المترجم».

(2) إذ لو أن المعركة كانت في غير صالحه والقوة المسيحية كانت الرابحة يكون الأتراك بأماكن هؤلاء حسب العادة والعرف.

من هذا النوع. والملك حيدر كان قد وصل إلى الجزائر ثمانية أيام ويرسل إليه بفرسه وموكب من الانكشاريين لاصطحابه إلى قصره تحت احتفاء وتكريم كبير.

ثانيا

بهذه الفترة موري من مملكة طرابلس يدعى المرابط «سيدي يحي» انتفض ضد استبداد الأتراك، بعد أن استباحوا المملكة لجوقهم وسيطرتهم القاسية. راح يجمع جيشا من ثلاثين ألفا فارس موري وخمسة مائة مقبوض عليهم من المسيحيين يحملون البنادق لكسب حريتهم التزموا كلية خدمته بهذه الحرب ومنها راح يقاد من طرفهم وهو يطلب منهم نصائح في كل أمر وهم بلا شك يستطيعون طرد الأتراك من طرابلس ،ان كان هذا الموري قبض منا ما كان ينتظره بأن يكون ذلك عن طريق البحر وقد طلب من نائب ملك «صقيليا» والذي كان «دون ديغو انرياز دي غوميز» كونت إلبا دي ليتزا»، بأن يرسل إليه سفن شراعية من المملكة ومن القوات المالطية، واعدا إياه بجعل طرابلس تحت تبعية ملك اسبانيا ولم يكن سعيدا بطلبه إذ لم ترسل له أي نجدة ولم يتلقى من مالطا إلا فرقاطة محملة بالبارود وذخائر أخرى والتي استعملها في حربه. والسلطان ومن غير انتظار ومن أجل القضاء بسرعة على هذا الخطر يرسل أميراله الكبير «حسن باشا» ليقدم علاجا مناسبا لهذه الثورة. وهذا الأخير يغادر القسطنطينية في شهر جويلية (1589)[1] وبرفقته ستين سفينة شراعية وقبل إبحاره يرسل على جناح السرعة سفينتين شراعيتين جد مسلحتين، لإعلام «مراد رايس» وقراصنة الجزائر وبنزرت بأن يلتحقوا به إلى القريب من طرابلس أين يتواجد الأسطول التركي والذي سيصل نهاية جويلية. وبعد زمن قصير يلتحق بهم «مراد رايس» بأربعة سفن شراعية و»حيدر» الذي أتى منذ ثمانية أيام إلى الجزائر يرسل إليه حصانه وموكب من الانكشاريين لاستقباله بقصره تحت احتفاء كبير.

أين كان بها جمع كبير من الانكشاريين وكل قراصنة بنزرت وهم تحت قيادة الأميرال. وبعد أن جمع قواته «حسن» راح يرتئي أن يفعل حسنا بأن يدفع ببعض السفن إلى الشواطئ المسيحية للاستعلام بما يحصل، ومنها

(1) هذا الحدث مؤكد من رسالة للسيد دي مايس إلى هنري الثالث بتاريخ 8 جويلية 1589: «السلطان الأعظم راح يدعو حسن أغا إلى الخروج 60 سفينة شراعية ويأخذ حراس من الأرخبيل بمائة أو مائة وعشرون. ومنها يذهب إلى طرابلس ببلاد البربر، أين عليه أن يراقب ملك اسبانيا (المفاوضات ،مج 4. ص. 734).

يستطيع تنفيذ أوامر السلطان. وعلى هذا الأساس راح يندب أربعة قراصنة لهم سداد كبير «حاجي بالي». الذي أعطاه القيادة، «أحمد رايس»، «سوف رومولار» و«كاستيلانو علي»[1] بخمسة سفن شراعية ومنها يصلون إلى صقيلية والتي إلى القريب منها يستولون على سفينة من خمسة مائة «سالاما» محمّلة بالقمح والآتية من «بيلا» وسفينة خاصة بالخمور «كريمشال» معبأة بخمر «كلابري» ويقبضون على أربع وعشرين شخصا كانوا بالسفينتين وبعد مغادرة القراصنة، الأميرال ينزل بقواته بعدد اثنى عشر من المشاة والخيالة ومنها راح يخوض عدة معارك مع قوات المرابط. والسداد العسكري للأتراك يتفوق دائما على حركية فرسان أعدائهم رغم أنهم يكثرونهم عددا كما قلنا ومنها الأميرال وهو يرى أن الجوّ المناسب لإبحار السفن الشراعية قد فات لأن الشتاء قربت وهو يبدو أنه عاصف راح يقرر سحب السفن ويراهن على عدم ثبات الثائرين ويفكر في أن تركه لعدد من المسلحين بالبنادق يستطيعون إسكات التمرد وكان ما تصور. إذ يغادر نهاية أكتوبر طرابلس ويسرّح سفن الجزائر وبنزرت والتي كانت قوية بألفي مسلّح بالبنادق مع بعض المور المشاة وعلى الجياد والذين في هذا الحرب كانوا مع الطرف التركي، إذ لأيام قلائل من بعد سيكون بينهم وبين الثائرين معركة عامة إذ النصر بقي لصالح الأتراك.

ولأن المور بطبيعتهم على قلة من الإيمان وأكثر تقلبا (ككل الأجناس المنحطة) وهم يرون أنفسهم منتصرين، إذ راحوا يرتكبون أخطاء لإرضاء أنفسهم بخيانة كبيرة ويقتل المرابط «سيدي يحي» والذي يغتال من طرف أصدقاء له، والذين كان يسرّ إليهم وهم الذين اتخذوه قائدا عليهم. إذ قاموا بجز رأسه و(ن. م) ومنها راحوا به إلى الأتراك، والمملكة تهدأ وتخضع من جديد إلى الحكم العثماني أين تصبح السيطرة أكبر من سابقتها، و«أحمد باشا» يقتل في هذه الحرب بضربة سهم وقد كان كما قلنا يريد هذا الحكم وهو يغادر الجزائر وتعيينه كان سببا في مقتله.

ثالثا

في السنة المقبلة (1590) ملك (بني عباس) راح ينتفض ضد الأتراك ويرفع عصا العصيان. ومنها يرغم «حيدر باشا» على تجميع جيش لإخماد هذه الثورة. ومنها جهز اثنى عشر ألف من المسلحين بالبنادق وألف من الصبايحية على الجياد. وهو بطريقه يلتحق به أربعة آلاف فارس من المور وهم أصدقاء له يخبرونه بأن ملك «بني العباس» ينتظره بثلاثين ألف من الفرسان وأن ثرواته وقوته قد مكنته بالبادية من تحصيل الجيش الكبير ولكن هذا العدد لن يجعل منه قويّ أكثر إلا إذا كان بمقره مدينة «بني عباس» والتي تقع بمرتفع عال وصعب الوصول إليها وهنا حشد جيشه و» حيدر باشا».

يقرر مهاجمته ويأمر حال الوصول إلى سفح الجبل الذي شيّدت عليه المدينة والأتراك لن يستطيعوا الصعود إلى هناك إلا واحدا واحدا بسبب الارتفاع ومصاعب الأرض وقد انشئوا لتسهيل الهجوم حصنا من التراب وجذوع الشجر والتي تجعل من الملك المتمرد محتجز. ومنع جيشه من التزود بالمؤن أو أي نجدة من أي طرف آخر.

إذ قام ببعض الغارات إلا أنها لم تكن كافية. لأن المحاصرين لن يستطيعوا البقاء هكذا بالهواء والعراء ضد الأتراك والذين يقومون بأعمال لها دلالتها على أراضيهم، وهم يحرقون ويخربون قراهم وأشجارها من دون رحمة ولا شفقة. والنصر النهائي كان مشكوك فيه. وعندها قام موري صاحب نفوذ يدعى «المرابط» وقد راح يتوسط بين الملكين وهو يرى من العار الكبير والذنب العظيم اتجاه الله أن تكون هذه الحرب بين أميرين مسلمين والتي سوف تضعف من قوتهما لفائدة المسيحيين أعداؤهم الطبيعيين ويقنعهم بخطبه والسلم راح يتحقق وذلك بأن يسلم ملك بني عباس لملك الجزائر ثلاثين ألف أوقية. والجيشان ينسحبان والحرب ترفع وزارها بعد أن دامت لشهرين.

وقبل مغادرته الباشا كان قد قام بتسليح أربعة سفن لسباق القرصنة. والرياس لم يكن لهم من الانكشاريين الا القليل (ولانه لا يسمح لأي كان أن يقوم بالقرصنة في هذه اللحظة وتجنيدهم للحرب ضد ملك(بني عباس)

لا يزال قائما) وهم يرون أنفسهم مجبرين على الذهاب إلى الحرب مثلهم مثل جنود مور البادية، وأطفال بالدكاكين وبحارة تجار والذين وصلوا إلى صقيلية كانوا قد فوجئوا بعاصفة كبيرة واثنتان من السفن افتقدتا. وأخرى تخسر بجزر «النمغاس» إلى القريب من «آغيستا» وأخرى تتحطم على صخرة إلى القريب من «غوز دي مالطا». الاثنتان الأخيرتان تفران إلى رأس «باسيرو» وتعودان إلى الجزائر مليئة بالمسيحيين الذين اختطفوا ب»كلابري» و»بوي».

وفي شهر ماي (1591) «آرنؤوط مامي» و»مراد رايس»و «دالي مامي» ينطلقون من الجزائر بتسعة سفن ويتوجهون إلى «ليستريكا» وهي جزيرة تقع على ستين ميل من «صقيلية» وهنا يلتقون بثمانية سفن شراعية لهذه المملكة، ولا أحد من الجانبين كانت له الشجاعة في الهجوم. ولم يكن هذا شيء يبعث على سعادة سفن القراصنة الذين هم في حاجة إلى محاربين للدفاع بحيث أنهم لم يكونوا يشكّون كلهم أو جزء منهم أنهم سوف يكونون تحت رحمة السفن المسيحية إن هم أرادوا المنازلة. وهم يتخلصون من هذا الخطر، راحوا يعودون إلى الجزائر أين يصلوها في شهر أوت من دون أن يتوقفوا بأي مكان وهم على خوف كبير من السفن الشراعية المسيحية، هكذا كانت سعادة أعداؤنا (كما يقول الكاتب).

وفي شهر أكتوبر المقبل، كانت سجون «كاستيلا نوفو» بها أربعة عشر رايس لسفن وفرقطات الجزائر والذين ألقي عليهم القبض في فترات مختلفة مع أشخاص متعددين. من بينهم تركي يدعى «عموشة» قبطان بنزرت والذي يحتل مرتبة كبيرة، كان في سباق في شهر (1590) بسفينة يمتلكها ذات الأربعة والعشرين مقعدا وهو يستولي على بعض الاستيلاءات الهامة على السواحل الاسبانية ويرغب في أخرى وقد جاء إلى السواحل الرومانية ولكن قبض عليه من طرف ابن الأمير «دوريا» والذي كان عائدا من «نابولي» بمعية إحدى عشر سفينة شراعية. وكان أيضا هناك واحد من الذين قبض عليهم منذ ست وعشرين سنة يدعى «مصطفى آرنؤوط» واحد من مشاهير قراصنة الجزر، رجل قوي متزوج من إحدى قريبات القبطان «ارنؤوط مامي» والذين راح يبحث عن طريقة لفديته. وآخر يدعى «جعفر» والذي ألقي عليه القبض ب»فيرمانتيرا» القريبة من «ايفيسا» سنة (1586)

وهو يلتقي بتسعة عشر سفينة شراعية جنوية كانت تحمل نقودا إلى ايطاليا (كما هي العادة).سبع من هذه السفن القوية هاجمت الخمس سفن التركية والتي راحت تصل إلى «فيرمانتيرا». والملاحون المجربون كانوا قد نصحوا بعدم الإبحار والانتظار بهدوء الجو ولكن جنرالهم اجبرهم على السير ومنها وصلوا إلى السفن الشراعية وفي هذه اللحظة فوجئوا بعاصفة بحرية وثلاثة من سفننا يتحطمن إلى قطع، وأخرى ثقبت من صخرة والتي راح تجر بعمل شاق. ومن السفن التركية افتقدت منها اثنتان والثلاث الأخرى بقت بعرض البحر وهم يرون الاختلاط والفوضى التي كان عليها طواقم السفن التي لم تستطيع الرسو والكل يفكر في طريقة ما تصله إلى اليابسة. والبعض من الانكشاريين ينزلون بأسلحتهم إلى القريب من مكان التيه ويستولون على عدد كبير من الناجين وهم يهجمون عليهم بضربات بالبنادق من دون تمييز ويكسبون كمية كبيرة من السفن التي تحطمت بحيث أن الجنرال لم يكن إلا ترك تلك النقود للأتراك وهو بذلك يتخلص من حديده[1].

هذه الخسارة الكبيرة برغم الغنيمة الذي أحرز عليها الجنويون من السفينتين اللتين خسرتا المعركة و«الرايس جعفر» المولى الفرنسي[2] الذي كان قبطان لواحدة منهما. وبهؤلاء الرياس الثلاث كان أيضا بالقلعة إحدى عشر من القباطنة أقل قيمة، أين تسعة من هؤلاء ألقي عليهم القبض بـ«الالفاك» من طرف ابن الأمير دوريا، والسفينتان الأخرتان لـ «نابولي»، أين كل المقبوض عليهم يريدون حريتهم ويبحثون عن الوسيلة لاكتسابها، والرياس الثلاث الذين كانوا تحت رقابة شديدة عكس الآخرين، وهم يقدمون ثمنا كبيرا يطلبون من قائد القلعة «دون آلفارو دي ماندوس» بأن يجمعهم بالآخرين من أجل إقامة حفل ديني لهم ويقولون أنهم ولمدة كبيرة لم يرونهم. والقائد يوافق على طلبهم ولا يشك فيما سيحدث. والأتراك الذين لم يكونوا موقوفين، يروحون ويجيئون بحرية تامة داخل القلعة راحوا

(1) هذه صورة من هايدو للأميرال المنهزم، وكلمة الحديد تعني عبارة أي يصك النقود ولكن ما نلحظه أن الكاتب يلعب على الكلمات وانهزام المسيحيين يجعل من هؤلاء أدوات ذات قيمة.

(2) لنتذكر بهذا الموضوع وحسب رسالة من السيد مايس إلى هنري الثالث يظهر له فيها أن جعفر باشا مولى فرنسي ولد بدياب - ربما يقصد بهذا الشخص نفسه أو اخا له (المفاوضات مج. 4 ص. 473).

يدخلون إلى السجن أين كان موقوفون الممتازون منهم، بعض الحبال والقضبان وأدوات الذكاة والشحذ والتي أخذوها في سرية تامة ومنها راحوا يخفونها بعناية. ومنها راحوا يشحذون إلى جهة الشاطئ لقسم من السياج الحديدي للسجن الذي كانوا معتقلين به ويحدثون ثقبا واسعا يستطيع أن يمر من خلاله رجل ويربطون حبلا ومنه راحوا ينزلقون ويثقبون الجدار الذي يفصلهم عن واجهة البحر بقضبان حادة ويصلون إلى فرقاطة بثمانية مقاعد والتي يستعملها على الدوام نائب ملك «نابولي» ليتنزه بالبحر. ومنها يركبون هم الأربعة عشر ويصلون إلى جزيرة «ليستيكا» أين أقاموا لبعض الوقت ويختطفون سبعة بحارة مسيحيين. وفي هذه اللحظة تأتي إلى الجزيرة فرقاطة تركية ذاهبة إلى (كورسيكا) وهم يريدون المغادرة لكن القبطان طلب منهم أن يعطوه السبعة مسيحيين، ولكنهم رفضوا طلبه. والفرقاطة تغادرهم دون أن تأخذ هؤلاء، ويتركونهم على غير رغبة ولا يعتقدون إن القدر ترك هؤلاء ليطعموا بعض البطون الجائعة ويغادرون «ليستيكا» التي اختبئوا بها.

بعد أن واجهوا الكثير من مصاعب ومتاعب البحر. يصلون إلى بنزرت ومنها راحوا يستقبلون استقبال الأبطال من قبل الأتراك والذين أحيوا ذكرى رجوعهم بطلقات مدفع وحفلات وأعياد لنصر كان أكثر من جميل.

كونت «ميراندا» ونائب ملك «نابولي» راحوا يبحثون بجد عن إيجاد كيفية لهروبهم وهل كانت عن طريق استخبارات أو مساعدة من خارج أو داخل القلعة؟ ومنها راحوا يضعون حراس الأسوار وحراس السجن تحت طائلة التعذيب والاستنطاق لتلك الليلة التي فروا فيها. ولم يتوصلوا إلى اكتشاف أي شيء سوى أن سداد الأتراك وحظهم السعيد الذي أعطى لهم الحرية التي كانوا يرغبون فيها منذ زمن طويل.

وفي شهر جوان (1592) «آرنؤوط» يذهب في سباق قرصني مع أحد أبناء أخوته بمعية ثلاث سفن، وهو يصل إلى «كورسيكا» يلتقي بسفن شراعية فلورانسية والتي جاءت هي الأخرى لسباق قرصني مثله وهؤلاء يقومون بمطاردة عنيفة مما جعلهم يستولون على سفينة كان بها ابن أخ «آرنؤوط مامي». والأخرتان والقبطان كان لهم الحظ في الفرار ولكنهم سوف لن يمكثوا طويلا ليسقطوا رهائن. ويعودون إلى الجزائر في شهر أوت.

في هذه الساعة كان وصول «شعبان باشا» مما أحدث فرحة كبيرة لكل السكان والذين كانوا جدّ مستاءين من حكم «حيدر باشا». وقد كان في تلك الفترة رجل كبير السن ومعاق، غير معطاء، صاحب فخر يمقت المسيحيين، سيء المعاملة ومستبد للجميع كما سنرويه في تاريخ حكمه لفترة ثانية لحكم الجزائر.

الفصل السابع والعشرون

شعبان باشا الملك الثامن والعشرين

أولا

شعبان باشا يغادر القسطنطينية ليأتي حاكما للجزائر في شهر جوان (1592) ويصلها في الأيام الأولى من شهر أوت وما أن نصب حتى راح يرى أن سابقه في الحكم كان قاسيا في تصرفاته وبسبب هذه كانت هناك العديد من الشكاوي التي تقدمت بها الميليشيا. وهي ترى وصول ملك جديد تريد الثأر من السابق. ولهذا الفرض راحت تجمع الديوان (وهو الذي نسميه عندهم بالمجلس) وقرروا إرسال بعض البولوك باشي إلى القسطنطينية مع هدية جميلة إلى السلطان ومذكرة لإعلامه بقسوته واستبدادية «حيدر» وقد راحوا يختارون كرئيس لهذه البعثة «آرنؤوط مامي» والذي جاء من سباقه القرصني. هذا الأخير الذي أصبحت ثورته على قلتها لفترة من الوقت، يقبل بهذه المهمة التي تبعده عن الجزائر. وهو يائس من هؤلاء الرجال الأشرار الذين ما فتئوا يتزايدون. وعلى أي حال فبعد خسارته لسفنه وابن أخيه. وقد رأى موت مولى له من أصل فرنسي كان يحبه كثيرا وكان قد سجن زوجته والتي راحت تنتحر فيما بعد.

وارنؤوط يغادر الجزائر في نهاية أوت (1592) بمعية أربعة سفن واحدة هو المالك لها واثنان من التي أخذت حيدر وأسرته وأخرى تنتمي إلى «مامي النابوليتاني» والتي ركبها البولوك باشي وهم يصلون إلى «باسارو» بصقيلية كادوا أن يسقطوا بأيدي سفن شراعية لمالطا. أين قبطانها كاد أن يلتحم بمؤخرة سفينته وكان له السداد في الفرار بسفنه ويصل إلى القسطنطينية، وهو لا يأخذ بتهم الميليشيا ضد «حيدر باشا» بسبب الرأي العام الذي كانت عليه حاشية الملك من انكشاري الجزائر والديوان. والبعثة تعود

بالفرقاطتين غاضبة ومتذمرة للثأر الذي لم توفّق فيه. «حيدر» بقي في سلام منتظرا الفرصة التي سوف تقدم له للانتقام.

شعبان راح يحكم بحسن مما جعل الجميع على رضى به ويحبه. وقد كان بفترة حكمه وباء طاعوني كبير بالمدينة كما بالمملكة[1] ومنها راح يرتاح بعناية كبيرة. وفي شتاء السنة القادمة، أتت عاصفة جد قوية مع رياح أين منارة الجزائر كلها تهدمت. وسفينة السيدة لـ «مراد رايس» سيرينا التي استولى عليها من قبل من الفرسان الكنسيين لمالطا كانت بالمرسى تحطمت إلى نصفين وكذا سفينتين شراعيتين كانتا بالميناء كل واحدة تملك اثنى وعشرين مقعدا وسفينتين واحدة من مائة «سالاما» والتي استولى عليها القراصنة بالسواحل الاسبانية محملة بالسكر وأخرى من ست مائة «سالاما» تحمل الزيت واللتين ذهبتا قطعا قطعا و«سايتي» الفرنسية والتي كانت متواجدة لحظتها راحت تتوقف بعرض البحر لتضمن سلامتها من العاصفة وتأتي موجة حادة مفاجئة غيبتها إلى الأبد عن الأنظار.

وفي السنة الموالية (1593) شعبان يبعث في سباق سفينة شراعية من سبعة عشر مقعد والتي استحوذ عليها ليلة رأس السنة «دون بيدرو دي ليفا «جنرال السفن الشراعية لصقيلية بجزيرة «ليستيكا». وفي سنة (1594) يخرج «مراد رايس» من الجزائر في شهر مارس برفقة «جعفر» المولى الجنوي و«محمد رايس فوشلي» ويروح محاذيا سواحل بلاد البربر وهو يصل إلى جزر «غالفاس» ومنها إلى «لامبادوزا» أين كان يأمل في العثور على سفن مسيحية، وهو يخط حساباته الشيطانية راح يلتقي أمام «رمال البربرية» في صباح يوم بسفينتين يتعرف عليهما بسرعة. وكانتا سفينتان مسيحيتان، ومنها أعطى الأمر بأن تقوما اثنتان من الأربعة بخفض أشرعتهما وكل واحدة منهما تتأخر إلى الخلف من اللتان بقتا على حالتهما، ومنها راح يتهيأ بحكمته والطعم الذي قدمه لهم في انتظارهم، وكانت الخدعة كافية بأن تجعلهم يأتون ومراقب سفننا يعتقد أن هناك سفينتان وهو لا يرى الأخرتان اللتان حطتا من أشرعتهما يعطي هذا الاعتقاد الخاطئ للقبطان.

---

(1) كان هناك وباء طاعوني يقال جاء من تونس وقد ضرب لثلاث سنوات واكتسح كل البلاد.

والذي راح يصل بكل ثقة للهجوم. وعندما أصبح إلى القريب، «مراد» يرفع الشراع ويهاجم العدو. ومن هاته كانت سفينة القبطان «دوق فلورنس» المسماة «سانت جون» والتي جاءت للقرصنة ببلاد البربر، وهو يرى نفسه محاط بأربع سفن، لم يعد يعرف وجهته أيهرب؟ أم يقاتل؟ ويمضي بعض الوقت يناقش أمره، فيما هو فاعل وهذا ما أعطى الوقت للأتراك في الهجوم على سفينة القبطان الذي راح يجتمع بمجلس الحرب، أين راح أول الأمر يهاجمها بسفينة العشرين مقعدا والتي كانت جد واطئة ولا تستطيع الالتحام بها. وبعدها راح»مراد» يهاجم بالجانب الأيمن لمركبه وبعد أن أرسل بسفينته إلى الأمام يقفز هو وأتراكه وسط السفينة، ويقتل بعض القواد لـ«سانت إتيان» وبعض المحاربين منهم «جعفر» المولى الجنوي وأخ «مراد» يهاجمون السفينة الشراعية «سانت - جان» بالسفينتين الأخيرتين، والتي راحت تقاوم ببسالة قدر الاستطاعة، قتلت وجرحت العديد من الأتراك وأخيرا وهي ترى القبطانة قد استولي عليها، راحت تفقد من قدرتها وتستسلم.

و«مراد» يعود إلى الجزائر بعد هذه الاستيلاء الجد مشرف والسجناء وهو بالتالي يعطى للأتراك والمور الكثير من محتويات هاتين السفينتين. ويصل منتصرا في شهر جويلية ويعود بسرعة مع العديد من السفن والتي استطاع تسليحها للاجتماع بالأميرال «سيغالا» الذي راح يغادر القسطنطينية بمائة سفينة برفقة «آرنؤوط مامي» كقائد عام للأسطول نظرا لخبرته وسداده. و«سيغالا» يصل إلى بحار«كلابري» في شهر سبتمبر ويحرق مدينة «ريجول»، ويدنس المعبد ويخرب الحدائق ويقوم بكل المخاطر وهو على هذا في طبعه الذي لا يفعله إلا البرابرة الكافرين ويجدون مدينة فرّ أهلها، إذ أن الجميع هرب إلى الجبال عند وصولهم حتى لا يقعوا بأيديهم.

وأسطولنا أي السفن الشراعية لـ «نابولي» وصقيلية وجنوة والتي كانت على علم بوصول الأسطول التركي، كانت قد وصلت ساعتها ولم تتراءى إلا بعد أن راءوا الأتراك يعودون إلى القسطنطينية بعد أن أصبح الجو سيئا وهم بذلك لا يريدون أن يضعوا أسطولهم موضع الهلاك.

وفي شهر ماي من السنة المقبلة (1595) «مراد رايس» يخرج من ميناء الجزائر بثلاث سفن ويروح يحاذي السواحل البربرية إلى غاية «المنستير» وهي مدينة تقع إلى القريب من مدينة سوسة لمسافة اثنى عشر ميل، أين

استولى على ثلاث فرقطات لـ«ترابيني» مدينة بصقيلية مع كل طواقمها. ومنها يواصل سباقه إلى «باسارو» أين وصله خبر وجود خمسة سفن شراعية لمالطا والتي كانت بـ «سراقوسا» مدينة لهذه المملكة.

وهاته السفن أرسلت بفرقاطة تستطلع السفن التركية والتي كانت بعدد ثلاثة كما سبق وأن قلنا، ومنها أرسلت على جناح السرعة بفارس كنسي لكي يبلغ لسفننا بأن السفن التركية قد توقفت بـ «باسيرو» وبهذا الخبر راحت السفن تغادر بسرعة وتصل إلى «فانديكار» ترى بأن فرقاطتهم تنبههم بإشارة إلى نشر أشرعتهم لأن هناك سفن تتبعنا ولا يشكون في أن هناك وجود لسفن شراعية للديانة، وقد بات الليل مظلما عندما اكتشفوا بعضهم البعض. والسفن المالطية تغير وجهتها وتتقدم مهاجمة السفن التركية، وهذه الأخيرة وهي ترى نفسها مهاجمة من قبل خمس سفن بدأت في الفرار وهي متبوعة بالقبطانة «سانت جان» والتي لها سرعة كبيرة في الدفع عن الأخريات، وتصل إلى سفينة «مراد رايس » التي راحت تغطيها بإطلاق النيران عليها وتضعها في هلاك كبير. وهذا الأخير راح ينسحب من الخطر بأن وضع كل الحاملين للبنادق بالمؤخرة أين راحوا يدافعون بقوة (ويسقط العديد منهم قتلى)، والبعض منهم يقتلون بعض الفرسان الكنسيين للسفينة ورجال المدافع الذين يشكلون قوتها وينسحب بقدر الإمكان وفي نفس الوقت راحت تهاجمه قبطانة «الديانة» والتي قاومها الأتراك كما فعلوا مع «القبطانة» ويرغمونها على الانسحاب وكذا الآخرين، إذ أنهن كن يحاربونها بالتناوب وكان يوما قاسيا ومغامرتيا لسفينة «مراد رايس». وبهذه الطريقة استطاع بعد أن قتل من رجاله الكثير وكان قد أصيب لخمس مرات ولكن بإصابات طفيفة من قبل هؤلاء الأسود لأمر من سانت جان والذين كانت لهم مخالب والتي لا اشك يوما أنهم سوف يستحوذون عليه وهم دائما يبحثون عنه. وهنا راح «مراد» وأخوه إلى «فيلون» والرايس الآخر رفيقه ينفصل عنه في عاصفة، ومنها يعودون إلى الجزائر في شهر سبتمبر محملين بالرهائن والغنائم. وفي هذه الأثناء شعبان يغادر الجزائر في شهر جويلية إلى القسطنطينية وقد حكم الجزائر لثلاث سنوات. وهو يغادر الجزائر كان يبلغ من العمر اثنان وأربعين سنة محبوبا ومرحبا به من الجميع.

الفصل الثامن والعشرون

مصطفى باشا الملك التاسع والعشرون

أولا

مصطفى باشا يستخلف شعبان في حكم الجزائر[1]، إذ لم يمكث إلا أربعة أشهر، من شهر جويلية إلى شهر أكتوبر (1595)، في هذه الفترة، لم يكن هناك ما يوجب ذكره. وعند مغادرته، كانت هناك بعض ردود الانفعال حصلت بينه وبين «حيدر» الذي كان قبله ولكنه سوف يثأر لنفسه أيّما ثأر بعد أن يعود أي يحكم الجزائر للمرة الثانية و«مصطفى باشا» كما نصوّره لكم رجل يبلغ من العمر حوالي خمسة وثلاثين سنة من عائلة طيبة وهو من أقارب شعبان الذي سبقه والذي كان محل شبهة للتعاملات التي قام بها ضده «حيدر» وهو يستخلفه، سوف نتطرق إلى ذلك بالفصل الآتي.

(1) إليه يرجع تأسيس سوق الغزلان والتي أخذت مكان أوزيا القديمة لضمان الاتصالات بين قسنطينة والجزائر.

الفصل التاسع والعشرون

حيدر باشا للمرة الثانية والملك الثلاثون

أولا

نستطيع أن نقول أنه وبكل الأزمنة، العطاءات والهدايا كان مفضلة على الحق والسبب ولها الأفضلية في تعيين الحكام بالجزائر، ولكل المملكات التي خضعت للأمبرطورية التركية، ولكن لم يكن هذا الطبع أكثر مما هو عليه اليوم بين الأتراك والمور. و«حيدر باشا» يضرب لنا المثل في ذلك بعودته إلى الحكم لمرة الثانية رغم انه أعطى للرأي العام انطباعا سيئا نحوه والجميع لم يكن يرضاه حاكما، وسابقه «مصطفى باشا» لم يتولى الحكم إلا لفترة قصيرة. ومن الهمّ نستنتج آخر (وكأنه عادة)، إذ أن «حيدر» الذي أعماه الحقد ضد شعبان الذي استخلفه على حكم الجزائر للمرة الأولى من حكمه، نظرا لسيرته السيئة وشكاوى الجزائريين التي حفزت به استبداده، راح يحاول إيجاد الوسيلة للثأر من سابقه «مصطفى» لأن هذا الأخير قريب لشعبان. وأول شيء قام به وهو يصل يغرّم «مصطفى» بمبلغ ستين ألف (مزدوجة) هي نقود كانت متداولة بتلك الفترة والتي تساوي خمسة عشر أوقية من النقود إضافة إلى معاملات سيئة وهذا طبع الأشخاص المنحطين والحاقدين، وهو يزعم أن هذه الدراهم سوف تكون لإعادة بناء المنارة وإصلاح الأضرار التي أدتها بها العاصفة التي تحدثنا عنها من قبل، وهو يدعي أن «مصطفى» مرغم على إجراء هذه العطوب والحقيقة أن هذه ليست من نيته ولكن لكي يحتفظ بالمبلغ لنفسه ومصطفى يجد نفسه مرغما على المرور من هنا. ومنها يتوجه بسرعة إلى القسطنطينية مع نيته في البحث عن وسيلة يستردّ بها حكمه للجزائر وتوبة عدوّه عن الهمّ والسوء

الذي أوقعه به. و«حيدر» يبقى بالجزائر هذه المرة من سبتمبر (1595) إلى سبتمبر (1596) ولم يحصل بهذه الفترة أي شيء يوجب ذكره[1].

(1) يبدو أن حيدر كان قد استبدل بطلب من سفيرنا بالقسطنطينية وبناء على شكاوي الميليشيا. وفي هذه الفترة كانت الفوضى قد عمت الجزائر، والقراصنة والسكان راحوا يتوعدون الانكشاريين الذين أرغموا دخول المعارضة.

الفصل الثلاثون

مصطفى باشا للمرة الثانية وملك الجزائر الواحد والثلاثون

ـ أولا ـ

لقد تحدثنا عن الحزن والبغض الكبير الذي راح يكنّه لمستخلفه «حيدر» يوم مغادرته للجزائر إلى القسطنطينية، وكذا الأسباب التي راحت تحرّضه على العودة. وقد وفق في الرجوع عبر توسط من أصدقاء وأقارب له والذين راحوا يترجون السلطان محمد بقوة في إعادته إلى باشا ليك الجزائر وهم يظهرون الوقت القصير الذي أمضاه والذي لم يكن فيه غير منتقص من الأحقية في العودة ويضيفون أن «حيدر باشا» الذي أصبح ممقوتا من الجميع نظرا لقسوته واستبداده وسوء إدارته. كل هذا بإغرائه بالهدايا التي لا تعرف لها وقت داهمه والتي راح يقدمها إلى «سيغالا» وباشاوات الديوان جعلت من السلطان يعينه ملكا جديدا على الجزائر ويصل إلى الجزائر في شهر سبتمبر (1596) برضى كامل من السكان. وبدأ مباشرة في تنفيذ أحلامه والتي كانت الثأر من عدوه ومستخلفه ولهذا راح يطلب منه الثلاثين ألف أوقية، وهي مبلغ مضاعف للتالي أخذها منه من قبل وهو يصرح أن هذا المبلغ كان مقررا لبناء منارة الجزائر و«حيدر» لم يصلح بالخمس عشر ألف أوقية وأن هذا كان غطاء وخدعة ومن أجل ترهيبه أكثر راح ينشر وعيده بأعمال جدّ خطيرة على كل شخص يسمع عنه أن ابتاع منه عبيدا أو شيئا آخر من «حيدر» وبهذا حرمه من السيولة النقدية التي كانت عنده وهذا ما جعل هذا الأخير يغادر الجزائر وهو على غضبه

الكبير ويأسه ومصطفى يبقى مبتهجا لهذا الثأر الذي استرده من عدوه، وهذه طباع الغير أوفياء[1].

(1) ونحن ننتهي من هذه الترجمة نعتقد أننا رحنا من سنة 1581 الفترة التي غادر فيها الكاتب الجزائر والتاريخ كله بات يحمل الاجتهاد ويعوض بقصص تتضمن السباقات القرصنية والاستعباد والحقيقة أن هايدو في هذه الفترة رجع إلى مسين لدى عمه الأسقف بهذه المدينة ولم يعد يكتب إلا من خلال سرود المختطفين المفديين ولكن هذا لن يأخذ إلا القليل من الأشياء للقيمة التاريخية الكبيرة لهذا الكتاب، أن نجد التأكيدات تقريبا موافقة بدقة للوثائق الرسمية.

الخاتمة

انتهيت بتوفيق من الله من ترجمة هذا الكتاب الرائع في التاريخ لملوك الجزائر وأنا على يقين من الله أن هذا الجهد الذي رحت به أقدم نزرا من تراث بات مجهولا من أبنائنا الطلاب وأملي في ذلك أن يجد صدى استحسانا استشرفه من ومضات أحداث وروايات قدمها الكاتب لدارسي تاريخ البحر المتوسطي وما تحمله من حقائق لا يمكن التغافل عنها وأخذها مأخذا غير لائقا بها.

والكاتب يقدم لنا الكثير من المشاهد هي تراث لحاضر نريد به إدراكا وتقويما. وأمة لا تترجم ما قيل عنها اعتقد جازما أنها لن تعرف أخطاءها ولن تصل إلى صحيح مسارها.

يبقى أن نشير أننا استمتعنا بهذا الكتاب قراءة ونقدا ونفعا ورجاؤنا في ذلك أن يكون به شيء من الإفادة لطلابنا والذي رحت أجهد نفسي في إتمام ترجمته على أكمل صورة مع بعض الملاحظات تخصني حتى لا آخذ من رأي الكاتب فهو حر في قوله، ولكن ما أراه نافعا وصالحا أن تعطى الفرص للترجمة بالمساعدة والتحفيز فإن هناك تراث لا زال لم يقرأ ولم تمتد إليه يد الطالب والباحث لعدم معرفة اللسان الآخر .. وما نرجوه هو إعطاء هذه المعارف نفعها وإزاحة الغبار عنها حتى تكون للترجمة دورها ومرتبتها والله من وراء القصد ....

ومع ترجمات أخرى لتاريخ بلادي لكم مني جميل المتعة والمؤانسة وخالص الرجاء.

أبو لؤي عبد العزيز الأعلى

الفهرس



عبد العزيز الأعلى من مواليد 20 فيفري 1958 بوادي العثمانية بولاية ميلة بالجمهورية الجزائرية .

بدأ دراسته الابتدائية بقرية وادي سقان و منها انتقل إلى الثانوية العتيقة " حيحي المكي " بقسنطينة و منها راح يلتحق بالمعهد التكنولوجي للصيانة الصناعية بالجزائر العاصمة.

دُرس لفترة وجيزة ثم التحق بالمركب الوطني للمضاغط والمرصصات بعين اسمارة لسنوات.. ومنها راح يتحوّل إلى العمل الحرّ بميدان تكوينه.

ولكن لقدر أراده الله له . سقط مريضا تحت حادث جلطة لأوعية دماغية ..لازمته آثارها الصعبة عليه .. فراح يجتهد وهو مشلول النصف في إعطاء عصارات فكر اختزنها من حياته العملية والثقافية و الاجتماعية . فترجم لحقل التاريخ كتب عن مقاطعة قسنطينة إلى جانب تأليف كتبا في الفكر و الاجتماع و الترجمة ...منها ترجمته لكتاب له شهرته الكبيرة تحت عنوان تاريخ قسنطينة الذي يحمل الكثير من المزايا التي قدمها كاتبه الكبير آرنست مارسيي وكتاب ملوك الجزائر و برابرة و أعراب و تعال نتحاور... ومخطوطاته الآن بين مترجمة و مؤلفة مجتمعة فاقت الخمسة عشر وهو يعمل جادًا رغم المرض العضول في إنجاز أخرى سوف ترى النور ليوم لا يراه بإذن الله بعيدا.


9789947038567

